جـــــــــامعـــــة الأزهــــر- غـــــزة
عمـــادة الدراســـات العليـا والبحث العلمـــي
كليـة الآداب والعلوم الإنسانيـة- قسـم التاريخ
برنـامج ماجسـتير دراســـات الشرق الأوسط



مفهوم الصهيونية عند عبد الوهاب المسيري
(دراسة نقديـة)
موسوعة اليهودية والصهيونيـة- نموذجاً

إعداد الطالب

عبد اللطيف زكي أبو هاشم

إشراف

الدكتور: خالد محمد صافي- جامعة الأقصى

الدكتور: عصام مخيمر – جامعة الأزهر

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في دراسات الشرق الأوسط

١٤٣٤هـ- ٢٠١٣م


بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِير ﴾(البقرة: ١٢٠).

" إن معركتي مع الصهيونية ليس لها علاقة كبيرة بالصراع العربي الإسرائيلي، فعدائي للصهيونية ينبع من عدائي لكل أيديولوجيات العنف والعنصرية، مثل: النازية وأيديولوجية التفرقة اللونية في جنوب إفريقيا، وأنه لو اختفت إسرائيل من على وجه الأرض، أو تصالح معها كل العرب، لظل عدائي للصهيونية كما هو، وهذا بطبيعة الحال مرتبط برؤيتي المعرفية التي تركز على الكلي والنهائي".

عبد الوهاب المسيري

إهداء

إلى أول من بشّر بنهاية المشروع الصهيوني قبل موته بساعات

إلى روح الدكتور عبد الوهاب المسيري رحمه الله

شـــكـــر وتقديـــر

أتقدم بالشكر الجزيل إلى عائلتي الكريمة، التي عانت أكثر مما عانيت ووفروا لي كل سبل الراحة، إلى زوجتي أم هاشم، وأولادي جميعاً: عُرَيب، وعبير، وعلا، وهاشم، ومحمد، ومجد، ومحمود، وإسراء، لهم مني جزيل الشكر.

كما أتقدم بالشكر الجزيل للدكتور: خالد محمد صافي؛ لإشرافه على هذه الرسالة وعنايته وملاحظاته القيمة، وأتوجه بالشكر أيضاً للدكتور: عصام مخيمر؛ لإدراكه قيمة البحث وصبره الجميل عليّ وعلى مدة البحث في الرسالة.

والشكر أيضاً لابنتي الأستاذة: إيناس شعبان درباس؛ لما قامت به من قراءة وتدقيق لغوي ونحوي لهذه الرسالة، مع ملاحظاتها القيمة في صلب البحث.

والشكر أيضاً للأخت: رانية جهاد الشويكي؛ لمراجعتها وقيامها بعمل الملاحظات الأخيرة والمشاركة في عملية المونتاج.

والشكر موصول للأخت: شيرين الضاني؛ لمساعدتها في أعمال المونتاج الأخير للرسالة.

وأشكر الأخ الدكتور: مازن النجار أنبه تلاميذ المسيري وأنجبهم على الإطلاق؛ لرعايته هذا البحث عن بعد.

كما أشكر الأخ الأستاذ: مروان عبد الرحمن أبو شمالة؛ لتفضله بترجمة ملخص الرسالة، فله مني جزيل الشكر.

كما لا يفوتني أن أشكر الأخ الحبيب: حاتم إبراهيم اليازجي؛ لتوفيره الكثير من مراجع البحث من الخارج.

والشكر العميق لعائلة الدكتور المسيري، وعلى رأسهم حرمه الدكتورة: هدى حجازي؛ لتعاونها وعنايتها بهذا البحث.

فهرس المحتويات

ملخص الدراسة باللغة العربية

غطت هذه الدراسة موضوع مفهوم الصهيونية عند الدكتور عبد الوهاب المسيري (١٩٣٨–٢٠٠٨)م، حيث أرسى من خلال موسوعته عن اليهود واليهودية والصهيونية، منهجاً جديداً في دراسة الجماعات اليهودية وتاريخ الحركة الصهيونية.

وقد تضمنت الدراسة حياة المسيري ونشأته، وعصره، وجهوده في تصحيح مسار الفكر العربي والإسلامي، ودور مؤلفاته في التأصيل المعرفي لدراسة الظاهرة الصهيونية.

كما بيّن الباحث كيف أن دراسة الحركة الصهيونية لا تتم بمعزل عن نشأة وتطور تاريخ أوروبا، والحركات والمذاهب التي نشأت عنها، وفي هذه الدراسة تحليل مفصل لتوضيح مدى التشابه والمفارقات بين الحركة الصهيونية، والحملات الصليبية، وتشابهها الصارخ في ديباجياتها الدينية.

احتوت الدراسة على ستة فصول مع مقدمة وتمهيد وخاتمة وتوصيات، وكل فصل تضمن عدة مباحث ، حيث تضمن **الفصل الأول** من الدراسة: حياة المسيري ونشأته، وتناول **الفصل الثاني**: الحديث عن كتابات ومؤلفات وأبحاث المسيري ودورها في التأصيل المعرفي لدراسة الظاهرة الصهيونية، واستعرض **الفصل الثالث** نموذج الحلولية الكمونية الواحدية، ونشأة وتشكل العلمانية الشاملة، والعلاقة الجدلية بين العلمانية الشاملة وبين مذهب الحلولية الكمونية الإلحادية، وعالج **الفصل الرابع**: الحديث عن الجماعات الوظيفية وهو النموذج الأبرز والأهم في رؤية المسيري، وتناول **الفصل الخامس**: رؤية المسيري لنهاية المشروع الصهيوني ومصير الدولة الوظيفية، وطبيعتها، ومدى ارتباطها العضوي بالدولة الحاضنة (الولايات المتحدة الأمريكية)، وفي **الفصل السادس**: درس الباحث رؤية المسيري لنهاية المشروع الصهيوني، ومصير الدولة الوظيفية، وزوال إسرائيل، والعلامات العشر لنهاية المشروع الصهيوني.

كما كشف الباحث عن أهم النتائج التي توصل إليها المسيري من خلال دراسته للصهيونية، ومن أهمها: مستقبل إسرائيل (الدولة الوظيفية) ونهايتها، حيث طرح عشر علامات لزوال إسرائيل، وبيّن أهم أسباب فشلها في تحقيق الأهداف التي وضعتها خلال مائة عام من تاريخها.

ABSTRACT

This study covered Dr. Abdul Wahab Almissiri concept of Zionism (1938-2008), as laid down by his encyclopedia about Judaism and Zionism, and his study of the intellectual and cultural circumstances, which is the study of thought of modernity in a philosophical and .cultural background

The study included Almissiri life and upbringing, his life and his time and efforts in the correct path of the ideological Arab and Islamic thoughts, and the role of his work in .cognitive rooting to study the phenomenon of Zionism

The researcher also showed that the study of the Zionist movement cannot be isolated from the origin and evolution of the history of Europe, and the movements and doctrines that originated from it, and in this study a detailed analysis to illustrate the similarities and discrepancies between the Zionist movement and the Crusades and the striking similarity in religious justifications.

The research contained six chapters, with an introduction, preface, conclusion, and recommendations, and each chapter contained several sections,

where **the first chapter contained**: Almissiri life and upbringing.

The second chapter: Talked about the writings of Almissiri research and its role in cognitive rooting to study the phenomenon of Zionism.

The third chapter: discussed the Pantheism LTP unitary model, and the emergence of a comprehensive secular, and the dialectical relationship between secularism and comprehensive atheistic doctrine of pantheism LTP.

The fourth chapter: dealt with the functional groups which formed the most prominent and most importantly in Almissiri research and point of view.

The fifth chapter: addressed: "Almissiri vision for the end of the Zionist project and the fate of the state and nature of the functional organic relation to the state incubator" of the United States of America. "

The sixth chapter: the Researcher studied Almissiri vision of the end of the Zionist project and the fate of the functional state and the demise of Israel and the ten signs of the end to the Zionist project. The researcher also revealed important findings of Almissiri through his study of Zionism and the most important of it is the Israel's future "functional state" and its vanishing, where he put ten marks for the disappearance of Israel and among

the most important reasons for failing to achieve the goals set by over a hundred years of history.

الدراسة التمهيدية

المقدمة.

أولاً– أهداف الدراسة.

ثانياً– منهجية الدراسة.

ثالثاً– محتويات الدراسة.

رابعاً– أهمية الدراسة.

خامساً– فرضية الدراسة.

سادساً– حقل الدراسة.

سابعاً– الدراسات السابقة.

المقدمة

يشكّل الدكتور عبد الوهاب المسيري ظاهرة هامة وكبيرة في الفكر العربي الحديث؛ حيث قدّم دراسات كان لها الأثر الكبير في تفسير وتحليل الحركة الصهيونية، بل ومحاولة تفكيكها من داخلها، فقد كان لدراساته أثراً كبيراً وفاتحة في فهم ودراسة الحركة الصهيونية المرتبطة بالحركة العلمانية في أوروبا، وقام المسيري بدور كبير في ملء الفجوة التي يعاني منها العالم العربي والإسلامي بصدد دراساته وتصوراته عن الحركة الصهيونية، حيث أحدث تقدماً كبيراً في فهم وتفسير بل وإعادة تفسير جوهر الصهيونية وفلسفتها المرتبطة ارتباطاً تاريخياً وحضارياً من خلال ارتباطها بالغرب، إضافة إلى ارتباطها عضوياً بنشأة وتطور الحركات والمذاهب الأوروبية الحديثة، كالعلمانية، والماركسية، وغيرها من الحركات وعلى رأسها الماسونية.

لقد ساهمت كتابات المسيري في تسليط الضوء على مواطن القصور النظري، الذي وسم الخطاب العربي في حقل الدراسات الصهيونية بسمات الانتمائية في الفكر، والتبعية في المرجع والرؤية، وفي سبيل ذلك صرف المسيري جهده في الإبانة عن نقائص الخطاب العربي المعاصر في نظرته إلى واقعه، وقصر نفسه في التأصيل المعرفي لما يدافع عنه من أفكار وصور وتعابير شتى.

وهذه ظاهرة يؤكد المسيري أنها تجد تبريرها ليس في كون الخطاب العربي يقرأ تاريخ العقيدة اليهودية والشأن اليهودي بوحي من مسلمات الفكر الحديث، بل يستند إليها ويفكر داخلها لتدعيم مرجعياته، والجمع بين نموذجين متنافرين على صعيد التعميم والتخصيص معاً، نموذج الرؤية الهلامية التي تنزع إلى تفسير أطروحة التاريخ اليهودي كأطروحة هوية أو كتلة وجودية ليس لها نظير، ونموذج التحليل العضوي الذي ينشد العام في صيرورته وتفاعله، ويستغل وقائع التاريخ وشواهد الممارسة السياسية؛ بدافع التركيز على ما هو واقعي في الظواهر اليهودية والصهيونية.

ومن هذه الزاوية يوجه عبد الوهاب المسيري نقده الصارم للخطاب العربي المعاصر، مما نجد صداه في الإطار النظري لعمله الموسوعي، كما نجد ومضاته المشعة أثناء البحث والتحليل واستخلاص النتائج في كثير من فقرات مقدماته في المجلد الأول، ويفصح عن عناصر الأفق النظري التي يتحرك فيها تفكيره ومنهجه في التحليل والتفسير، مع كل ما يستلزمه ذلك الاختيار من جنوح إلى العرض التحليلي وميل شديد إلى التركيب، فالهاجس المنهجي عند المسيري هو كيف نتمكن من دراسة الشأن اليهودي الصهيوني، دون أن نسقط ضحية لسيطرة المقولات الغربية، ودون أن نجرد أعضاء الجماعات اليهودية من السياق التاريخي الاجتماعي، فوجهة نظر المسيري إلى الظواهر اليهودية على النحو الذي يفيد التعميم

والتخصيص معاً، إنما تضبطها وتوضحها الطبيعة المركبة لشبكة المفاهيم والمصطلحات، ويصدق هذا على سلسلة التعاريف التي تعلق الاختلافات الأولية وتخلق أوراق الأفكار والأزمنة والعصور.

إن أهمية الدراسة والكتابة والبحث عن المسيري تكمن في إعادة تقييم وفهم وإدراك لجوهر الفكر الصهيوني، إضافة لقلة الدراسات التي كتبت عن مفهوم الصهيونية عندالمسيري؛ حيث لا يوجد كتب مستقلة عنه، فالأغلب هو مقال أو بحث أو موقع مجلة أو جريدة أو على الإنترنت؛ لذلك حاولت هذه الدراسة أن تسد جانباً هاماً من ذلك النقص.

أهداف الدراسة:

- إجراء دراسة معمقة حول الحركة الصهيونية من خلال موسوعته: موسوعة اليهودية والصهيونية وكتبه الأخرى.
- محاولة تبسيط نظريات المسيري حول الحركة الصهيونية من خلال كتبه وأهمها الموسوعة، حيث أن لغة المسيري وفلسفته ليس في مقدور الجميع فهمها.
- دراسة المؤثرات الفكرية التي أحدثها المسيري في الفكر السياسي العربي تجاه الصهيونية، وكان لها الأثر الكبير في فهم الصراع العربي الإسرائيلي.
- إجراء دراسة نقدية تحليلية للإطار النظري للرؤية الفلسفية والنماذج المعرفية التفسيرية، التي يقدمها المسيري في كتبه ومؤلفاته، وعلى رأسها الموسوعة الصهيونية.
- محاولة قراءة النصوص الصهيونية بصورة معمقة، مع المحاولة للوصول إلى المفاهيم الكامنة وراء المصطلحات والنماذج الإدراكية، وإدراك جيد للأطروحات الصهيونية التي تخفي عنصريتها.

منهجية الدراسة:

اتّبع الباحث في دراسته المنهج التاريخي التحليلي، إضافة للمنهج التركيبي والتحليلي والتفسيري والمنهج النقدي.

إن طبيعة الموضوع تفرض الجمع بين عدة مناهج، على أن هذه المناهج وإن تعددت وتنوعت فإنها تتكامل إذا كانت تصب في موضوع واحد، لذا اعتمد في هذا البحث على المنهج التحليلي برد الظواهر إلى نموذجها المعرفي واستخراج ظاهرة الصهيونية منها، والمنهج الاستقرائي الوصفي للوقوف على أهم تجليات تلك الظواهر، فقد قام الباحث بقراءة كل ما كتبه المسيري، ومقارنته بما كتب من بحوث ودراسات أخرى، إضافة إلى التركيز على الموسوعة اليهودية والصهيونية، مع تقصّيه لكل ما كتب عنه من خلال الأبحاث والمقالات المتفرقة على الشبكة العنكبوتية، واتّبع الباحث طريقة التوثيق حسب

المؤلف، وقد بذل الباحث جهوداً كبيرة في الدراسة للوصول إلى مجمل أفكار ونماذج المسيري في دراسته للحركة الصهيونية، وقد اكتسى البحث طابعاً فكرياً وفلسفياً لإدراك منظومة المسيري التي تبناها وطبق عليها نماذجه الفكرية.

محتويات فصول الدراسة:

احتوت الدراسة على ستة فصول مع مقدمة وتمهيد وخاتمة وتوصيات، وكل فصل على عدة مباحث، تضمن **الفصل الأول** من الدراسة: حياة المسيري ونشأته وحياته وعصره، كما تحدث الباحث فيه عن جهد المسيري وأثره في تصحيح مسار الفكر العربي والإسلامي في دراسته للحركة الصهيونية، وتناول الباحث عدة أراء لباحثين ودارسين معاصرين ورأيهم في المسيري، حيث اعتبره البعض من أهم علماء ومفكري العرب والمسلمين، وساوى البعض الآخر بينه وبين ابن خلدون، ثم تتبع الباحث في هذا الفصل جميع المحطات الهامة في حياة الدكتور المسيري، وكيف توجه في محطته الأخيرة إلى دراسة الفكر الصهيوني.

وتناول **الفصل الثاني:** الحديث عن كتابات ومؤلفات وأبحاث المسيري ودورها في التأصيل المعرفي لدراسة الظاهرة الصهيونية، حيث قام المسيري بتصحيح مسار الخطاب العربي ونقده، وإرساء منهجية جديدة تقوم بدراسة الحركة الصهيونية ورؤيتها بصورتها الكلية من خلال تاريخ وتطور الحضارة والحداثة الغربية، ويقرر المسيري في نظريته هذه أن دراسة الحركة الصهيونية لا تتم بمعزل عن نشأة وتطور تاريخ أوربا والحركات والمذاهب الفكرية التي نشأت بها، مثل: النازية، والداروينية، وغيرها من المذاهب.

كما تعرضت الدراسة في هذا الفصل لمجمل كتابات ومؤلفات المسيري حول الصهيونية، مبينةً آثارها مع عرضٍ مجمل للأطروحات والأفكار التي قدمها، حيث يرجع المسيري بالحركة الصهيونية إلى حركات مماثلة لها في الفكر والعقيدة والمنهج، وهي: (الحملات الصليبية)، حيث يدرس ويحلل ويوضح ويعلل لمدى التشابه والمفارقات بين الحركة الصهيونية والحملات الصليبية، مبيناً التشابه الصارخ في ديباجياتها الدينية على حد تعبيره.

واستعرض **الفصل الثالث:** نموذج الحلولية الكمونية الواحدية، ونشأة وتشكل العلمانية الشاملة، والعلاقة بين الجدلية بين العلمانية الشاملة وبين مذهب الحلولية الكمونية الإلحادية، التي جاء بها الفيلسوف الهولندي (باروخ اسبينوزا Baruch Spinoza)، ثم وضح الباحث نماذج المسيري التي انطلق من خلالها، وأهمها: النموذج التفسيري، ثم عرج الباحث على أهم سمات النموذج من خلال عدة مباحث، كما

أورد في هذا المبحث مفهوم نموذج الحلولية عند المسيري، وارتباط الحلولية اليهودية بحلولية الحركة الصهيونية، حيث أبرز الباحث مدى التشابه والالتقاء بين كل منهما، ومحور الارتكاز في الالتقاء هو: الحسيدية التي وجد الباحث فيها تطابقاً كبيراً في الرؤية والمنهج، ثم وضح الباحث في نهاية المبحث رؤية المسيري لمذهب الحلولية وطرحه رؤية أخرى أطلق عليها (المرجعية المتجاوزة) بدلاً من المرجعية الكامنة في مذهب الحلولية.

ثم ربط الباحث في **المبحث السادس** من هذا الفصل بين العلمانية الشاملة والحلولية الكمونية، كما تحدث عن أقسام العلمانية الجزئية منها والشاملة وعلاقة العلمانية الشاملة الفلسفة الداروينية.

وعالج **الفصل الرابع:** الحديث عن الجماعات الوظيفية، وهو النموذج الأبرز والأهم في رؤية المسيري، وقد قام الباحث بتوضيح أهمية هذا النموذج من خلال دراسته وتطبيقه لإسرائيل كنموذج، كما بيّن أسباب ظهور الجماعات الوظيفية وعلاقتها بنشأة وظهور الحركات والمذاهب العلمانية في أوروبا.

وتناول **الفصل الخامس:** رؤية المسيري لنهاية المشروع الصهيوني، ومصير الدولة الوظيفية وطبيعتها ومدى ارتباطها العضوي بالدولة الحاضنة (الولايات المتحدة الأمريكية)، وطبيعة العلاقة بين الدولة الوظيفية وبقية الدول الإستعمارية، ومستقبل إسرائيل والحركة الصهيونية، حيث أورد المسيري عدة أفكار هامة حول نشأة تيار جديد في إسرائيل يحمل عنوان: (ما بعد الصهيونية)، أي: أن الحركة الصهونية تلفظ أنفاسها الأخيرة وإلى زوال.

وفي **الفصل السادس:** درس الباحث رؤية المسيري لنهاية المشروع الصهيوني ومصير الدولة الوظيفية وزوال إسرائيل والعلامات العشر لنهاية المشروع الصهيوني.

وفي نهاية الرسالة خلص الباحث لعدة نتائج وتوصيات كانت نتيجة دراسته ورحلته في هذا البحث، وفي الختام نسال الله التوفيق والسداد، وأن يكون هذا العمل نافعاً لكل أبناء فلسطين والعروبة والإسلام، وأن يؤتي أكله بإذنه تعالى.

أهمية الدراسة:

١. قدمت الدراسة عدة أفكار ورؤى حول كيفية تناول ودراسة فكر المسيري، للإفادة منها في دراسة وفهم وسبر أغوار الحركة الصهيونية.
٢. جمعت الدراسة بين عدة مناهج في البحث العلمي؛ لإدراك أوجه التشابه وإجراء المقارنات العلمية للخروج بنتائج صحية بعيدة عن التبسيط والتسطيح.
٣. طمحت الدراسة لأن تفكك شيفرة الفكر الصهيوني من خلال رؤية المسيري ومنظومته الفكرية، من خلال الموسوعة وكتبه الأخرى.

٤. طرحت الدراسة عدة أطروحات لكيفية مواصلة دراسة الحركة الصهيونية بكل تجلياتها الجديدة من خلال منهج المسيري.
٥. حاولت الدراسة إعادة ترتيب الأفكار المتناثرة في كتب المسيري مع إضافتها لمجمل نظريات المسيري في الموسوعة، وأبرزتها في طابع جديد متماسك من الناحية المنهجية، كما تتبعت الدراسة كل المستجدات التي أضافها المسيري من خلال كتبه الأخرى ومقالاته ومحاضرته – حيث فيها الكثير عن الموسوعة – وبشكل أعمق وأكبر.
٦. أبرزت الدراسة ووضحت كل الصعوبات وحاولت تمثل جلّ منظومة المسيري وفلسفته وأرائه، وبسطتها في أسلوب متميز من السهل الممتنع.

فرضية الدراسة:

يفترض الباحث عدة فرضيات حول رؤية المسيري للحركة الصهيونية، وهي:

١. دور المكون اليهودي في دراستنا حول الحركة الصهيونية وتواريخ الجماعات اليهودية.
٢. الدور الكبير الذي كان من أهم عوامل نجاح الحركة الصهيونية وقامت باستغلاله، وهو: (الدين اليهودي).
٣. يفترض الباحث أنه لايمكن دراسة الحركة الصهيونية بمعزل عن تاريخ أوربا والعالم الغربي، وبالأخص (ألمانيا وروسيا)، وهما من أكثر بلدان العالم تمسكاً بالقوميات والعصبيات لدرجة عدم رؤية الآخر، مما أدى لاضطهاد اليهود وضعفهم ووضعهم داخل الجيتو.
٤. يتساءل الباحث في دراسته عن قضية هامة وشائكة ومتشعبة، وهي:

- دور الدين في تشكل وبروز الجماعات اليهودية.
- دور المكون اليهودي في نشأة الحركة الصهيونية، ومدى مصداقية تطبيق مفهوم المؤامرة على تاريخ ونشأة الحركة الصهيونية، وبالأخص مصدر هذا الفكر، وهو كتاب: (بروتوكولات حكماء صهيون)، الذي يعتبره المسيري وثقية مزورة، بينما يعتبره البعض وثيقة هامة للتعرف على مخططات اليهود والحركة الصهيونية.
- دور العلمانية الغربية في إضفاء الحلولية والواحدية في الفكرة الصهيونية.
- مدى تبعية الحركة الصهيونية للاستعمار الغربي الأوروبي في أواخر القرن التاسع عشر وحتى نهاية القرن العشرين.

وقد حاول الباحث الإجابة عن كل التساؤلات والإشكالات من خلال هذا البحث.

حقل الدراسة:

تنوعت حقول الدراسة ومصادرها، وكان التركيز على كتب المسيري التي كتبها بنفسه، واعتبرها الباحث المصدر الأم، وبالأخص (موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية)، إضافة لكل كتبه ومقالاته

ومحاضراته، حيث استأنس بها الباحث للكثير من الرؤى والأفكار في دراسته، وقد تعددت حقول الدراسة بين كتب ومؤلفات الدكتور المسيري مع قراءة مجمل ما كتب عنه ورقياً وإلكترونياً.

الدراسات السابقة:

صدرت عدة دراسات عن المسيري مع عشرات الأبحاث والمقالات، التي في غالبها تميل للمجاملة أكثر من البحث العلمي الأكاديمي، والبعض منها كان له توجه غير موضوعي واتسم بنظرة مبتسرة، عدا عن الطابع الهجومي وغير الموضوعي.

وحتى كتابة هذه الرسالة لم نقف على أي رسالة علمية تناولت مفهوم الصهيونية في أعمال المسيري، ونطمح لأن نكون في مستوى رؤية وفكر المسيري، وأن يكون هذا البحث هو الأول من نوعه في هذا المجال.

الدراسات والأبحاث التي تناولت الدكتور عبد الوهاب المسيري وفكره:

١. د.**أحمد عبد الحليم عطية، (محرِّر)، محمد حسنين هيكل (مقدم): في عالم عبد الوهاب المسيري، حوار نقدي حضاري، دار الشروق، ج2-1، القاهرة، 2004م.**

جاءت هذه الدراسة في جزأين كبيرين، احتوى الجزء الأول على (629) صفحة، والجزء الثاني (500) صفحة، هذا الكتاب هو مجموعة من المقالات هي إلى المجاملات أقرب منها للبحث العلمي، إلا أن فيها الكثير من الفوائد العلمية، ومن أهم ماجاء فيها بحث الدكتور: رفيق عبد السلام بوشلافة، بعنوان: محور العلمانية والحلولية في فكر المسيري، في الجزء الثاني من صفحة (٢٩٣-٣٦٥)، وعدة أبحاث أخرى تلتها، على الرغم من قصرها إلا أننا قد أفدنا منها.

٢. **علي إبراهيم النملة: الموسوعات الفردية، المسيري نموذجاً، كتاب المجلة العربية، السعودية، ٢٠١١م .**

يسلِّط المؤلف في دراسته الضوء على المسيري وموسوعته حول اليهودية والصهيونية، والتي تمثل- في رأيه- موسوعة فكرية أكثر من كونها موسوعة علمية، ويركز على رصد تفاصيل مضمون الموسوعة ورؤاها المرجعية التاريخية، شارحاً توجهات وأهداف المسيري في هذا الصدد، وقد نحى المؤلف للتبسيط وحاد عن العمق الأكاديمي، فكتابه هو خليط جمع فيه المتناقضات من هنا وهناك، ولم نقف فيه على شيء مهم، حتى الموسوعة التي سمى كتابه بها لم يقم بدراستها واستيعابها، وكتابه أقرب إلى النشرات والكتيبات الصحفية.

٣. عبد الوهاب المسيري، ومسيرته الثقافية والعلمية، من خلال أكثر من عشرين مقالة، مهداة إليه من أصدقائه وعارفي فضله ومحبيه، بمناسبة تكريمه في الأسبوع الثقافي الثامن لدار الفكر، صدر في دمشق، دار الفكر، ٢٠٠٧م.

تناول بعض الباحثين في مقالاتهم، جهود المسيري عبر علاقته بالحداثة وما بعد الحداثة، وتناول آخرون طروحات المسيري في سياق الفكر العربي والإسلامي المعاصر، وشُغل غيرهم بدور التوحيد عند المسيري، وتضمن الكتاب– بالمجمل– دراسة محورين أساسيين، تنضوي تحتهما معظم كتابات المسيري الموسوعية، هما: اليهود واليهودية والصهيونية، والمنهجية العلمية والنماذج الإدراكية، ويتضمن الكتاب كذلك حديثاً عن طفولة المسيري المشاغبة، وسيرته الفكرية، والاجتهاد التوليدي في خطابه، ورحلته من عالم النقد الأدبي إلى عالم الفكر، وأخيراً عن أعماله الشعرية.

٤. عمر بطيشة: شاهد على العصر، عبد الوهاب المسيري، عمر، دار صرح للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١١م.

كتاب يتناول شهادة الكاتب والمفكر عبد الوهاب المسيري حول قضايا مهمة في مصر والشرق الأوسط، اجتماعية، وسياسية، وثقافية، واقتصادية، متناولاً قضية الصراع العربي الإسرائيلي من وجهة نظر علمية حيادية بمزيد من الإيضاح وكشف الملابسات، أجرى معه الحوار الإعلامي عمر بطيشة في برنامج (شاهد على العصر)، في الإذاعة المصرية البرنامج العام.

تأتي أهمية الكتاب من اعتبار شهادات الشخصيات الكبيرة حول الأحداث التي عاصروها، وشكلوا جزءاً مهماً من ملامحها، مصدراً مهماً من مصادر معرفتنا بالتاريخ، إلى جانب ما يمكن أن نخرج منها بحقيقة أو درس مهني أو موقف إنساني، يساعدنا في تكوين رؤية واضحة لمشهد ما في حياتنا أو تاريخنا.

٥. ممدوح الشيخ: عبد الوهاب المسيري: من المادية إلى الإنسانية الإسلامية، سلسلة أعلام الفكر والإصلاح في العالم الإسلامي، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٨م.

يقول المؤلف في مستهل كتابه: " إن الكتابة عن الأستاذ الدكتور عبد الوهاب المسيري مهمَّة صعبة من وُجوه عديدة؛ أولاً لأنَّه عالم شديدُ الاتساع والثَّراء، حتى إنه يكاد يكون صاحب مشروع متكامل لإعادة تأسيس العلوم الإنسانية وفق رُؤية عربية إسلامية (إنسانية)، بعيداً عن تُراثها الضخم الواقع في أسْر المركزية الغربية، وقد كانت الحصيلة إنتاجاً كبيراً يجمع بين الغزارة والعُمق والتنوع.

يحتوي الكتاب على أربعة أبواب: المسيري الإنسان، والمسيري ناقداً وأديباً، والمنهج في فكر المسيري، ومشروعه الذي تميز به في رؤيته للكون والحياة، وفي نهاية الكتاب ملحق خاص بشهادات التقدير والجوائز المحلية والدولية التي حصل عليها المسيري.

٦. زاهر بشير: كشف الحجب الإعلامية عن حقيقة فكر المسيري في المسألة اليهودية، المكتبة الوطنية، عمّان، ٢٠٠٩م.

تبنى الكاتب وجهة نظر مغايرة لما تمّ تداوله عبرالمصادر المتعددة المكتوبة والمرئية عن فكر المسيري، ولم يقدم الكاتب دليلاً واحداً على ما زعمه من افتراءات ونظرات مسطحة وخطابية بعيدة كل البعد عن المنهج العلمي – ثم الأخطر من ذلك تلبيسها ثوباً دينياً – وأعتقد أنه لم يوفق في ذلك فجاءت تجسيداً للتلفيق.

وقد لاحظ الباحث أن قراءة مؤلف هذا الكتاب هي قراءة مقلوبة، وتميل للاتهام والقذف من خلال الألفاظ التي تداولها صاحبها من عمالة المسيري لليهود ودفاعه عنهم إلى علمانيته حسب زعمه، وما تشربه من فكر تأمري نحى نحوه في مجمل كتابه.

٧. حوارات: الصهيونية واليهودية، عبد الوهاب المسيري، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثالثة، ٢٠١٢م.

يضم حوارية مع المسيري حول مشاريعه الفكرية وأبعادها، تحمل معنى آخر يوضح مجمل الأفكار والمبادئ التي انطلق منها لتشكل فكره الموسوعي، لا سيما في إطار موضوعات الصهيونية واليهودية والغرب والعولمة والعلمانية والمادية والحداثة، مما يحدد علاقة الإنسان بالطبيعة والخلق، وهي موضوعات لا تزال حاضرة بقوة في واقعنا العربي والإسلامي، وتعد من أهم إنجازاته الفكرية.

٨. حوارات: الثقافة والمنهج، عبد الوهاب المسيري، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثالثة، ٢٠١٢م.

يتناول الكتاب المسيرة الحياتية والفكرية للمسيري ورؤاه، ويوسع قاعدة المعرفة؛ لأنها اللبنة الأولى لتوسيع قاعدة المشاركة بأسلوب الحوارات الذي بنيت على صيغ السؤال والجواب، الذي يمثل صورة مثلى لسعي الدكتور المسيري الدائم إلى تبسيط القضايا، مما يساعد على سهولة انتشارها ووصولها إلى القاعدة العريضة من القراء، من خلال الحديث عن تكوينه الشخصي وتحولاته، وعن الأسرة والثقافة والأدب والفنون والمنهج والخريطة الإدراكية والنماذج والتحيز والمصطلح والمجاز.

٩. حوارات: الهوية والحركة الإسلامية، عبد الوهاب المسيري، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثالثة، ٢٠١٢م.

يتناول الكتاب حوارات أجريت مع المسيري حول الهوية والحركية الإسلامية، والإسلام والغرب والحرب ضد الإرهاب، ومصر والعالم العربي، والخصوصية والهوية والانتفاضة، ويبحث في اتساع ساحة الخطاب الديني في غياب السلوكيات المترجمة له، وأثر الانتفاضة في المجتمع الإسرائيلي، وأحداث (١١ أيلول)، والإرهاب، وإخفاق المسلمين في خلق تيارات مؤثرة، والإسلام في مواجهة الإمبريالية الاستهلاكية،

وفي موقفه من اليهود ومن منظومة التحديات الغربية، وأسلمة المعرفة والحداثة البديلة، ويتحدث عن الانتفاضة الفلسطينية، والإنسانية الإسلامية وأهمية تفعيل الهوية، والخطاب الإسلامي الجديد، وأهمية الديمقراطية، وظاهرة عمرو خالد، والحداثة والتحديث في الغرب، والإبداع والدور الثقافي، واليهود في القرآن وفي الواقع المعاصر.

١٠. حوارات: العلمانية والحداثة والعولمة، عبد الوهاب المسيري، دار الفكر، الطبعة الثالثة، دمشق، ٢٠١٢م.

يعرض أهم محطات المسيري الحياتية والفكرية، وإنجازه الموسوعي (اليهود واليهودية والصهيونية)، في نموذج تفسيري جديد من خلال الظروف التي أحاطت بالعمل، وصعوباته، وردود الفعل والانتقادات التي وجهت له، وكيف استقبل العامة والخاصة هذا العمل، ويوضح اجتهاده المميز وغير المسبوق في الاهتمام بقضيتين مصيريتين بحكم تحديات الواقع المعاش الآن، وهما المجاز والعلمانية، ويضم عرضاً لآرائه في واقع حال مصر والأمة العربية والإسلامية، ورؤيته لحال الفكر والثقافة والمثقفين العرب، ويجمع اللقاءات التي أُجريت مع المسيري منذ أواخر الستينيات، والمناقشات معه لعدد من الموضوعات، أجراها صحفيون وإعلاميون ومتخصصون، عبر محاضرات أو ندوات أو لقاءات إعلامية، وبالجملة فقد قامت الباحثة بنثر أفكار المسيري وتقديمها بصورة سؤال وجواب.

١١. عمرو نور الدين عبد الحميد: بناء منهاجية جديدة لتحليل الظاهرة السياسية عبر العطاء الفكري للمسيري، رسالة ماجستير في العلوم السياسية، جامعة حلوان، قسم العلوم السياسية، سنة ٢٠١٢م.

أهم ما فيها واستفدت منها هو المبحث الأخير من الفصل الثالث: النماذج التفسيرية كحالة تطبيقية عند المسيري (الجماعة الوظيفية– الحلولية الكمونية– العلمانية الشاملة)، الدراسة جيدة في تطبيق مناهج العلوم السياسية الجامعية فقط، فالباحث لم يوظف الظاهرة الصهيونية ولو بشكل بسيط في تطبيقاته في دراسته، وهذا ما ينقص الدراسة.

رأي الباحث: يرى الباحث أن جميع ما كتب حتى كتابة هذه الرسالة لم يتناول **مفهوم الصهيونية عند المسيري**، فقد تناولت الدراسات قسماً من حياته وترجمته ودراسةً لكتبه الأخرى ومجمل أفكاره، ولكننا لم نقف على دراسة علمية متخصصة تبين وتوضح مفهوم الصهيونية والمنظومة الفكرية المتكاملة التي جاء بها المسيري، ونطمح أن تكون دراستنا قد اقتربت من هذا المنحى، لتصل لمستوى مقبول على الأقل مما وضعه الباحث نصب عينيه، والله الموفق.

تمهيد

يعد الدكتور عبد الوهاب المسيري أنموذجاً خاصاً من المفكرين والباحثين والكتاب، فهو رجل متعدد المواهب، متنوع الاهتمامات، وهو مفكر عربي إسلامي، يشكل ظاهرة كبيرة في تاريخ الفكر العربي، ودراسة الحضارة الأوروبية، وبالذات تاريخ الجماعات والحركات والمذاهب المعاصرة، وقد مثلت كتاباته منظومة فكرية متكاملة ساهمت بشكلٍ كبير في تغيير الرؤية إلى الفكر الصهيوني ومكوناته، ومعرفة مصادر قوته، ونقاط ضعفه، والأوهام التي أحاط بها نفسه، ومن ثم إعادة النظر في كيفية مواجهته بمعرفة وعلم، حيث إن معرفة العدو من أهم أركان الانتصار عليه، ومن أهم أركان فلسفة المسيري من خلال منظومته الفكرية هو مفهوم نظرته للإنسان والعالم، ورؤية الإنسان للكون، ورؤية العلمانية الغربية ونظرتها للإنسان، وقد قام المسيري بتأسيس نسق فلسفي ومعرفي وفكري لمواجهة النموذج الغربي العلماني.

وقام المسيري بمعالجة النظرة السائدة لمفهوم الصهيونية، باعتبارها نتيجة طبيعية من فكر الحداثة وفكر العلمانية الغربية، والأسس النظرية التي ينطلق منها المسيري، هي: نقد فكر الحداثة، وما بعد الحداثة([1])، حيث يرفض المسيري فكرة الحداثة وينتقدها من جذورها، باعتبارها فصلاً للقيم الدينية والأخلاقية والإنسانية عن الحياة، ينتج عنها حالة من التعددية المفرطة التي تؤدي إلى اختلاف المرك، بل إنها توقع فساداً في اللغة كأداة للتواصل بين البشر، فالدال ينفصل عن المدلول، لذلك يربط المسيري بين العلمانية الشاملة وبين الحداثة؛ لأنها تؤدي في نهاية المطاف إلى أن يستمد كل إنسان معارفه من ذاته بعيداً عن فكرة الحقيقة والخير والجمال، ولذلك تسقط كل المنظومات المعرفية، فيما يمكن أن يوصف بأنه انتقال من عصر الحداثة الصلب إلى عصر ما بعد الحداثة ([2]).

وبالتالي فقد رأى الباحث: أن المسيري عالج بنقده الجوانب النظرية، ثم أعاد صياغتها من خلال منظومته ورؤيته الفكرية وطبقها في منهجية علمية من خلال نماذجه التطبيقية الثلاث : الحلولية والعلمانية والجماعات الوظيفية .

ومن هنا جاء المسيري بالمنهج الذي اتبعه، حيث تم الكشف وبصورة علمية عن حقيقة المشروع الصهيوني، والمراحل والحقب التي مرَّ بها، ونبَّه إلى أن هذا المشروع لم يكن له أن ينشأ إلا في سياق

([1]) " تدور منظومة الحداثة والعلمنة الغربية في إطار الرؤية الطبيعية المادية والحلولية الكمونية أوالمرجعية الكمونية، فالعالم حسب الرؤية الكامنة في منظومة التحديث يذهب إلى أن المبدأ الواحد المنظم للكون ليس مفارقاً له أو متنزهاً عنه ولا متجاوزاً له، وإنما هو كامن حال فيه، ولذا فالكون يصبح مرجعية ذاته ومكتفياً بذاته، وبالتالي تصبح حدود الإنسان هي حدود العالم الطبيعي المادي".

- عبد الوهاب المسيري: اللغة والمجاز ص ٢٣٢.

([2]) رزان، محمود إبراهيم: رحلة عبد الوهاب المسيري الفكرية، (دراسة في المقاصد والمنهج)، جامعة البترا،عمان، ص ٢١. نشرت على موقع : http://iiitjordan.org/IslamicKnowledgeDetails.aspx?ID=676

تطور وصعود الحضارة الأوروبية، وصعود الإمبريالية الاستعمارية وحاجتها الماسة لأداة تنفيذها للمشاريع الاستعمارية في الشرق، وكان على رأس تلك المشاريع (فلسطين) حيث إن مجيء الحركة الصهيونية جاء تلبية لحاجات استعمارية خاصة بالدول الأوربية أكثر مما هي نتاج حاجات اليهود، وتزامن ذلك مع صعود التوسع الإمبراطوري الاستعماري الغربي وامتداده على شكل استعمار استيطاني، فكان الدعم اللامحدود للمشروع الصهيوني، ولولا هذا الدعم لما كان لهذا المشروع أن يصبح حقيقة على أرض الواقع.

إلا أن هذا الكيان– المتمثل في إسرائيل– من الممكن جداً بل من السهل تفكيكه ومعرفة حقيقته، ومن ثم الانتصار عليه، وأنه ليس بمعجزة تستعصي على الحلّ، فالحلً يكمن في معرفته بصورة صحيحة، وهذا أدى إلى تعزيز الثقة للمواطن العربي في صموده، ومجابهته لهذا المشروع المركب ذو الأبعاد المتعددة.

وقد أثمرت جهود المسيري وتجسد عنها عدة توجهات شرعت في تنفيذ منهجه والاستفادة منه، حيث كون المسيري في حياته مجموعة متميزة من التلاميذ والزملاء، كان لهم أثر واضح في دفع حركة الدراسة والتأليف والكشف عن خفايا الفكر الصهيوني وتاريخ الحركة الصهيونية، كما أعاد المسيري بذلك ترتيب الأوراق من جديد للقضية الفلسطينية من خلال كتاباته المتميزة، وقبل أن نبدأ دراستنا لا بد من التعرف على الدكتور المسيري.

الفصل الأول

حـيـــاة المِسِـيـــــري

- اسمه ونسبه ومولده.
- مراحل حيـاة المسيـري.
- سماته الشخصية.
- نشأته العلمية.
- أهم أفكاره.
- أساتذته والمدارس الفكرية التي أثرت في فكره وفلسفته.
- شهادات تقدير وجوائز محلية ودولية.
- مؤهلاته العلمية والشهادات الأكاديمية التي حصل عليها والجوائز التي نالها.
- الأعمال المنشورة باللغة العربية.
- الأعمال المنشورة باللغة الإنجليزية.
- الأعمال المترجمة.
- مقالات في الجرائد والمجلات والحوليات.
- المحاضرات والمؤتمرات.
- مقابلات صحفية وبرامج وثائقية.
- وفاته.
- لقاءاته على قناة الجزيرة.
- دراسات عن أعمال المؤلف.
- أثر دراسات المسيري في استراتيجيات المواجهة الفكرية والسياسية.

حـيـــاة المِسِـيـــــري

١. **اسمه ونسبه ومولده:**

هو عبد الوهاب محمد أحمد علي غنيم سالم عز المسيري، ولد سنة ١٩٣٨م في الثامن من أكتوبر في مدينة دمنهور[١]، محافظة البحيرة، ونشأ فيها طفلا حيث عبق التاريخ فيها[٢]، وترجع أصول عائلة المسيري في نسبها إلى السادة الأشراف (أهل البيت)[٣]، وينتمي المسيري إلى أسرة ميسورة الحال (البرجوازية الريفية) وهي برجوازية في دخلها وفي فرديتها[٤].

٢. **مراحل حياة المسيـري:**

مرت حياة المسيري بعدة مراحل هامة، أهمها:

المرحلة الأولى: " البذور والجذور وهي قصة حياته الخاصة زوجاً وأباً وصديقاً وعدواً، وهي ترصد تحولاته الفردية في الفكر والمنهج، ولعلها في الوقت نفسه، تؤرخ لجيل كامل نشأ في نفس الفترة التي عاشها المسيري"[٥].

المرحلة الثانية: هي محصلة لعرض أفكار المسيري الأساسية التي عمل عليها في معظم أعماله بطريقة مبسطة، كما أنه بيَّنَ فيها كيف تشكلت الأفكار ومدى ترابطها وبعض تطبيقاتها، وقد صاحب تغيير الرؤية الدينية والفكرية تغير في فلسفة المنهج وأدواته، فمن المستحيل أن يتم الواحد دون الآخر.

وظهرت في حياته ثلاثة موضوعات أساسية مترابطة متزامنة وهي تجسد التعبير عن مدى التحول من المادية إلى الإنسانية (النموذج الذي يفصل بين الإنسان والطبيعة)، هذه هي الموضوعات الثلاثة، وهي: الانتقال من الموضوعية الفوتوغرافية (المتلقية والتوثيقية والمادية المنفصلة عن القيمة) إلى

---

(١) دمنهور: " أنشئ مركزها في سنة ١٨٢٦ باسم قسم دمنهور، وكانت دائرة اختصاصه في ذلك الوقت، تشمل عدة بلاد من مديرية البحيرة وهي مدينة صغيرة في دلتا مصر تقع بالقرب من الإسكندرية.

_ انظر: محمد رمزي: القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى ١٩٤٥م، القسم ٢ (البلاد الحالية) ج ٢، مديريات الغربية والمنوفية والبحيرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م، ص٢٠.

(٢) عبد الوهاب المسيري: رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمر، سيرة غير ذاتية غير موضوعية، دار الشروق، القاهرة، ط٣، ٢٠٠٨م، ص ١٥.

(٣) عبد الوهاب المسيري: رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمر سيرة غير ذاتية غير موضوعية)، دار الشروق، القاهرة، ط٣، ٢٠٠٨م، ص١٣.

_ وانظر: المسيري: مقدمة الموسوعة اليهود واليهودية الصهيونية، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٩٩٩م، ص١٩٥– ٢٠٨.

(٤) المرجع نفسه: ١٦.

(٥) المرجع نفسه: ص ٢١.

الموضوعية الاجتهادية، ورفض العقل السلبي وتبني الرؤية التوليدية للعقل، ورفض الرصد المباشر وتبني النموذج منهجاً في التحليل "([١]).

المرحلة الثالثة: وتتناول عدة جوانب من حياته الفكرية والعلمية، وهي المرحلة التي سماها بمرحلة (الثمر) حيث بدأت النماذج الإدراكية والتحليلية بالمثل، من خلال عرض بعض التحولات المنهجية التي واكبت التحولات الفكرية، وبالذات علاقته بدراسة الصهيونية وإنتاجه أهم أعماله على الإطلاق وهي الموسوعة، عدا عن عشرات الكتب ومئات المقالات([٢]).

٣. سماته الشخصية:

يمتاز الدكتور عبد الوهاب المسيري بشخصية هادئة، تقبل النقد مهما بلغت حدته، ولم يشاهد إلا والابتسامة الهادئة الواثقة لا تفارق وجهه الذي كان يتسم بالبراءة، " وأهم ما تتميز به شخصية المسيري وما يتجلي في أعماله كلها هو الوعي والجدية والرتابة، حيث إنه قد وقف نفسه وكل أعماله العلمية والفكرية على حقيقة واحدة، وهي: أن الصراع بيننا وبين العدو الصهيوني، ومن ورائه الغرب الرأسمالي، لا تحسمه القوة العسكرية وحدها، وقد لا تحسمه هذه القوة على الإطلاق، ولكنه صراع يحسمه التقدم الحضاري الذي لا يكون إلا بالتقدم الفكري المستنير، الذي لا يخلط الحق بالباطل، والواقع بالوهم "([٣]).

وأدق من وصفه ووصف مشروعه الفكري هو زوجته الدكتورة هدى حجازي في مقابلة معها أجرتها قناة الجزيرة القطرية، حيث قالت: " كان زوجاً محباً وصديقاً وفياً وأستاذاً فذاً، وكان موسوعي المعرفة سريع البديهة، لا يمل من طرح التساؤلات، وكان دائماً يكسب النقاش لسرعة بديهته، وهو مؤسسة قائمة بذاتها يتمتع بقدرة فائقة على إدارة المشاريع البحثية، وكانت تدار من منزله، حيث فيها مكتبه، أو الشقة التي نقطن بها، يقضي معظم وقته في القراءة ولديه قدرة عجيبة في التعامل مع الأطفال بطريقة جذابة، وذلك إجماع من جميع الناس، له قدرة فائقة على التواصل مع الآخرين، يتصف بدهشة الأطفال وبراءتهم.

كانت لديه طريقة ليشجع نفسه على العمل، أصيب بجلطة خفيفة في الدماغ نتيجة الإجهاد من جراء عملية التواصل في الموسوعة، كان يصارع مرضاً من أتعس الأمراض التي تصيب الناس، فقبل المرض بتفاؤل، وكانت قراءاته في صعود، آخر عشرة سنوات أكثرها إنتاجاً في حياته، وهي أخصب سنوات عمره.

المرض جعله أكثر مقاومة ولم يكن يشعر أنه مريض، الهوس والجنون المقدس الذي أصابه – كان دائماً يفتخر به– جمع حوله مجموعة من الباحثين الشبان، وقرر بأنه لا بد من وضع الصهيونية في

---

(١) المسيري: رحلتي الفكرية، ٣١٥-٣١٦.

(٢) المسيري: رحلتي الفكرية، ص٢١.

(٣) محمد سليم العوا: الدأب الواعي، مقالة من كتاب: في عالم عبد الوهاب المسيري حوار نقدي حضاري، دار الشروق، القاهرة، ج ٢، ط١، ٢٠٠٤م، ص٤٤٥.

إطارها الثقافي، وفي إطار الفكر الغربي في القرن التاسع عشر، كان يبدأ يومه من السادسة صباحاً وكان لا يضيع ثانية واحدة ويعمل بجد ونشاط من الساعة السادسة صباحاً وحتى الثانية عشر ليلاً، كان يأخذ راحة بين الحين والآخر، ولمدة ٢٠ سنة كان على هذه الحالة، كان مؤمن بعلمه، كان رحب الفكر ينظر بعيني طفل بريء ليرى الجديد والمدهش، وقد أوصت الدكتورة هدى حجازي بإنشاء مؤسسة لتقوم بإكمال رسالته من خلال تلاميذه وأحبائه [1].

٤. نشأته العلمية:

التحق بمدرسة دمنهور الابتدائية، ثم بمدرسة دمنهور الثانوية[2]، وقد حصل على الابتدائية عام ١٩٤٩م، ثم حصل على الثقافة وهي شهادة نهائية، وقد ألغيت بعد حصوله عليها عام ١٩٥٤م، ثم حصل على التوجيهية الفرع الأدبي فلسفة عام ١٩٥٥م، ثمّ التحق بقسم اللغة الإنجليزية في كلية الآداب جامعة الإسكندرية عام ١٩٥٥م، حيث تخرج منها وعُين فيها معيداً عام ١٩٥٦م في العام الذي يليه.

وفي عام ١٩٦٣م، سافر المسيري إلى الولايات المتحدة للالتحاق بجامعة كولومبيا (columbia) في نيويورك، حيث حصل على درجة الماجستير الثانية عام ١٩٦٤م، ثم التحق عام ١٩٦٤م بجامعة (Newbrunswek) في مدينة (نيوبرونزويك) في ولاية (نيوجرسي)، حيث حصل على الماجستير عام ١٩٦٤م، ثم التحق عام ١٩٦٤م بجامعة (Rutgers) (رتجرز) وحصل على الدكتوراه عام ١٩٦٩م.

ثمّ تم تعيينه مستشاراً لوزير الإرشاد محمد حسنين هيكل عام ١٩٧٠م لفترة وجيزة، ثم تعيَّن خبيراً للشؤون الصهيونية بمركز الدارسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام عام ١٩٧١م.

٥. أهم أفكاره:

إن ما يميز فكر المسيري هو أنه فكر متيقظ وسريع الاستجابة لواقع الأمة، ويمكن القول بأن هذا الفكر يتمحور عموماً حول أربع دعائم رئيسة، هي:

أ. فلسطين والقضية الفلسطينية، وقد شكلت القضية الفلسطينية – بكل أبعادها السياسية والاجتماعية– ركناً هاماً في المشروع المسيري[3]، واستطاع المسيري أن يقدم لدارسي علم الاجتماع مفهوماً يساعد على تفسير دور جماعات مثل اليهود في كيانات مجتمعية ضخمة، من حيث إن اليهود قاموا بأدوار ثانوية يرفضها المجتمع المحيط ولكنها ضرورية، مثل الإقراض، ويفتح الحديث عن هذا المفهوم الدور الكبير

---

(١) برنامج بلا حدود. لقاء مع د.هدى حجازي ،قناة الجزيرة الفضائية، ٢٠٠٨/٧/٢٣م، aljazeerachanne l، ود. هدى حجازي هي أرملة الدكتور عبدالوهاب المسيري.

(٢) المسيري: رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمر ،مصدر سابق، ص ١٣.

(٣) في عالم عبد الوهاب المسيري، ج٢، ص٤٧١–٤٧٢.

الذي قام به المسيري في تطوير الدراسات اليهودية أو الدراسات المتصلة باليهود والصهيونية وعلاقة هذه بالتشكيل الحضاري الغربي على مستويات مختلفة، ولعل هذا الجانب هو الأشهر بين أعمال المسيري، لاسيما موسوعته الكبيرة ودراساته العديدة للصهيونية وما يتصل بها([1]).

ب. **إسرائيل واليهودية والصهيونية:** الصهيونية حركة استيطانية غربية إحلالية، زرعت في العالم العربي.

ج. **قضايا الفكر الإسلامي المعاصر:** كان المسيري مفكراً إسلامياً وقف محللا ودراساً بعمق الحضارة الغربية وطرح البدبل الإسلامي لإنقاذ الغرب والعالم من المناهج البشرية والفلسفات المادية، وبالذات الفلسفة العلمانية والحلولية الكمونية ونقده لها وموقفه الصارم منها، وهذا ما سنراه في الأبواب التالية.

ت. **الحضارة الغربية والعلمانية والعولمة:** يقول البازعي: " وما زلت أذكر الأثر المهم الذي تركه لدى نقده للحضارة الغربية، النقد الذي أعده من أهم ما قدم المسيري للفكر العربي المعاصر، وبالطبع فإن أهمية ذلك النقد ليست في كونه نقداً، فما أكثر نقاد الحضارة الغربية أو الغرب عموماً ولكن ما أقل أثر نقدهم، فكثير مما نقرأ من نقد يأتي على خلاف ما نجد لدى المسيري، إنه في الغالب نقد تقليدي وشديد التأدلج، ما قدمه المسيري لقراء كثيرين في تلك الفترة التي أعقبت انضمامه لهيئات التدريس في جامعتي الكويت والملك سعود شيء مختلف، كان نقداً على مستوى أكثر تركيبية وعمقاً"([2]).

ومن هنا تصعب عملية الكتابة عن المسيري وتعد مهمة صعبة؛ لأنه عالم شديد الاتساع والثراء والكثافة، ومشروعه ما يزال يتحقق حتى الآن، وقد استحوذ في شخصيته امتلاكه للغة والفكر في آنٍ واحد، فدراساته وكتبه وأبحاثه تتسم بالموسوعية والعمق والغزارة والتنوع.

٦. **أساتذته والمدارس الفكرية التي أثرت في فكره وفلسفته:**

المسيري نتاج مجموعة من العوامل الفكرية التي سادت مصر قبل ولادته، وأثناء تكوينه، ومنذ بدايات نضجه، ولا يمكن أن يكون بمعزل عن الحالة التي كانت في مصر في ذلك الوقت، فهو وليد الحالة التي تبلورت في أربع مدارس فكرية:

المدرسة الأولى:

وهي التي تبلورت على يدي محمد علي باشا([3])، وبعثته العلمية الأولى للطلاب المصريين على فرنسا، وعلى رأسهم رفاعة الطهطاوي([1])، وهي المدرسة التي واصلت التحديث العلمي، وواصل الشيخان

([1]) سعد البازعي: المسيري وأشكلة المفاهيم، مصدر سبق ذكره.

([2]) سعد البازعي: نفس المصدر . www.al-jazirah.com.sa/culture/09042007/almlf28.htm

(٣) محمد علي باشا (١١٨٤-١٢٦٥هـ = ١٧٧٠-١٨٤٩م)، المعروف بمحمد علي الكبير، مؤسس آخر دولة ملكية في مصر، ألباني الأصل، مستعرب ولد في قوله-التابعة الآن لليونان- وكانت تابعة للبلاد العثمانية، تولى حكم مصر عام ١٢٢٠هـ، أرسل

جمال الدين الأفغاني (١٢٢٤-١٣١٥هـ= ١٨٣٨-١٨٩٧م)([2])، وتلميذه الشيخ محمد عبده (١٢٦٦-١٣٢٣هـ) = (١٨٤٩-١٩٠٥م)([3])، وآخرون العمل بنفس الفكرة.

المدرسة الثانية:

وقد تبلورت على يدي طه حسين (١٣٠٧-١٣٩٣هـ) = (١٨٨٩-١٩٧٣م)([4])، الذي كان أول مصري يحصل على درجة الدكتوراه من جامعة السوربون الفرنسية، والذي اثأر ضجة بصدور كتابه (مستقبل الثقافة في مصر)عام١٩٣٨م، سنة ولادة عبد الوهاب المسيري، وكانت هذه المدرسة تدعو إلى اقتباس النموذج الأوروبي حضارياً وفكرياً.

المدرسة الثالثة:

البعثات لتلقي العلم في أوربا وكان على رأس من ابتعثهم الشيخ رفاعة الطهطاوي، ويعتبر محمد علي من رواد النهضة والتحديث.

-خير الدين الزركلي: الأعلام، قاموس تراجم، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٠، ١٩٩٢م، مج٦، ص٢٩٨-٢٩٩ بتصرف.

([1]) رفاعة الطهطاوي (١٢١٦-١٢٩٠) = (١٨٠١-١٨٧٣م) رفاعة رافع بن بدوي بن علي الطهطاوي يتصل نسبه بالحسين بن علي، عالم مصري، من أركان نهضة مصر العلمية في العصر الحديث، ولد في طهطا، وقصد القاهرة عام ١٢٢٣هـ، فتعلم في الأزهر، وأرسلته الحكومة المصرية إماماً للصلاة والوعظ مع بعثة من الشبان أوفدتهم إلى أوروبا لتلقي العلوم الحديثة، يعتبر رفاعة الطهطاوي أحد أركان النهضة العلمية العربية، بل إمامها في مصر، وتوفي بالقاهرة عام١٨٧٣م.

- الزركلي، الأعلام، مصدر سبق ذكره ج٣، ص٢٨-٢٩. بتصرف.

([2]) جمال الدين الأفغاني (١٢٢٤-١٣١٥هـ= ١٨٣٨-١٨٩٧م)، محمد بن صفدر الحسيني، جمال الدين فيلسوف الإسلام في عصره، وأحد الرجال الأفذاذ الذين قامت على سواعدهم نهضة الشرق الحاضرة، ولد في أسعد أباد بأفغانستان، ونشأ بكابول، وتلقى العلوم العقلية والنقلية وبرع في الرياضيات وسافر إلى الهند ومعظم أقطار الشرق والغرب، يعتبر الأفغاني رائداً من رواد النهضة الإصلاحية والثورية في نفس الوقت في العصر الحديث وهو من أهم المفكرين الإسلاميين الذين تركوا أثرا كبيراً وواضحاً على معظم الحركات الإسلامية في القرن العشرين، ومن أهم من أخذ عنه وواصل مسيرته الشيخ الإمام محمد عبده في مصر، حيث شاركه في إصدار مجلة العروة الوثقى ورحل معه رحلات طويلة.

- الزركلي: الأعلام، ١٦٩/٦م.

([3]) الشيخ محمد عبده (١٢٦٦-١٣٢٣هـ) = (١٨٤٩-١٩٠٥م) محمد بن حسن خير الله، من آل التركماني مفتي الديار المصرية، ومن كبار رجال الإصلاح والتجديد في الإسلام، تعلم في الجامع الأحمدي بطنطا ثم بالأزهر، وتصوف وتفلسف، تقوم فلسفته على تحرير الفكر من قيد التقليد، ثم التمييز ما بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة.

- الزركلي: الإعلام، ٢٥٢/٦.

([4]) طه بن حسين بن علي بن سلامة، الدكتور في الأدب العربي، من كبار المحاضرين الذي جدد مناهج وأحدث ضجة في عالم الأدب العربي، له الفضل في جعل التعليم مجاناً، كان من أعضاء المجمع العلمي العربي المراسلين بدمشق، ثم عين وزيراً للمعارف.

- الزركلي: الأعلام، ٢٣١/٣ .

ظهرت كرد فعل وتيار مضاد، ينتقد الابتعاد عن حقيقة الدين الإسلامي، وتمثلت بجهود محمد رشيد رضا([١]) (١٢٨٢-١٣٥٤هـ)= (١٨٦٥-١٩٣٥م) عبر جريدة المنار.

المدرسة الرابعة:

كانت هذه المدرسة مدرسة الفريق الوسط والتي كان أحمد أمين([٢])، (١٢٩٥-١٣٧٣هـ)=(١٨٧٨-١٩٥٤م) من أبرز رموزها، وقد شكلت هذه المدارس الأربع الخلفية الفكرية للحركة الوطنية المصرية التي نشأ المسيري في كنفها، وانحاز يافعاً إلى أحد أطرافها، ولكن تبلوره النظري المباشر كان بعد ثورة ١٩٥٢ التي شهدت ظهور جيل فكري جديد هو الجيل الذي تعايش معه المسيري، وذهب إلى الدراسة في الولايات المتحدة وهو يحمل معه هذا الإرث الذي كان بمثابة زاد له في مواجهة التحدي الغربي والحضارة الأوربية ([٣]).

لقد تأثر المسيري بالكثير، وأثروا فيه- سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة- حسب تصنيفه لأهميتهم ولدورهم في حياته حيث اعتبرهم من أهم مرجعياته، وهم: " إميل جورج، نور شريف، ديفيد وايمر، فتعلم منهم طريقة التفكير والنظر كيف تكتشف الأنماط داخل ركام التفاصيل المتغيرة، وكيف يجرد الحقيقة من الحقائق، ويتساءل المسيري فيقول: " لا أدري هل تعلمت منه أيضاً شيئاً من الصلابة والقدرة على المقاومة؟"([٤]).

ومن أهم مرجعياته حسب ما أورد في مقدمة الموسوعة: " سعيد البسيوني الموظف بالبنك الأهلي صديقه منذ الصبا، الذى ساهم في تدريبه على التفكير وعلى التعمق في الأمور وتجاوز السطح، وإميل

([١]) محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين الحسيني النسب، صاحب مجلة المنار، وأحد رجال الإصلاح الإسلامي، ولد في ٢٧ جمادى الأولى ١٢٨٢ هـ/٢٣ سبتمبر ١٨٦٥م في قرية القلمون (لبنان)، وهي قرية تقع على شاطئ البحر المتوسط من جبل لبنان وتبعد عن طرابلس الشام بنحو ثلاثة أميال، وتوفي بمصر في ٢٣ جمادى الأولى ١٣٥٤ هـ/٢٢ أغسطس ١٩٣٥م، وهو من الكتاب العلماء بالحديث والأدب والتاريخ والتفسير.

- الزركلي: خير الدين، الأعلام، ٦/ ص١٢٦.

([٢]) أحمد أمين بن الشيخ إبراهيم الطباخ، عالم بالأدب، غزير الإطلاع على التاريخ، من كبار الكتاب، اشتهر باسمه أحمد أمين مولده ووفاته بالقاهرة، وهو من أكثر كتاب مصر تصنيفاً وإضافة، ومن أعماله إشرافه على لجنة التأليف والترجمة والنشر مدة ثلاثين سنة، وكان رئيساً لها، وبلغت مقالاته في الصحف المصرية حوالي عشرة مجلدات جمعها في كتابه:(فيض الخاطر).

- الزركلي: الأعلام، ١/١٠١.

([٣]) بلال الحسن: غياب المسيري، الرجل الذي حاصر الفكر الصهيوني بالكلمات، مقالة في جريدة الشرق الأوسط، رجب ١٤٢٩هـ، (يوليو٢٠٠٨م)، العدد ١٠٨١٣، عن موقع الجريدة في الشبكة الالكترونية www.aawsat.com leader.asp.

([٤]) جمال حمدان: مقدمة كتاب اليهود أنثروبولوجيا، تقديم، عبد الوهاب المسيري، دار الهلال، القاهرة، ط٢، ١٩٩٦م، ص٤١.

جورج، مدرس الفلسفة بدمنهور الثانوية، و نور شريف، رئيس قسم اللغة الإنجليزية وآدابها بالإسكندرية، ومحمد مصطفى بدوي، أستاذ بجامعة أوكسفورد، وديفيد وايمر، أستاذ الأدب الأمريكي بجامعة رتجرز، وليونيل تريلنج، الناقد الأمريكي المعروف"(١).

ومن أهم الموارد والكتابات التي ساعدت على تشكيل مرجعيته والمنهج التحليلي الذي تبناه كتابات كارل ماركس(٢) الإنسانية، وجورج لوكاتش(٣)، وروجيه جارودي(٤)، وماكس فيبر(٥)، وبازل ويلي، وإرفنج بابيت، وقد ساهمت كتابات أبراهام ماير، مؤلف كتاب: (المرآة والمصباح)، وزيجمونت باومان(٦)، باومان(٦)، عالم الاجتماع في تشكيل كثير من أفكاره ومقولاته التحليلية.

---

(١) المسيري، عبد الوهاب، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ١/ ص١٩.

(٢) كارل ماركس ولد في (٥ مايو ١٨١٨م وتوفى في ١٤ مارس ١٨٨٣م)، كان فيلسوفًا ألمانيًا، سياسي، وصحفي، ومنظّر اجتماعي ولد لعائلة يهودية يعتبر مؤسس الفلسفة الماركسية، شكل وقدم مع صديقه فريدريك إنجلز ما يدعى اليوم بالاشتراكية العلمية (الشيوعية المعاصرة)، ولد ماركس بمدينة (ترير) في ولاية (رينانيا) الألمانية عام ١٨١٨م والتحق بجامعة بون عام ١٨٣٣م لدراسة القانون، أظهر ماركس اهتماماً بالفلسفة رغم معارضة والده الذي أراد لماركس أن يصبح محامياً، وقام ماركس بتقديم رسالة الدكتوراه في الفلسفة عام ١٨٤٠م، وحاز على شهادة الدكتوراه. موقع موسوعة wicibedai . ويكبيديا.

(٣) جورج لوكاش (١٨٨٥-١٩٧١م) فيلسوف وكاتب وناقد أدبي مجري ماركسي ولد في بودابست عاصمة المجر، يعده معظم الدارسين مؤسس الماركسية الغربية (في مقابل فلسفة الاتحاد السوفيتي) أسهم بأفكاره التشيؤ والوعي الطبقي في الفلسفة الماركسية والنظرية الماركسية، وكان نقده الأدبي مؤثرا في الواقعية وفي الرواية باعتبارها نوعا أدبيا، خدم لفترة وجيزة كوزير للثقافة في هنغاريا بعد ثورة ١٩٥٦م على الرئيس راكوشي. موقع موسوعة wicibedai . ويكبيديا.

(٤) روجيه جارودي، مفكر إسلامي فرنسي، كان من كبار منظري الماركسية في العالم الأوربي وبالأخص فرنسا، أسلم وحسن إسلامه ودافع عن الإسلام والمسلمين في العالم، كما أنه من ألد أعداء الصهيونية، حيث أحدث ضجة كبيرة في المحافل الدولية بسبب نشره لكتب (الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية)، الذي بين فيه بالوثائق كيف تعاونت الحركة الصهيونية في ثلاثينات القرن العشرين مع الحركة النازية، وقد أثبتها بالوثائق، نشر الكتاب في عدة طبعات منها طبعة دار الغد العربي التي اعتمدنا عليها، طبعة عام ١٩٩٦م، وكما بين في كتابه: (فلسطين أرض الرسالات الإلهية) وملف إسرائيل وغيرها من كتبه وبحوثه التي بث فيها مجمل فلسفته وأرائه حول زيف وأسطورة الحركة الصهيونية، ولم يستطع الصهاينة تحمل أفكاره فعقدوا له المحكمة تلو الأخرى بتهمة معادة السامية.

(٥) ماكس فيبر Max vebar من أهم علماء الاجتماع المعاصرين، حيث أن نظريته في سيكولوجيا الجماعات الوظيفية كانت من أهم مصادر المسيري في تطبيقه الفكرة على الجماعات اليهودية.

(٦) زيجمونت باومان Bauman zygmunt عالم اجتماع من أهم علماء الاجتماع في الوقت الحاضر حسب التصنيف الآكاديمي الغربي، اهتم زيجمونت باومان بدراسة أثر (الهولوكست- المحرقة النازية- الإبادة)= = على الأفراد والمجتمعات التي تعرضت لهذه الظاهرة، سواء من جانب التي مارستها النازية أو الذين تعرضوا لها، ويعتبر باومان مؤسس مفهوم ما وراء الحداثة: Postmodernism .

وفي الآونة الأخيرة قرأ أعمال رئيس جمهورية البوسنة والهرسك علي عزت بيجوفيتش([1])، ووجد فيها فكراً عميقاً ومنهجاً واضحاً ساعده كثيراً على تعميق فكره ومنهجه، وقد استفاد إلى حدٍّ كبير من كتابات حبيب قهوجي، وبديعة أمين، وأسعد رزوق، كما قرأ أعمال جمال حمدان، وتأثر بها بشكل عميق كما بيَّن في كتابه المعنون: (اليهود فى عقل هؤلاء) والصادر عن دار المعارف عام ١٩٩٨م [2].

د. أثر جمال حمدان ([3]) على تشكيل فكر المسيري:

يوضح المسيري مدى الأثر الذي تركه المفكر جمال حمدان عليه وعلى كتاباته بل على سلوكه فيقول: " هناك قضية خاصة ولكنها عامة (غير ذاتية تماماً وغير موضوعية تماماً) في ذات الوقت (ثنائية حمدانية)، وهي علاقتي ومدى تأثري به.

قرأت هذا الكتاب حينما كنت أكتب موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية، رؤية نقدية والتي صدرت عام ١٩٧٥م، كنت أحس نحوه بالإعجاب الشديد سواء في أسلوب كتابته، أم أسلوب حياته هذا الزهد العلمي الشديد، هذا الإعراض عن الدنيا الذي مكنه من إنجاز بعض جوانب مهمة من مشروعه المعرفي الضخم (ولعل هذا هو الذي شجعني على الاستقالة من الجامعة لأنجز مشروعي المعرفي).

انظر بهذا الصدد: حجاج أحمد شعبان علي: " الصور الحداثية بين زيجمونت باومان والدكتور عبد الوهاب المسيري، دراسة مقارنة رسالة دكتوراة غير منشورة، جامعة القاهرة، سنة ٢٠٠٨م.

(١) علي عزت بيغوفيتش ولد عام (١٣٤٤هـ / ٨ أغسطس ١٩٢٥م) وتوفي في (٢٣ شعبان ١٤٢٤هـ/ ١٩ أكتوبر ٢٠٠٣م)، أول رئيس لجمهورية البوسنة والهرسك بعد انتهاء الحرب الرهيبة في البوسنة، ناشط سياسي بوسني وفيلسوف إسلامي، مؤلف لعدة كتب أهمها الإسلام بين الشرق والغرب.

– موقع موسوعة wicibedai. ويكبيديا.

([2]) المسيري: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ١/١ .١.

([3]) جمال حمدان (٤ فبراير١٩٢٨م– ١٧ أبريل١٩٩٣م) أحد أعلام الجغرافيا المصريين، اسمه بالكامل جمال محمود صالح حمدان، ولد في قرية ناي بمحافظة القليوبية، ترك جمال حمدان ٢٩ كتاب و٧٩ بحث ومقالة، أشهرها كتاب (شخصية مصر. دراسة في عبقرية المكان)، ومات ولم يتزوج، جمال حمدان، صاحب مقولة لو كان جمال حمدان أوروبيا أو أمريكيا لتحولت مقولاته إلى مزامير تتلى صباح مساء، ولكانت مقولاته ورؤاه الإستراتيجية عنوانا عريضا لدى معظم الباحثين ومراكز الدراسات، ولكن لأنه مصري عربي مسلم فإن النسيان والتجاهل كان نصيبه، وزاد من ألم هذا الجحود أنه جاء من بني جلدته المثقفين والمفكرين، الذين نذر حياته لتوعيتهم وتحذيرهم مما يحيط بهم من تحديات ومخاطر، وكما يقولون فإن ظلم ذوي القربى أشد على النفس من وقع الحسام المهند، وفاته: عثر على جثته والنصف الأسفل منها محروقاً، واعتقد الجميع أن د. حمدان مات متأثراً بالحروق، ولكن د. يوسف الجندي مسئول الصحة بالجيزة أثبت في تقريره أن الفقيد لم يمت مختنقاً بالغاز، كما أن الحروق ليست سبباً في وفاته؛ لأنها لم تصل لدرجة أحداث الوفاة، واكتشف المقربون من د.حمدان اختفاء مسودات بعض الكتب التي كان بصدد الانتهاء من تأليفها، وعلى رأسها كتابة عن اليهودية والصهيونية، مع العلم أن النار التي اندلعت في الشقة لم تصل لكتب وأوراق د. حمدان، مما يعني اختفاء هذه المسودات بفعل فاعل".

– انظر: موقع: www.ouregypt us /arcaifirt page .

ومن المفارقات التي تستحق التأمل أن هذا الأستاذ الجامعي الذي ترك الجامعة، والمثقف الذي اعتزل الحياة الثقافية، قد ألقى بظلاله على كل من الجامعة وحياتنا الثقافية، ولكن رغم الإعجاب الشديد هذا يبدو أنني حين قرأت كتابه لأول مرة كنت أبحث ساعتها عن المعلومات شأني في هذا شأن أي باحث، ولكن يبدو أيضا أنني استوعبت في ذات الوقت منظومة فكرية كاملة ثم استبطنتها تماما دون أن أدري، غير أني لم أدرك هذا إلا مؤخراً بعد أن انتهيت من كتابة موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: نموذج تفسيري وتصنيفي جديد (والتي استغرقت معظم الفترة السابقة من حياتي)، وجلست لأتأمل في مصادر فكري، وقد تزامن هذا مع كتابة هذه المقدمة، فهالني حجم تأثري به في طريقة تفكيره.

لقد جاء في كتابه الكثير من المعلومات والوقائع فأخذت منها ما أخذت، واستبعدت ما استبعدت، ثم تبدلت المعلومات وتحورت، كما تتبدل المعلومات وتتحور، ولكن بقي ما هو أهم، بقي فكره ورؤيته ومنهجه، فمن الواضح أنني تعلمت من جمال حمدان رفض الواحدية المادية العلمية([١]) والتعصب للمناهج الرياضية، وإعادة الاعتبار للخيال والمجاز والحدس في عملية التفكير العلمي.

ومن أهم ما تعلمته منه هو الخروج بالظواهر اليهودية والصهيونية من دائرة التوراة والتلمود والدراسات اليهودية، وإدخالها في نطاق العلم الإنساني العام، ووضعها في عدة سياقات تاريخية لتصبح ظواهر مختلفة ذات أبعاد مختلفة وليست ظاهرة واحدة مغلقة تتسم بالوحدة، ولكن أهم ما تعلمته منه وهو ما تعلمته من أساتذتي ([٢]).

أثر جمال حمدان لا يمكن أن تجده في سطر أو سطرين أو صفحة أو صفحتين من كتاباته، وإنما هو هناك بين السطور، وهذا هو أعمق الأثر، ولكن مع سيطرة النموذج التراكمي المعلوماتي، أهملت أهمية هذا النوع من التأثر، فمجال البحث العلمي بالنسبة للكثيرين هو الحقائق وليس الحقيقة، هو المعلومات وليس الأنماط الكامنة وراءها؛ ولذا فحينما يدرس أثر كاتب على آخر، فإن الدارسين عادة ما يبحثون دائما عن بضعة جمل وعبارات واقتباسات مباشرة نقلها الكاتب المتأثر بالكاتب المؤثر (وهكذا عدنا مرة أخرى لشركات النقل).

وقائمة المراجع فيما يكتب من دراسات تدور هي في إطار هذا النموذج المعلوماتي، مما يعني أن إسهام عشرات المفكرين والمعلمين في صياغة أفكار الدارسين لا يعترف به؛ لأنّ مثل هذا الإسهام لا

([١]) الواحدية المادية العلمية: واحدية العلوم وهي مفهوم أساسي في المناهج البحثية الحديثة، يفترض أن ثمة وحدة عامة شاملة تنظم العلوم كافة (الطبيعية والرياضية والاجتماعية والإنسانية) باعتبار أن الإنسان جزء لا يتجزأ من الطبيعة (المادة حيث لا وجود له خارجها) وباعتبار أن ثمة قانوناً واحداً طبيعياً مادياً يسري على جميع الظواهر الإنسانية والطبيعية، أي ثمة واحدية كونية مادية، ومن ثم يرى دعاة وحدة العلوم أن من الممكن دراسة ظاهرة أخرى في العالم الطبيعي، كما يمكن أن تطبق على الإنسان نماذج العلوم الطبيعية.

- انظر: المسيري: الموسوعة، ٢٣٨/١.

([٢]) جمال حمدان: اليهود أنثروبولوجيا، ص٤٠-٤٣.

يوجد في سطر بعينه أو صفحة محددة، وما يوجد بين السطور لا يقاس ولا يمسك بالحواس الخمس ولذا فهو غير موجود من منظور كمي معلوماتي([1]).

كما أنني يمكنني أن أثير قضية أخرى وهي لِمَ لمْ يؤثر جمال حمدان في هؤلاء الذين يكتبون دراسات في نفس الموضوع بطريقة تتناسب مع حجمه الفكري، يمكنني القول أن النموذج المعلوماتي التراكمي قد سيطر تماما وحول كل شيء (الآراء، والرؤى، والأحلام، والآلام) إلى معلومات، ولذا تحولت كتابات هذا المفكر إلى مادة أرشيفية يتناولها الكتاب المعلوماتيين بنهم، وأعتقد أن معظم ما يكتب هذه الأيام يكتب صدوراً عن هذا النموذج، ولكن الأسوأ من هذا أن ما يقرأ الآن يقرأ بنفس الطريقة، وهكذا تضيع الحقيقة ولا يبقى سوى الحقائق هناك أجندة بحثية بين السطور علينا أن نصل إليها ونبينها للأجيال.

إنّ جمال حمدان وضع أساس خطاب تحليلي جديد، لم يلتزم به هو نفسه أحيانا، وهذا هو شأن الرواد دائما، علينا أن ندرس هذا الخطاب ونصل إلى برنامج بحثي يحوي الإشكاليات الأساسية التي طرحها جمال حمدان، ثم نكمل المسيرة، وبذا لا تضيع حياته هدراً وتكتسب عزلته معنى، ويتحول إنجازه الفكري الشامخ من مجرد مجموعة أفكار مرصوصة وكتابات مصفوفة تسحب من الخزائن في المناسبات العامة ليكرم اسم صاحبها، ثم تعاد مرة أخرى، لتستمر في الرقاد، يتحول هذا الانجاز الشامخ إلى رصيد حي يضاف إلى رصيد هذه الأمة الفكري فيزيدها علما وحياة، والله أعلم[2].

ذ. شهادات التقدير والجوائز المحلية والدولية[3] التي حصل عليها:

- شهادة تقدير من جامعة القدس بفلسطين المحتلة (١٩٩٥م).
- شهادة تقدير من الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا (١٩٩٦م).
- International Educators' Hall of Fame (١٩٩٦م).
- شهادة تقدير من نقابة أطباء القاهرة (١٩٩٧م).
- شهادة تقدير من محافظة البحيرة (١٩٩٨م).
- شهادة تقدير من اتحاد الطلبة الأندونيسيين (١٩٩٩م).
- شهادة تقدير من كلية الشريعة والقانون، جامعة الإمارات عن موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية (١٩٩٩م).
- شهادة تقدير من جريدة آفاق عربية بالقاهرة (١٩٩٩م).

---

(١) جمال حمدان، اليهود أنثروبولوجيا، مرجع سبق ذكره: ص٤٣.

(٢) المرجع نفسه: ص٤٠.

(٣) انظر: في عالم عبد الوهاب المسيري، ٢: ٤٩٠-٤٩١.

وانظر: ترجمة علمية للمسيري www. Elmessiri.com موقع عبد الوهاب المسيري.

- شهادة تقدير من مؤتمر أدباء البحيرة (١٩٩٩م).
- جائزة سوزان مبارك لأحسن كاتب لأدب الطفل (٢٠٠٠م) .
- جائزة أحسن كتاب، معرض القاهرة الدولي للكتاب، عن كتاب رحلتي الفكرية (٢٠٠١م).
- شهادة تقدير من حركة فتح الفلسطينية (٢٠٠١م).
- جائزة سلطان العويس بالإمارات العربية المتحدة عن مجمل الإنتاج الفكري (٢٠٠٢م).
- شهادة تقدير من مؤتمر أدباء مصر السابع عشر في الإسكندرية (٢٠٠٢م).
- شهادة تقدير من نقابة الأطباء العرب (٢٠٠٣م).
- جائزة أستاذ الجيل من جائزة الشباب العالمية لخدمة العمل الإسلامي الخامسة بمملكة البحرين (٢٠٠٧م).

دراسته الأكاديمية ومجالات العمل:

- ليسانس آداب– أدب إنجليزي– جامعة الإسكندرية (١٩٥٩م).
- ماجستير في الأدب الإنجليزي والمقارن . جامعة كولومبيا . الولايات المتحدة الأمريكية (١٩٦٤م).
- دكتوراه في الأدب الإنجليزي والأمريكي المقارن. جامعة رتجرز بنيوجيرزي . الولايات المتحدة الأمريكية (١٩٦٩م).
- رئيس وحدة الفكر الصهيوني وعضو مجلس الخبراء بمركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام (١٩٧٠_ ١٩٧٥م).
- المستشار الثقافي للوفد الدائم لجامعة الدول العربية لدى هيئة الأمم المتحدة بنيويورك (١٩٧٥ _ ١٩٧٩م).
- أستاذ الأدب الإنجليزي والمقارن . جامعة عين شمس (١٩٧٩_ ١٩٨٣م)، وجامعة الملك سعود (١٩٨٣_ ١٩٨٨م)، وجامعة الكويت (١٩٨٨_ ١٩٨٩م)، وكان يعمل أستاذاً غير متفرغ بجامعة عين شمس (١٩٨٨ _ ٢٠٠٨م)، كما عمل أستاذاً زائراً بجامعة ماليزيا الإسلامية في كوالا لامبور وبأكاديمية ناصر العسكرية.
- المستشار الأكاديمي للمعهد العالمي للفكر الإسلامي بواشنطن (١٩٩٢_ ٢٠٠٨م).
- عضو مجلس الأمناء لجامعة العلوم الإسلامية والاجتماعية في ليسبرج في فيرچينيا بالولايات المتحدة (١٩٩٣_٢٠٠٨م).
- عضو مجلس الأمناء لجامعة العلوم الإسلامية والاجتماعية–واشنطن– الولايات المتحدة (١٩٩٧_ ٢٠٠٨م).
- مستشار تحرير عددٍ من الحَوْليات التي تصدر في مصر وماليزيا وإيران والولايات المتحدة الأمريكية وإنجلترا وفرنسا.

مؤلفات المسيري وكتاباته حول الصهيونية:

أولاً– الأعمال المنشورة باللغة العربية:

- **نهاية التاريخ:** مقدمة لدراسة بنية الفكر الصهيوني (مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام، القاهرة ١٩٧٢م، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٩م) في عام١٩٧٢م، جاء هذا الكتاب قبل (٢٨) عاماً من تأليف المفكر الأميركي (فرانسيس فوكوياما Fransses Fokuyama) الكتاب الذي يحمل نفس العنوان، لكن الفرق بين النظريتين أن رؤية فوكوياما تعتبر أن نهاية التاريخ تعني انتصار الولايات المتحدة على الاتحاد السوفيتي، بينما يرى المسيري أن نهاية التاريخ فاشية اخترعتها الدول الغربية للسيطرة على العالم، والمسيري أول من تحدث عن نظرية نهاية التاريخ وفعل ذلك قبل فوكوياما، ومن منظور آخر يذهب إلى أن الفلسفات الفاشية تحاول دائماً أن تضع نهاية للتاريخ (الزمان والمكان) لتبدأ من نقطة الصفر، وهذا ما يصنعه الصهاينة بالنسبة لكل من الفلسطينيين ويهود العالم، إذ تتحول فلسطين العربية إلى أرضٍ بلا شعب ويتحول اليهود إلى شعب بلا أرض.

  وهو يقدم من خلال هذه المعالجة إنجازاً فلسفياً، إذ يرجع أساس هذه النظرية إلى المدرسة الحلولية أي حلول الإله في التاريخ، حيث يصبح الخالق والمخلوق جوهراً واحداً، ومن ثم فلا فرق ولا تجاوز بين الخالق والمخلوق، وتسود الحتميات وتصبح الظواهر ذات بعد واحد، فتسود الواحدية بدلاً من الثنائية والجدل والتدافع، وبهذا يصر المسيري على رفض نهاية التاريخ، بينما ينطلق (فوكوياما) من نقطة الوصول إليها[1].
- **موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية:** رؤية نقدية (مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام، القاهرة، ١٩٧٥م).
- **العنصرية الصهيونية:** (سلسلة الموسوعة الصغيرة، بغداد، ١٩٧٥م).
- **اليهودية والصهيونية وإسرائيل:** دراسة في انتشار وانحسار الرؤية الصهيونية للواقع (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٥م).
- **مختارات من الشعر الرومانتيكي الإنجليزي:** النصوص الأساسية وبعض الدراسات التاريخية والنقدية (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٩م).
- **الفردوس الأرضي:** دراسات وانطباعات عن الحضارة الأمريكية (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٩م).
- **الأيديولوجية الصهيونية:** دراسة حالة في علم اجتماع المعرفة (جزءان، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨١م، طبعة ثانية في جزء واحد، ١٩٨٨م).
- **الانتفاضة الفلسطينية والأزمة الصهيونية:** دراسة في الإدراك والكرامة (منظمة التحرير الفلسطينية، تونس ١٩٨٧م، المطبعة الفنية، القاهرة، ١٩٨٨م، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠م).

---

(1) الحسن: غياب المسيري، الرجل الذي حاصر الفكر الصهيوني بالكلمات، مقال سبق ذكره.

- **افتتاحيات الهادئ:** تأليف ستيفن سونديايم وجون ويدمان (ترجمة بالاشتراك) (وزارة الإعلام، سلسلة المسرح العالمي، الكويت، ١٩٨٨م).
- **الاستعمار الصهيوني وتطبيع الشخصية اليهودية:** دراسات في بعض المفاهيم الصهيونية والممارسات الإسرائيلية (مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ١٩٩٠م).
- **هجرة اليهود السوفييت:** منهج في الرصد وتحليل المعلومات (دار الهلال، كتاب الهلال، القاهرة، ١٩٩٠م).
- **الأميرة والشاعر:** قصة للأطفال (الفتى العربي، القاهرة، ١٩٩٣م).
- **الجمعيات السرية في العالم:** (دار الهلال، كتاب الهلال، القاهرة، ١٩٩٣م).
- **إشكالية التحيز:** رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد (تأليف وتحرير)(جزءان، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٣م، جزءان، واشنطن، ١٩٩٦م، سبعة أجزاء، القاهرة، ١٩٩٨م).
- **أسرار العقل الصهيوني:** (دار الحسام، القاهرة، ١٩٩٦م).
- **الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ:** رؤية حضارية جديدة (دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٧_١٩٩٨_٢٠٠١م).
- **من هو اليهودي ؟:** (دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٧_ ٢٠٠١م).
- **موسوعة تاريخ الصهيونية:** (ثلاثة أجزاء، دار الحسام، القاهرة، ١٩٩٧م).
- **اليهود في عقل هؤلاء:** (دار المعارف، سلسلة اقرأ، القاهرة، ١٩٩٨م).
- **اليد الخفية:** دراسة في الحركات اليهودية، الهدامة والسرية (دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٨م، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠م، دار الشروق، ٢٠٠١م).

موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: نموذج تفسيري جديد (ثمانية مجلدات، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٩م).

- **فكر حركة الاستنارة وتناقضاته:** (دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٩٩م).
- **قضية المرأة بين التحرر والتمركز حول الأنثى:** (دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٩٩م).
- **نور والذئب الشهير بالمكار:** قصة للأطفال (دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٩م).
- **سندريلا وزينب هانم خاتون:** قصة للأطفال (دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٩م).
- **رحلة إلى جزيرة الدويشة:** قصة للأطفال (دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٠م).
- **معركة كبيرة صغيرة:** قصة للأطفال (دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٠م).
- **سر اختفاء الذئب الشهير بالمحتار:** قصة للأطفال (دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٠م).
- **العلمانية تحت المجهر:** بالاشتراك مع الدكتور عزيز العظمة (دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٠م).

- **رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمار:** سيرة غير ذاتية غير موضوعية (الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠١م).
- **الأكاذيب الصهيونية من بداية الاستيطان حتى انتفاضة الأقصى:** (دار المعارف، سلسلة اقرأ، القاهرة، ٢٠٠١م).
- **الصهيونية والعنف من بداية الاستيطان إلى انتفاضة الأقصى:** (دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠١م).
- **فلسطينيةً كانت ولم تَزَلِ:** الموضوعات الكامنة المتواترة في شعر المقاومة الفلسطيني (نشر خاص، القاهرة، ٢٠٠١م).
- **قصة خيالية جداً:** قصة للأطفال (دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠١م).
- **العالم من منظور غربي:** (دار الهلال، كتاب الهلال، القاهرة، ٢٠٠١م).
- **الجماعات الوظيفية اليهودية:** نموذج تفسيري جديد (دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠١م).
- **ماهي النهاية؟:** قصة للأطفال بالاشتراك مع الدكتورة جيهان فاروق (دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠١م).
- **قصص سريعة جداً:** قصة للأطفال (دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠١م).
- **من الانتفاضة إلي حرب التحرير الفلسطينية:** أثر الانتفاضة على الكيان الإسرائيلي (عدة طبعات، القاهرة _ دمش _ برلين_ نيويورك_ نشر إلكتروني، ٢٠٠٢م).
- **أغنيات إلى الأشياء الجميلة:** ديوان شعر للأطفال (دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٢م).
- **انهيار إسرائيل من الداخل:** (دار المعارف، القاهرة، ٢٠٠٢م).
- **الإنسان والحضارة والنماذج المركبة:** دراسات نظرية وتطبيقية (دار الهلال، كتاب الهلال، القاهرة، ٢٠٠٢م).
- **مقدمة لدراسة الصراع العربي _ الإسرائيلي:** جذوره ومساره ومستقبله (دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٢م).
- **الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان:** (دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٢م).
- **اللغة والمجاز:** بين التوحيد ووحدة الوجود (دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٢م).
- **العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة:** (جزءان، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٢م).
- **أغاني الخبرة والحيرة والبراءة:** سيرة شعرية، شبه ذاتية شبه موضوعية (دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٣م).
- **الحداثة وما بعد الحداثة:** بالاشتراك مع الدكتور فتحي التريكي (دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٣م).
- **البروتوكولات واليهودية والصهيونية:** (دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٣م).
- **الموسوعة الموجزة:** (مجلدان، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٣م)(١).
- **أعمال مترجمة مع آخرين:**

---

(١) المسيري: رحلتي الفكرية في الجذور والبذور والثمر، ٧٢١-٧٢٦.

- **الغرب والعالم تاريخ الحضارات من خلال الموضوعات:** تأليف كافين رايلي (جزآن)، ترجمة بالاشتراك مع زوجته د. هدى حجازي، مراجعة د. فؤاد زكريا. (سلسلة عالم المعرفة ٩٠-٩١) الكويت، ١٩٨٥م.

ثانياً- الأعمال المنشورة باللغة الإنجليزية:

- A Lover from Palestine and Other Poems (Palestine Information Office، Washington D.C.، 1972 .
- Israel and South Africa : The Progression of a Relationship (North American ، New Brunswick ، N.J.، 1976 Second Edition 1977; Third Edition، 1980; Arabic Translation، 1980).
- The Land of Promise : A Critique of Political Zionism (North American، New Brunswick، N.J.، 1977) .
- Three Studies in English Literature : (North American، New Brunswick، N.J.1979) .
- The Palestinian Wedding : A Bilingual Anthology of Contemporary Palestinian Resistance Poetry (Three Continents Press، Washington D.C.، 1983.) .
- A Land of Stone and Thyme: Palestinian Short Stories (Co-editor) (Quartet ، London، 1996)٠

ثالثاً- الأعمال المترجمة:

- **صهيونيسم:** ترجمة إلى الفارسية لكتاب موسوعة تاريخ الصهيونية (طهران، مؤسسة جاب وانتشارات، ترجمة لواء رودباري، جمهورية إيران الإسلامية، ١٩٩٤م).
- Israel-Africa Do Sul: A Marcha Deum Relacionamento ترجمة إلى اللغة البرتغالية لكتاب إسرائيل وجنوب أفريقيا تطور العلاقة بينهما ريو دي جانيرو، البرازيل، ١٩٧٨م).
- Daha kapsamli ve aciklazici bir sekularizm paradigmasina dogru: Modernite، ickinlik ve cozulme iliskisi uzerine bir calisma ترجمة إلى اللغة التركية لدراسة طويلة باللغة الإنجليزية بعنوان «نحو نموذج أكثر شمولية وتركيباً للعلمانية»، نُشرت موجزة في كتاب عن العلمانية في الشرق الأوسط Secularism in the Middle East، ed. John Esposito and Azzam al-Tamimi، (Hurst، London، 2000 . (استانبول، تركيا، ١٩٩٧م).

وقد تُرجمت العديد من المقالات التي كتبها الدكتور المسيري إلى لغات أخرى مثل الفرنسية وغيرها من اللغات الحية.

رابعاً– مقالات في الجرائد والمجلات والحوليات:

كتب الدكتور المسيري شتى المقالات باللغتين العربية والإنجليزية: الأهرام، الحياة، الشرق الأوسط، الشعب، منبر الشرق، الإنسان، قراءات سياسية، شئون فلسطينية، العربي.

New York Times –Journal of Arabic Studies –Journal of Palestine StudiesAl–Ahram Weekly، etc . وفي جرائد ومجلات وحوليات عربية وبريطانية وأمريكية أخرى.

خامساً– المحاضرات والمؤتمرات:

محاضرات عن اليهود واليهودية والصهيونية وإسرائيل، الحضارة الغربية، الأدب الإنجليزي، الهوية العربية، العولمة...إلخ في (كل أنحاء العالم)، حضر عدة مؤتمرات وكان المتحدث الرئيسي في بعضها.

سادساً– مقابلات صحفية وبرامج وثائقية:

لقاءات قناة الجزيرة:

أ. برنامج بلا حدود:

١. مستقبل إسرائيل وإرهاصات نهايتها، (لقائه الأخير)، ٧ مايو ٢٠٠٨م، الحلقة فيديو على Youtube.
٢. حرب لبنان وأثرها على المشروع الصهيوني، ٩ أغسطس، ٢٠٠٦م.
٣. رؤية الإسرائيليين لمستقبل دولتهم، ٢٢ سبتمر، ٢٠٠٤م.
٤. أسباب العنف والإرهاب الذي تمارسه إسرائيل، ٢٤ سبتمبر، ٢٠٠٣م.
٥. أثر الانتفاضة الفلسطينية على بنية المجتمع الإسرائيلي، ٦ فبراير، ٢٠٠٢م.
٦. الحركة الصهيونية والصراع العربي الإسرائيلي، ٨ نوفمبر، ٢٠٠٠م.
٧. الصهيونية العالمية، ٣ فبراير، ١٩٩٩م.

ب. برنامج زيارة خاصة:

٨. عبد الوهاب المسيري، رحلة في الفكر والأدب، ج ١، ١٢ يوليو، ٢٠٠٨م.
٩. عبد الوهاب المسيري، رحلة في الفكر والأدب، ج٢، ١٩ يوليو، ٢٠٠٨م.

سابعاً– دراسات عن أعمال المؤلف:

ندوات:

- **ندوة عن الكتابات الفكرية:** (أي التي لا تتناول موضوع الصهيونية) في لندن، (١٢ يناير، ١٩٩٨م).
- **مجلة الجديد:** (عمان، ملف خاص، شتاء عام ١٩٩٨م _ العدد العشرين).
- **ندوة في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية:** جامعة القاهرة عن موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، (٢٩ _ ٣١ مارس، ٢٠٠٠م).
- **في عالم عبد الوهاب المسيري كتاب حواري:** قام بتحريره د. أحمد عبد الحليم عطية (أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة) حول أعمال المؤلف، اشترك فيه عدة مفكرين من بينهم: محمد حسنين هيكل، محمود أمين العالم، محمد سيد، أحمد جلال أمين (يناير ٢٠٠٤م).

- **دراسات نقدية:**
- مقال أحمد إبراهيم خضر في مجلة البيان ما بال أقوام يمالئون اليهود؟ قراءة متأنية في موسوعة د. المسيري عن اليهود واليهودية.
- كتاب بهاء الأمير الوحي ونقيضه بروتوكولات حكماء صهيون في القرآن.
- كتاب المؤلف زاهر بشير كشف الحجب الإعلامية عن حقيقة فكر المسيري في المسألة اليهودية.

وفاته:

توفي المسيري فجر يوم الخميس الموافق ٢٩ جمادى الآخرة ١٤٢٩ هـ، الموافق ٣ تموز/يوليو ٢٠٠٨م، بمستشفى فلسطين بالقاهرة، عن عمر يناهز السبعين عاماً بعد صراع طويل مع مرض السرطان، وشيعت جنازته من مسجد رابعة العدوية بمدينة نصر بالقاهرة، وشارك في صلاة الجنازة آلاف المصريين، إضافة إلى عشرات العلماء والمفكرين، وعلى رأسهم الشيخ يوسف القرضاوي والمفكر المصري فهمي هويدي، ومحمد سليم العوا، وعمرو خالد.

وقد رثاه تلميذه النجيب الدكتور مازن النجار على قناة الجزيرة بكلمات تنم عن فائق التقدير، والاحترام الذي ناله المسيري من كل من عرفه، فقال: "رحل عبد الوهاب المسيري وترجل فقد تميز قلمه بالحكمة البالغة، والفكر الرصين كان موسوعة أبهر كل من اقترب منه بعمقه في عدد من مناحي الفكر والأدب والتاريخ استقى منها كل ذي تخصص في تخصصه، فهو يفكر كثيراً، ويتأمل كثيراً، ويتعمق كثيراً، ولكنه يخرج بانجازه في سرعة الريح، إذ لزم الأمر صارع من أجل أفكاره، وتحدى الجميع، لا يحيد عن

قناعاته ولكنه فقط يراجعها، ويختبرها فإذا تبين له عوار في شيء منها تراجع في شجاعة أدبية نادرة لكنها لا تفارق شجاعته في تحدي القوى المهيمنة بأفكاره ودلائله على قرب نهايتها"([1]).

أثر دراسات المسيري في استراتيجيات المواجهة الفكرية والسياسية:

ساهمت دراسات المسيري ومؤلفاته في تغيير الرؤية لنشأة وتاريخ الحركة الصهيونية، مما كان له الأثر الكبير في تعديل النظرة الإستراتيجية لمواجهة الفكرة الصهيوني، ومن ثم تكوين منهج سياسي لمحاصرتها، حيث كانت الصهيونية معروفة في دراسات كثير من الباحثين المعاصرين بأنها: مجرد عدوٍ فقط، نسجت حوله تصورات مسبقة كانت نتيجة عدم الدراية والإحاطة والمعرفة.

بذل المسيري جهوداً كبيرة في دراسة وتحليل وتفسير الظاهرة الصهيونية وتاريخ اليهود والجماعات اليهودية، كما ظل طوال هذه الفترة وهو يرقب ويقرأ مصير الكيان (الإسرائيلي)، ومتابعته بجميع تنوعاته وتشكلاته.

لقد صدرت قبل المسيري عدة كتب والمئات من الدراسات والأبحاث، وكتب الكثير عن اليهود والحركة الصهيونية، وتناول العديد منها عدة محاور – كانت أهم تلك التحليلات والدراسات قد صدرت عن مركز الأبحاث في بيروت– في سبعينيات القرن العشرين، من قِبل أنيس صايغ، وصبري جريس، والياس شوفاني وخيرية قاسمية وغيرهم.

وقد تبلورت اهتمامات المسيري بدراسة الصهيونية، حينما كانت رؤيته ونماذجه التحليلية– حسب قوله–تتشكلان: " كانت الصهيونية قد بدأت تتحول إلى الانشغال الفكري والسياسي الأساسي في حياته "[2].

وتحدث المسيري عن بدايات علاقته الحقيقية بالصهيونية، وأشار لذلك في كتابه رحلتي الفكرية فقال: " يمكن القول بأن علاقتي الحقيقة بالصهيونية بدأت عام ١٩٦٣م، حينما ذهبت إلى جامعة كولومبيا في نيويورك للحصول على الماجستير في الأدب الانجليزي المقارن، كان عندي ساعتها مجموعة من الاقتناعات الراسخة من بينها أن إسرائيل– التي لم يكن من المسموح الإشارة إليها إلا بإضافة كلمة المزعومة– هي بلد تقطنه عصابات صهيونية يمكن للقوات العربية القضاء عليها في أي لحظة تقرر فيها ذلك، ولهذا قررت أن أتجاهل الموضوع برمته لأنه إذا كانت المسألة تافهة إلى هذا الحد، فلماذا أشغل بالي بها ثم توقف"([3]).

([1]) مازن النجار: مقتطفات من رثائه للدكتور المسيري على صفحات موقع الجزيرة نت. www.aljazera.net.

([2]) المسيري: رحلتي الفكرية، مصدر سابق، ص٤٧٦.

([3]) المصدر نفسه، ص٤٧٩.

ويواصل فيقول: "عدت إلى مصر أحمل في عقلي هذا الإدراك لوثنية الصهيونية وبدائيتها وواحديتها الهستيرية وانتمائها إلى التقاليد الحضارية الغربية"[١].

ويوضح المسيري رؤية الصهيونية للواقع فيقول: " الصهيونية ليست مجرد انحراف عن الحضارة الغربية الحديثة، كما يحلو للبعض القول، وإنما هي إفراز عضوي لهذه الحضارة ولما نسميه بالحداثة الداروينية، أي: الحداثة التي ترمي إلى تحويل العالم إلى مادة استعمالية توظف لصالح الأقوى في مقابل الحداثة الإنسانية التي ترمي إلى تحقيق التوازن بين الذات والطبيعة، والتي تطالب بتكاتف كل أبناء الجنس البشري لإعمار الأرض لصالح البشرية جمعاء بما في ذلك الأجيال القادمة"[٢].

غير أن دراسات وأبحاث المسيري كان لها أثر أعم وأشمل، وتركت أثراً كبيراً على معظم الباحثين في العالم العربي.

لقد وصل المسيري عبر دراسته لموضوعات اليهود واليهودية والصهيونية– التي امتدت لثلاثين عاماً– إلى ضرورة كشف واكتشاف التحيزات الغربية الكامنة في مصطلحاتنا ومناهجنا وأدواتنا البحثية وقيمنا المعرفية، واقترح مصطلحات ومناهج وأدوات وقيماً معرفية بديلة تتسم بقسط أكبر من الاستقلالية، والقدرة التفسيرية العالية[٣]، وهو مثقف موسوعي ملم بأحدث تجليات الثقافة الغربية، كما هو ملم بتنويعات الفكر الإسلامي وبدهاليز الفكر الصهيوني([٤]).

يقول كافين رايلي (Kaveen Rayley)[٥]: " يقف عبد الوهاب المسيري في مصاف المنظرين المبدعين في مجالي الدين والمجتمع، جنباً إلى جنب مع أسماء مرغوبة من جيل ابن خلدون، وماكس فيبر، وإميل دوركهايم، وكما فعل سابقوه اللامعون، استخدم المسيري عقلية واسعة المدى، وتعلماً أدبياً عريضاً، وطاقة هائلة كي يقدم إنتاجاً نظرياً ثرياً، ويتناول بعضاً من أهم قضايا عصره الثقافية والسياسية"[٦].

([١]) المسيري: رحلتي الفكرية، ص٤٨٥.

(٢) المسيري: المصدر نفسه، ص٥٣٥.

(٣) انظر: هشام جعفر: فقه التحيز أعلى مراحل التحرر المعرفي، بحث ضمن كتاب: في عالم عبد الوهاب المسيري، حوار نقدي حضاري، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٤م، ج٢، ص٩٠.

(٤) انظر: محمود عبد الفضيل: عبد الوهاب المسيري المثقف العضوي النموذجي، جريدة البديل، ٧-٧-٢٠٠٧م.

(٥) كافيين رايلي: مؤرخ أمريكي بارز، رئيس جمعية دراسات تاريخ العالم بالولايات المتحدة.

(٦) كافين رايلي، مفكر عربي في سياق عالمي المدخل إلى فكر المسيري، بحث في كتاب: عالم عبد الوهاب المسيرى، مرجع سابق، ١ /٤٦.

وانفتاح المسيري على المجتمع الأمريكي والصهيوني، قد مكنه من أن يعمم نوعاً خاصاً من الخبرة الدينية التي من الممكن أن نسميه (صهيونية)، كانت خصائص هذه النظرة ولا تزال تقوم على إنكار أهمية الماضي في مقابل أن مستقبلاً أبدياً سيقوم في هذا العالم، ومن ثم يتحول تجاوز الإله إلى حلولية دينية، وتستعمر أرض بلا شعب من أجل شعب بلا أرض، ومن أجل إقامة المدينة الخالدة، وكذلك من أجل إقامة أو خلق الثقافة الحق التي لا تتأثر بخصوصيات الزمان أو الذوق أو الأخلاق، أي: أمريكا وإسرائيل باختصار[١].

ويقص علينا المسيري رحلته الطويلة والمكثفة فيقول: " وقررت أن أقضي بقية حياتي الفكرية في الكتابة عن الظاهرة اليهودية والصهيونية، الصهيونية كاستعمار استيطاني وكأيديولوجية لأعضاء الجماعات اليهودية الهيجلية والحلولية ونهاية التاريخ، الاستهلاكية ومصير الإنسان، التحيزات المعرفية والحاجة لمشروع حضاري مستقل، الحاجة إلى استخدام النماذج كأدوات تحليلية، (اليهودية الحلولية)، وتحولت الأفكار المتناثرة إلى فكر متماسك ثم أخذت شكل نموذج معرفي متكامل جعل من العسير على تناول بعض الظواهر من الناحية السياسية والبعض الآخر من الناحية المعرفية، ومن ثم أصبحت دراساتي في الصهيونية واليهودية جزءاً من الانشغال الفكري العام.

ولم يعد من الممكن إنهاء الموسوعة في نفس الإطار الذي بدأتها داخله.ولعل من أهم الأمور التي يجب ذكرها في هذا السياق أنه في هذه الفترة (١٨٩_١٩٨٥م) تحول الإسلام بالنسبة لي من كونه مجرد عقيدة أؤمن بها، إلى رؤية للكون أؤمن بأنه يمكن للإنسان أن يولد منها نماذج تحليلية ذات مقدرة تفسيرية عالية، كما يعطي إجابات عن الأسئلة النهائية، إذ أن الباحث الذي يريد أن يؤسس نسقاً فكرياً تحليلياً جديداً لا ينقل معلومات وحسب، ولا حتى يحاول أن يربط بينها ويجرد منها، وإنما يقوم بعد ذلك بتطوير نماذج تفسيرية تعيد قراءة التاريخ والواقع على ضوئها"[٢].

وتنبع أهمية مدرسة المسيري الفكرية من الطبيعة الاستقرائية لمساره البحثي، ولهذا فإن رؤيته وتشخيصه لطبيعة المشروع الصهيوني في فلسطين يتسمان بمصداقية عالية، إذ تبين مدرسة المسيري أبعاد التحدي الذي يشكله هذا المشروع، والتي لا تقف عند تجلية طبيعته الاستعمارية الاستيطانية والإحلالية للصهاينة في فلسطين بعد طرد أهلها، فالمسيري يوظف إبداعه لمفهومه في بيان خصوصية الكيان "الإسرائيلي" وطبيعيته التعاقدية الصرفة، بما يعينيه هذا من ربط بين العديد من الحقائق السياسية والتاريخية والمعرفية حول المشكلة الصهيونية"[٣].

---

(١) كافين رايلي: مفكر عربي في سياق عالمي، ١/٥٠.

(٢) المسيري: رحلتي الفكرية، ٥٤٨-٥٤٩.

(٣) المصدر السابق، ٢، ص٤١٣.

أ. **جهاد المسيري على جبهتي الصهيونية والعلمانية:**

يقول فهمي هويدي: " لقد عمل المسيري على جبهة بالغة الأهمية، وهي جبهة تأصيل وترتيب الحقائق في موضوع القضية الفلسطينية،... فأعاد الثقة للمواطن العربي في صموده ومجابهته المشروع الصهيوني، فكتاباته في هذا الموضوع كاشفة إلى حد كبير، وأظن أنه تمكن من تبديد كثير من الأوهام التي أحاطت بهذا المشروع، حيث كان دائم التركيز على أنه مشروع قابل للتفكيك والهزيمة، وهذا ليس دوراً هيناً في ظل هالات المبالغة التي أحاطت بهذا المشروع، والتي كانت تصب كلها في مجرى إضعاف ثقة المقاوم العربي في نفسه وفي إمكاناته، وشعوره بالدونية والهشاشة إزاءه، ومن ثم إضعاف موقفه وسريان روح الفشل والإحباط في نفسه وعقله.

نجح المسيري نجاحاً كبيراً في تفكيك البنية الأساسية لهذا المشروع الصهيوني الاستيطاني، وإعطائه من ثم حجمه الحقيقي من غير تهويل ولا تهوين، وليبادر الإنسان العربي إلى تحمل مسؤوليته متخلصاً من أسر الأوهام والأساطير المحبطة"[١].

ب. **أثر المسيري في تصحيح الرؤية العربية والإسلامية للحركة الصهيونية:**

قام المسيري بتأليفه للموسوعة الصهيونية ليصحح معظم المفاهيم والتصورات الخاطئة عن الصهيونية، وقد ساهمت كتاباته مساهمة فعالة في دفع الشبهات حول ديباجياتها واعتذارياتها، مما أتاح المجال للكثير من الباحثين والكتاب العرب والمسلمين لأن يلجوا هذا المضمار بثقة المنتصر الذي خرج لتوه من مرارة الهزيمة، " ففي موسوعته حاول تفسير الظواهر اليهودية والصهيونية، بدلاً من مجرد الرد عليها والترافع ضدها ودحض حججها، وقد استفاد الكثير من الموسوعة التي هي بمثابة حدث ثقافي وعلامة بارزة في تاريخ وتطور الفكر العربي"[٢].

يورد محمد سليم العوا[٣] أهم ما قام به المسيري بهذا الصدد فيقول: " الذي يتجلى في أعمال عبد الوهاب المسيري كلها، هو: أنه وقف نفسه وعمله العلمي والفكري على حقيقة واحدة، هي: أن الصراع بيننا وبين العدو الصهيوني، ومن ورائه الغرب الرأسمالي، صراع لا تحسمه القوة العسكرية وحدها، وقد لا تحسمه هذه القوة على الإطلاق.

---

(١) في عالم عبد الوهاب المسيري، ٢، ص٤٤١.

(٢) إبراهيم درويش: قصة تشكل مفكر عربي كبير المسيري في سيرة غير ذاتية غير موضوعية، بحث ضمن كتاب: في عالم المسيري، ٢، ص٤٤٣ (مصدر سبق ذكر).

(٣) مفكر إسلامي، وأستاذ القانون بالجامعات العربية والإسلامية.

ولكنه صراع يحسمه التقدم الحضاري الذي لايكون إلا بالتقدم الفكري المستنير، الذي لا يخلط الحق بالباطل، والواقع بالوهم، والكائن بالمتخيل، وإنما يضع كلاً في موضعه، ويحسن استعماله والإفادة منه[١].

ولعل أهم إضافات الدكتور المسيري للفكر العربي– بل والإنساني المعاصر– أنه استطاع أن يضع المنظومة الفلسفية والفكرية للحضارة الغربية تحت المجهر، وأن يقوم بتشريح علمي دقيق لتلك المنظومة، مستخدماً أدوات علم اجتماع خاص به– وهو رائد في هذا الصدد– ولم يستخدم كعادة باقي المفكرين العرب علم الاجتماع الغربي في دراسة المنظومة الغربية.

وبفضل هذا المنهج استطاع أن يخلصنا من حالتي الانبهار والرفض والتوافق معها، فهي كائن حي، وبمجهود جبار استطاع أن يفكك المنظومة الغربية، وأن يجلعنا نفهمها من داخلها ومن خارجها في نفس الوقت...، ولا شك في أن الصراع العربي الصهيوني، باعتباره أحد أهم تجليات وإفرازات الظلم الغربي، كان يحتاج إلى نوع من الفهم والإبداع غير السائد، والقائم على مغالطات ومسلمات غير صحيحة، كان يمكن أن تؤدي إلى استمرار حالة الجهل بالعدو، والهزيمة بالتالي؛ لأن النصر لا يأتي إلا بعد المعرفة" [٢].

ج. دحض المسيري الخصوصية الحضارية لليهود[٣]:

نوّه المسيري إلى أن وجود خصوصية حضارية لليهود يعتبر خرافة، مشدداً على أن ما وصفه بالعدوان الإسرائيلي اليومي على الفلسطينيين يعبر عن يأس الدولة الصهيونية، وأوضح المسيري أن من السذاجة افتراض وجود خصوصية تاريخية لليهود، نظرا لعدم وجود مشترك تاريخي بين أعضاء الجماعات اليهودية، وأن أي حديث عن وجود تجانس بين أعضاء الجماعات الدينية اليهودية خرافة ابتدعها الصهاينة والمعادون لليهود واليهودية على حد سواء.

(١) قصة تشكل مفكر عربي كبير، إبراهيم درويش ضمن في عالم المسيري، ٢: ٤٤٥.

(٢) محمد مورو: الريادة الفكرية والإنسانية، مقالة في كتاب في عالم المسيري، ٢:٤٥٠–٤٥١. بتصرف.

(٣) على الرغم من الدراسة المعمقة للمسيري حول نشأة الحركة الصهيونية، إلا أننا نلاحظ أنه قد أهمل جانباً مهماً منها وهو: "المكون اليهودي والعنصر الديني، حيث أن الحركة الصهيونية تضم عنصراً دينياً، لم يكن بوسعها الاستغناء عنه في محاولاتها الهادفة إلى تسخير الديانة اليهودية لخدمة أغراضها، وحمل اليهود من جهة والعالم المسيحي من جهة أخرى على مماشاة أهدافها السياسية، وأهم جوانب هذا الفعل الديني هو التركيز على ما يسمى: العلاقة التاريخية بين اليهود وأرض إسرائيل وعرضها بشكل عام ليخدم المطامع الصهيونية ".

– انظر: جريس، صبري، تاريخ الصهيونية (١٨٦٢–١٩٤٨م)، ١، ص٥٠، ط١، ١٩٧٦م، بيروت، مركز الأبحاث.

وقال المسيري:" إن الكلام عن إقامة دولة للشعبين الفلسطيني والإسرائيلي يحمل قدراً من عدم الدقة، فرغم كونه أحد أشكال الاعتراف بوجود شعب فلسطيني، فإنه يؤكد أيضاً وجود شعب يهودي له حقوق في فلسطين المحتلة ، مشيراً إلى أن البديل هو إقامة دولة واحدة ديمقراطية تضم من يقيمون في هذه الأرض.

وشدد على أن إسرائيل ليست دولة دينية، وإنما دولة علمانية تستخدم ديباجات يهودية مثل الممالك الصليبية التي لم تكن مسيحية، ولكنها استخدمت ديباجات دينية، متسائلاً: " إذا كانت إسرائيل دولة دينية فهل يمكن الاحتكام إلى نصوص الدين اليهودي خاصة التي تحرم القتل"([1]).

د. **أثر المنهجية الفكرية والرؤية المعرفية عند المسيري:**

المنهجية الفكرية التي أنتجها المسيري ساهمت في صناعة لحظة تفكير فاصلة للعقل العربي في فضاء الفكر والعلوم الاجتماعية والإنسانية، من خلال قدرته على نحت المصطلحات الانعكاسية، وبناء وتطوير النماذج الإدراكية، والنماذج التفسيرية التي تتجاوز حدود الوضعية Positivism الضيقة باختزاليتها الكمية وتجريبيتها الشكلانية؛ لتصل إلى تخوم النماذج التركيبية ذات القدرة التفسيرية، في ضوء الإحاطة المنهجية الفائقة لـ(التحيزات) التي يغص بها المشهد أو الظاهرة المراد تحليلها وتفسيرها ومن ثم فهمها، وهذا هو الشيء الرئيس الذي يؤدي بنا لاعتبار المسيري (مفكر القرن)، وهذا القرن مرشح- بطبيعة الحال- لمفكرين آخرين بذات المستوى"([2]).

ومما ميز مشروع المسيري بأنه حاول أن يرسم خريطة بشكل واسع، وأن يطور أفكاره في مجالات وتخصصات مختلفة، وأن يحول مشروعه إلى مشروع جماعي فكان يدعو إلى أفكاره ويدعو من يشاركه هذا الفكر.

ويأتي مشروع التحيز كبلورة كبرى لمشروعه بعد الموسوعة، والتي تدعو إلى الإجابة عن كيف يمكن أن نكشف عن التحيزات الكامنة في الفروع المختلفة للعلوم، ليس فقط الاجتماعية، إنما أيضا العلوم الطبيعية التي تنحاز إلى رؤية معينة للإنسان وللعالم.

وإذا بدأنا في استعراض بداية اهتمام المسيري بالغرب وبفكرة أنه لانهاية للتاريخ، نجد أن تحليله للعالم الغربي من خلال كتبه عن الغرب تحدد المسار الأوسع لاحتكاكه بالحضارة التي تسود هذا العالم.

---

(١) موقع الجزيرة نت .WWW.JAZERANET.COM الجمعة، ١٤٢٥/١١/١٩ هـ – الموافق ٢٠٠٤/١٢/٣١ م.

(٢) موقع الجزيرة نت (WWW.JAZERANET.COM، ٢٠٠٩م)، المعرفة، السبت، ١٤٣٠/٧/١٢هـ الموافق ٢٠٠٩/٧/٤م.

من هذا الإطار حدد المسيري فكرته أن النموذج الصهيوني تتجلى فيه بوضوح تلك الأبعاد التي تركز على المادية ومحو التاريخ، واستلاب الذاكرة، والهيمنة المطلقة والنظر إلى هذه الأرض التي تم احتلالها باعتبارها: (أرض بلا شعب وبلا تاريخ وبلا هوية)، وطوال الوقت عندما يطور رؤيته للنموذج الصهيوني يطور رؤيته للنموذج المادي الذي أكد مع الوقت أنه لا يتجلى في منطقة جغرافية معينة، وبالتالي نحن نتحدث عن الغرب كنموذج مهيمن على العالم من خلال مشروع العولمة، فالصراع ليس على منطقة معينة إنما على نموذج معين يحاول الهيمنة، فبالتالي نحن نحارب هذا النموذج.

وقد اهتم المسيري أن ينظر بالتوازي إلى المادية والعنصرية والصهيونية معا، وبالتالي من يقرأ الموسوعة قراءة تعمقية ويجردها بعض الشيء من التفاصيل المرتبطة بالصهيونية واليهودية، يجد فيها منهجاً مهماً لدراسة الحالات المختلفة التي استعرضها بدراسة تاريخ الجامعات المختلفة لتطوير مفاهيم نظرية من موضوع بعينه مثل موضوع الصهيونية ومفهوم الجامعات الوظيفية، ومفاهيم أخرى كمثل التي تحدثت عن فكرة أرض الميعاد.

ومن خلال الموسوعة الصهيونية ودراسة الغرب، تولدت للمسيري فكرتين بدأ يركز عليهما بدأب واهتمام:

الفكرة الأولى:

أ. **فكرة العلمانية:** التي أصبحت أساس تحليله للنماذج الفكرية والمعرفية، وهي لم تكن نماذج مفصومة عن بعضها البعض، وإنما كان يلحظ طوال الوقت تسرباً لبعض المفاهيم العلمانية التي تفصل الإنسان عن مكانه، أو التي تتقبل الظواهر والقشور ولا تنظر للجواهر والمقاصد، وكان دائماً ما يضرب أمثال من الواقع يظهر كيف تسربت بعض الأفكار، كفكرة الحط من الكرامة الإنسانية، وتكريس فكرة الصراع[١].

ب. **الجماعة الوظيفية:** وهي " جماعة يستوردها المجتمع أو يجنِّدُهَا من داخله، تُعْرَفُ في ضوء وظيفتها، لا في ضوء إنسانيَّتها الكاملة، ويوكل المجتمع إليها وظائف لا يضطلع بها–عادةً – أعضاء المجتمع، إمَّا لأنها مشينة... أو متميزة، وتتطلب خبرةً خاصَّةً أو لأنها تتطلب الحياد.

ويتسم أعضاء الجماعة الوظيفية بالحياد، وبأن علاقتهم بالمجتمع علاقة نفعية تعاقدية، وهم– عادةً– عناصر حركية لا ارتباط لها ولا انتماء، تعيش على هامش المجتمع في حالة اغتراب، ويقوم المجتمع ذاته بعزلها عنه؛ ليحتفظ بمتانة نسيجه المجتمعيّ. وأعضاء الجماعة الوظيفية– عادةً– من حَمَلَةِ

---

(١) هبة رؤوف: المشروع الفكري للدكتور عبد الوهاب المسيري ورحلة البحث عن المعنى والدفاع عن الانسان. على موقع: inwww.heba-ezzat.com/2009/08/08 محاضرات 2008 ،Posted on August 08th .

الفكر الحلوليّ أو العَلْمَانِيِّ الشَّامل، ويعد المسيري أن الصهيونية أحد نماذج العلمنة المتطرفة، ويدعو إلى إدراك العلمنة في جوانبها غير الإنسانية، كما أنَّ المسيري استعان بالجماعة الوظيفية؛ لتحليل الجماعات اليهوديَّة، والدولة الصهيونيَّة، وتاريخ الفكر اليهوديّ والصهيونيّ([1]).

هـ. المسيري وتفكيك بنية الفكر الصهيوني:

لقد نقل المسيري الصراع مع إسرائيل– على المستوى الفكري– نقلة نوعية، عندما صوب أدواته الفكرية نحو مدخل جديد لدراسة (بنية الفكر)، الذي يستند إليه المشروع الصهيوني، حيث سعى لتعريته وكشف أبعاده، من أجل التوصل إلى المفاتيح الحقيقية لتفكيك لبنية المعقدة والفريدة، في ذات الوقت، بين المشاريع الاستعمارية العنصرية على مدى التاريخ([2]).

و. طبيعة الأيديولوجية الصهيونية ومستقبل إسرائيل:

شخّص المسيري كيفية انهيار إسرائيل من الداخل وذلك من خلال كتابه (انهيار إسرائيل من الداخل)، وهو دراسات متنوعة في الكيان الصهيوني تغطي الموضوعات الأساسية التالية: الديموجرافيا اليهودية، النبوءات الصهيونية، العنف الصهيوني، إعادة بناء الهيكل، ثم تتوجه الدراسة إلى قضية (انهيار إسرائيل من الداخل)، وكيف أن عوامل الأزمة آخذة في التفاقم ولكنها لن تؤدي إلى الانهيار؛ لأن مقومات حياة الكيان الصهيوني ليست من داخله، وإنما من خارجه، فهو لا يحقق لنفسه الاستمرار من خلال جهد المستوطنين الصهاينة، وإنما من خلال الدعم الأمريكي الغربي السياسي والاقتصادي والعسكري– المستمر – ولذلك ؛ فلا بد من استمرار الجهاد ضد هذا العدو([3]).

أشار المسيري إلى تعقد الصراع العربي الإسرائيلي نتيجة مخلفات الأيديولوجية الصهيونية التي تمثلت من خلالها مشكلة المجتمع الاستيطاني على أرض فلسطين، وهذه المسألة– كما يقدرها المسيري– نحن طرف فيها، ولا يمكن حلها دون تدخلنا، وينبه المسيري إلى خطورة الموقف وعدم جدوى التسوية السياسية والأسباب التي تكمن وراءها، ويقرر المسيري الحقائق التالية:

١. توجد إسرائيل في الشرق الأوسط، ولكنها ليست فيه، أي: أنها في مسام الشرق الأوسط ولكنها، منفصلة عنه عضوياً، فهي لا تنتمي إلى السياق والنسيج الحضاري الذي توجد فيه ولا تتفاعل معه حضارياً.
٢. إن إسرائيل لاترى نفسها داخل إطار من التكامل الاقتصادي، وإنما تحاول دائماً أن تستفيد من وضع التخلف الموجود في المنطقة.

([1]) المصدر السابق نفسه.

([2]) عمرو كمال حمودة: المسيري وتفكيك بنية الفكر الصهيوني، في عالم عبد الوهاب المسيري،١، ص ٤٧.

([3]) المسيري: رحلتي الفكرية، ص٥٣٣.

٣. لاتزال إسرائيل معتمدة على الغرب وعلى يهود الشتات اقتصادياً.
٤. إسرائيل (مخفر) أمامي للإمبريالية[١]، وهي استعمار استيطاني، وهو عميل وجيب استيطاني منفصل عن المحيط الإنساني والحضاري الذي يحيط به، ولكنها على الرغم من هذا تجد نفسها تندمج فيه تدريجياً.
٥. إسرائيل استعمار إحلالي، أي: أن طرد الفلسطينيين جزء عضوي من الرؤية والممارسة الصهيونية.
٦. الاستعمار الصهيوني مستقل نوعاً ما عن الغرب- إذا ما قيس بجيوب استيطانية أخرى- واعتماده الكامل عليه في الوقت ذاته.
٧. إنه ذو طبيعة توسعية، وقد نبّه المسيري لهذه الطبيعة في العديد من كتبه ومؤلفاته، وتجلى ذلك في الموسوعة بشكل واضح.

وهكذا نلحظ كيف كان لدراسات المسيري الأثر العميق في إعادة الثقة للإنسان العربي في صراعه مع الصهيونية، والمتمثلة بدولة الكيان (الإسرائيلي) في قلب فلسطين[٢].

---

(١) عمرو كمال حمودة: المسيري وتفكيك بنية الفكر الصهيوني، في عالم عبد الوهاب المسيري ٢/ ص٤٧٩-٤٨.

(٢) انظر: المسيري: رحلتي الفكرية، ص٤٧٦-٤٧٩-٤٨٥-٤٩٢ ومابعدها.

الفصل الثاني

كتابات المسيري ودورها في التأصيل المعرفي لدراسة الظاهرة الصهيونية

المبحث الأول: الخطاب العربي وقراءة الظاهرة الصهيونية.

علاقة المسيري بالحركة الصهيونية وأهم الأفكار التي نادي بها.

المبحث الثاني: الرؤية المنهجية عند المسيري ونقده للخطاب العربي المعاصر.

المبحث الثالث : جذور الصهيونية في تصور المسيري.

١. الإرهاصات الاولى وحملات الفرنجة ومركزية حملات الفرنجة في التصور الصهيوني.
٢. الموقف اليهودي من الحروب الصليبية.
٣. الحروب الصليبية في العقل الصهيوني.
٤. رصد المستشرقين اليهود للمصادر التي كتبت في عصر الحروب الصليبية.

المبحث الأول

الخطاب العربي وقراءة الظاهرة الصهيونية

يقدم المسيري خطاباً عربياً جديداً، حيث أسهم في تكوين خطاب عربي إسلامي جديد، خطاب مركب يقدم رؤية منهجية مختلفة في رؤية وإدراك الحضارة الغربية والصهيونية، والعلمانية المادية الشاملة، ونقد للحداثة وما بعد الحداثة، ورسم ملامح الخطاب الإسلامي المطلوب في هذه اللحظة التاريخية الحرجة، حيث قدم نماذج توليدية نقدية، أضفى عليها رؤيته وفكره الخاص، حتى أصبحت مقترنة به تمام الاقتران.

فقد تجاوز المسيري الخطاب العربي السائد حول العلمنة، حيث وضع الصهيونية في إطارها الصحيح، واعتبرها من إفرازات الحضارة الغربية ونتيجة طبيعية لأحد نماذج العلمنة المتطرفة، ويدعو إلى إدراك العلمنة في جوانبها غير الإنسانية، وأزمتها في مجال القيم والأخلاق التي هي أساس رؤى العدل والحرية.

وبذلك ينقل المسيري العقل العربي إلى مساحات جديدة، ويتجاوز الجدل العقيم، ودون الدخول في خطاب سياسي مغلق وضيق، والعودة إلى النموذج الإسلامي لدى المسيري لم تكن عودة فردية، بل كانت عودة لنموذج معرفي كلي متجاوز، يضع الإنسان في قلب المنظومة المعرفية، ولذلك كانت عودته متواكبة وتطويره لفكرة النماذج التحليلية في فهم الظواهر، لا نفي الآخر أو فكراً أو معرفة، فبدون نظريات كبرى لا توجد نماذج معرفية تعيننا على ترتيب تراكم المعلومات، لنستخرج منها معرفة تحليلية لنكون من ثم قادرين على تفسير الظواهر واستشراف المستقبل([1]).

١. تعريف الصهيونية:

شاع مصطلح الصهيونية في اللغة العربية، وافترض أن الصهيونية حركة عالمية، أي: تمارس نشاطها بين جميع أعضاء الجماعات اليهودية في كل البلاد، فالحركة الصهيونية حركة عنصرية قائمة على ديباجات وخلفيات دينية وتراثية وقومية يهودية، وشرط نجاحها مرتبط بإلغاء حقوق أهل فلسطين

([1]) هبة رؤوف سعد: العقل العربي عندما يكون موسوعياً، بحث في كتاب: في عالم عبد الوهاب المسيري، ١/٣٥-٣٦، مصدر سبق ذكره.

العرب في أرضهم والحلول مكانهم، ولا فرق في جوهر الفكرة الصهيونية بين تيارات علمانية أو اشتراكية سياسية، فالصهاينة كلهم في النهاية صهاينة توفيقيون، يسعون إلى الأهداف العليا نفسها [1].

وكثرت تعريفات الصهيونية بأنواعها المختلفة وأسباب نشأتها ومدى ارتباطها بتاريخ الحضارة الغربية، حيث إنها: " حركة عنصرية دينية استيطانية، تطالب بتوطين اليهود في فلسطين وإقامة دولة لهم على حساب حقوق الشعب العربي الفلسطيني، وتنسب الصهيونية إلى جبل (صهيون) الذي يقع إلى الجنوب من بيت المقدس، وقد ارتبطت الحركة الصهيونية الحديثة بشخصية اليهودي النمساوي (هرتزل) الذي يعد الداعية الأول للفكر الصهيوني الحديث والمعاصر، حيث تقوم على آرائه الحركة الصهيونية في العالم".

ومعنى كلمة صهيونية (بالعبرية:צִיּוֹנוּת) هي حركة سياسية تدعي أنها يهوديةK إلا أنها لا تلتزم بأي شرع أو تعاليم، إذ إنها علمانية أساساً، كان هدفها الرئيسي إقامة دولة يهودية في فلسطين، وذلك بتشجيع هجرة اليهود في أنحاء العالم كافة إلى فلسطين (إيريتس يسرائيل) حسب التسمية اليهودية التقليدية، وإقامة تجمعات يهودية جديدة في هذه البلاد، وفي أيار/مايو ١٩٤٨م بدأت الصهيونية في العمل لتحقيق هذا الهدف بتأسيس (دولة إسرائيل) واعتراف بعض دول العالم بها، أما بعد تأسيس إسرائيل فتستهدف الحركة الصهيونية تعزيز العلاقات بين المجتمعات اليهودية في أنحاء العالم ودولة إسرائيل وتشجيع يهود من بلدان مختلفة لزيارتها والهجرة إليها([1]).

كلمة (صهيوني) مشتقة من الكلمة (صهيون) وهي أحد ألقاب جبل صهيون الذي يسمى بـ (جبل داود) عند المسلمين المقدسيين، والذي يعد الأقرب إلى مكان بناء هيكل سليمان في القدس كما هو مذكور في الصحائف المقدسة لدى اليهودية والمسيحية، وتعبّر كلمة (صهيون) عن أرض الميعاد عند اليهود، وعودة اليهود إلى تلك الأرض.

واصطلاحاً: فكر وحركة سياسية هدفها توحيد اليهود في الشتات وإسكانهم في فلسطين، وتوجت جهودها بإقامة دولة إسرائيل عام١٩٤٨م، أول من استخدم مصطلح الصهيونية هو ناثان برنباوم ١٨٦٤م– ١٩٣٧م، الفيلسوف اليهودي النمساوي عام ١٨٩٠م، وتم عقد أول مؤتمر صهيوني في مدينة

---

(1) Zionism،" Microsoft® Encarta® Encyclopedia 2000. © 1993–1999 Microsoft Corporation.

بال في سويسرا ليتم تطبيق الصهيونية بشكل عملي على فلسطين، فعملت على تسهيل الهجرة اليهودية ودعم المشاريع الاقتصادية اليهودية([1]).

وعرّفها الباحث (جوني منصور) فقال: " اسم لحركة أيديولوجية تقدم نفسها على أنها تعبير عن رغبات وطموحات الشعب اليهودي في العصر الحديث، وفي مقدمتها: (العودة إلى أرض إسرائيل) على حد تعبير هذه الحركة، والحركة في أسسها العملية قريبة من الحركات الاستعمارية التي انتشرت في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، والواقع أن الصهيونيين استطاعوا الاستفادة من المعتقدات الدينية، وتسخيرها لخدمة التوجهات السياسية التي نادت بها الحركة الصهيونية.

٢. نشأة المصطلح:

في بداية القرن التاسع عشر تصوبت الأنظار نحو فلسطين، ثم ازداد نشاط اليهود في أواسط القرن التاسع عشر، وقد ظهرت حركة في روسيا استعانت بيهود الولايات المتحدة على شراء الأراضي في فلسطين لترحيل اليهود الروس إليها، وفي أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين دخلت الصهيونية طوراً جديداً خطيراً، حينما وضع (هرتزل) الأساس الحقيقي للصهيونية، والتي تهدف إلى جمع يهود العالم في دولة يهودية خالصة.

وتمخضت عن حركة هرتزل المؤتمرات الصهيونية السنوية التي صاغت بروتوكولات صهيون، ولقد كانت الأرض المقدسة والهيكل هدف تلك الحركة منذ البداية، وكانت فلسطين هي الاختيار الأول لمكان الدولة، وتحفزت الصهيونية في تنفيذ مخططها، وهو إقامة الدولة اليهودية الدينية فوق الأرض المقدسة، وتزعمت بريطانيا والولايات المتحدة تحقيق هذا الهدف على مراحل، ففي مؤتمر الصلح عام ١٩١٩م رسمت حدود ما عرف باسم فلسطين، وكانت معاهدة (سايس بيكو) بين فرنسا وبريطانيا قد تضمنت تقسيم مناطق النفوذ بينهما، وكانت فلسطين من نصيب بريطانيا حامية اليهود وكانت قواتها تحتلها حينذاك.

وفي نوفمبر ١٩١٧م أصدرت الحكومة البريطانية على لسان وزير خارجيتها أرثوذكسي جيمس آرثر تصريحا بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، وعينت (هربرت صموئيل) الوزير البريطاني اليهودي مندوباً سامياً عام ١٩٢٠م، ثم مرت الحركة الصهيونية بمرحلة دفع جديدة خلال الحرب العالمية الثانية،

---

(١) جوني منصور: معجم الأعلام والمصطلحات الصهيونية والإسرائيلية، المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية (مدار) ط١، ٢٠٠٩م، ص ٢٩٢. وينظر: صبري جريس: تاريخ الصهيونية، ج١، ص ١٣.

وتمخضت عن إعلان قيام دولة يهودية في الجزء الأكبر من فلسطين، وقد قامت بريطانيا بفتح أبواب الهجرة اليهودية الرسمية، ويسرت وصول الأسلحة إلى المستوطنين اليهود وأنشأت الفيلق اليهودي، وعملت على إفشال التجمع العربي عام ١٩٤٨م، ثم سلمت علم الصهيونية إلى الولايات المتحدة الأمريكية، والتي عدت نفسها منذ ذلك الحين مسئولة عن إسرائيل بتوفير أسباب البقاء لها، ومنحها الهبات والمنح المالية والقروض طويلة الأجل ومقطوعة الأجل، وفتحت أبواب خزائنها لدولة (إسرائيل) ولا عجب في ذلك، فالصهيونية المنسوبة إلى صهيون ليست مقصورة على اليهود، بل هناك نصارى يعتنقون الصهيونية، وينطلقون من أن الإنجيل هو امتداد للتوراة فكل يهودي صهيوني وليس كل صهيوني بالضرورة يهوديا.

ويحدد أحد الصهاينة من اليهود المعاصرين تاريخ الصهيونية في مراحل محددة، فيقول: " إذا أمعنا النظر نرى أن تاريخ أربعة أزمنة مختلفة، **الأول:** زمن التوراة، **والثاني:** الزمن السابق لهرتزل، **والثالث:** الزمن المعاصر لهرتزل، والرابع: الزمن التالي لتصريح بلفور"، إن مجد صهيون الذي تتبنى الحركة الصهيونية الدعوة إلى إعادته لا يقف عند حد هذا الجبل (صهيون) أو الأرض المحيطة به، إنما يشمل عندهم بقعة مترامية الأطراف من بلاد المسلمين(١).

هكذا نلحظ مدى التبسيط في هذا النموذج من الكتابات المعاصرة، عدا عن الرؤية التآمرية والفكر التآمري المبني على تصورات بروتوكولات حكماء صهيون، وهنا يكمن دور المسيري في إزالة هذا اللبس وتصحيح المفهوم حول الصهيونية والفكر الصهيوني.

٣. تعريف الصهيونية في كتابات المسيري:

يشكك المسيري في أساس المصطلح الصهيوني، ويعزو ذلك لعدة أسباب، أهمها: " أن الحركة الصهيونية نشأت في الغرب في البلاد الاستعمارية ثم تبناها يهود العالم الغربي لأغراض مختلفة، فالصهيونية ليست عالمية من ناحية النشأة؛ لأن يهود العالم كانوا يتواجدون داخل التشكيل الحضاري الغربي مع نهاية القرن التاسع عشر، وهي المرحلة التي نشأت فيها الصهيونية، وطرحت الصهيونية نفسها منذ البداية على أنها رؤية كاملة وشاملة للحياة اليهودية والتاريخ اليهودي والإنسان اليهودي، وعلاقته بالطبيعة- الأرض- الهوية اليهودية... الخ، أي: أنها طرحت نفسها لرؤية الكون.

---

(١) عبد العزيز بن مصطفى كامل: قبل الكارثة نذير ونفير، مؤسسة صلاح السليم، الرياض، ١٤٢١هـ ص١٦٤- ١٦٦.

وقد أدركت الصهيونية هويتها منذ البداية على أنها حركة علمانية شاملة ترفض العقيدة اليهودية، وترفض الإيمان بأية منطلقات أخلاقية، أو دينية متجاوزة لعالم المادة، والقوى السياسية، والطبيعية والصراعات الفكرية([١]).

ويشير المسيري إلى أن مصطلح (صهيونية) يصعب تعريفه بشكل مباشر، إلا أنه أورد له عدة تعريفات بشكل غير مباشر، مع تنبيهه إلى أن هذا المصطلح يثير إشكالية من حيث اختلاط التعريفات بالاعتذاريات والديباجات والمنظورات المختلفة، بحيث لا يمكن التفرقة بين الواحد والآخر، كما يشير المصطلح– في الوقت ذاته – إلى نزعات وحركات ومنظمات سياسية غير متجانسة، بل متناقضة أحياناً في أهدافها ومصالحها ورؤيتها للتاريخ، أو في أصولها الإيثينية أو الدينية أو الطبقية([٢]).

وقد حاول المسيري أن يحدد معنى لفظ (صهيونية) ومجاله الدلالي، من خلال ما أطلق عليه: " الصيغة الأساسية الشاملة المهودة، فكلمة صهيون مشتقة من (صهين) بالإنجليزية(ZAYANAIZ) ويستخدم المصدر من هذا الفعل عادة بشكل شبه مجازي، فيقال: صهيونية يهود العالم، بمعنى أن تسيطر العقيدة الصهيونية على بعض جوانب وجودهم لا كلها، ويقال: (صهيونية اليهودية) بمعنى أن الرؤية الصهيونية للكون تصبح هي القيمة الحاكمة داخل النسق الديني اليهودي، وصيغة اليهود واليهودية هي الشكل الخاص تتخذه عملية علمنتها "[٣].

ثم قام المسيري بصك مصطلح للصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة، وهذا التعريف المتمثل بالمصطلح الذي جاء به المسيري يتضمن جميع الثوابت والمسلمات النهائية الكامنة في الاتجاهات الصهيونية كافة، مهما اختلفت دوافعها وميولها ومقاصدها وطموحاتها وديباجاتها واعتذارياتها، كما أنه قد أفرد كتاباً خاصاً لهذا الغرض؛ لأن المصطلحات–حسب رأيه– تخبئ مفاهيم، وهذه المفاهيم قد تكون متحيزة ضدنا، إن كان من صك المصطلح معادياً لنا ورؤيته للواقع تغيبنا وتهدر حقوقنا.

فحينما يشير الصهاينة إلى فلسطين باعتبارها: إسرائيل وإلى القدس باعتبارها أورشليم، وحينما يتحدثون عن أمن إسرائيل أو حدودها، فإنهم عادة ما يعطون هذه المصطلحات مضموناً متحيزاً ضدنا، بل ومعادياً لنا[٤].

([1]) عبد الوهاب المسيري: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية،٦، ص١٦.

([2]) عبد الوهاب المسيري: المرجع نفس، ٦، ص١٣.

([٣]) عبد الوهاب المسيري: المرجع نفسه، ٦: ١٣.

([٤]) عبد الوهاب المسيري: في الخطاب والمصطلح الصهيوني، القاهرة: دار الشروق، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٥م، ص٥ .

ويواصل المسيري فيقول: " وصك المصطلحات الصهيونية المتحيزة عملية مستمرة، ولذا لا بد من إدراك ما تنطوي عليه هذه المصطلحات من مفاهيم عنصرية وادعاءات زائفة، والتصدي لذلك من خلال عملية تفكيك وإعادة تركيب لهذه المصطلحات فضلاً مضادة "(١).

ولا يمكن وصف أي قول أو اتجاه بأنه صهيوني إن لم يتضمن هذه المسلمات، فهي بمنزلة البنية العامة الكامنة للإجماع الصهيوني، ويمكن تلخيصها على النحو التالي:

١. اليهود شعب عضوي منبوذ غير نافع، يجب نقله خارج أوروبا هكذا استقر الرأي في نهاية الأمر، فهم الفئة البشرية المستهدفة ليوطن فيها وليحل محل سكانها الأصليين، الذين لابد أن تتم إبادتهم أو طردهم على الأقل، كما هو الحال مع التجارب الاستعمارية الاستيطانية الإحلالية المماثلة.

٢. يتم توظيف هذا الشعب لصالح العالم الغربي بدعمه وضمان بقائه واستمراره داخل إطار الدولة الوظيفية في فلسطين، وهذه هي الصهيونية الشاملة التي لم يفصح عنها أحد بشكل مباشر، فهي تشكل هيكل المشروع الصهيوني، والبنية الفكرية التي أدرك الصهاينة الواقع من خلالها(٢).

استمر هذا التيار المنادي بتوطين اليهود في فلسطين حتى بعد أن خمد الحماس الديني الذي صاحب حركة الإصلاح الديني، أصبح مفهوم الصهيونية مفهوماً أساسياً في الخطاب السياسي الغربي عام ١٨٤١م، مع نجاح أوروبا في بلورة مشروعها الاستعماري ضد العالم العربي والإسلامي، وتمت بلورة المفاهيم الصهيونية وملامح المشروع الصهيوني بشكل كامل في الفترة بين منتصف القرن التاسع عشر، حيث تبلور على يد كل من: (لورانس)، و(أليفانت) وقد لخص (أنتوني شافتسبري)(٣) Lord

---

(١) المرجع نفسه، ص٥.

(٢) عبد الوهاب المسيري، في الخطاب والمصطلح الصهيوني، ١٧/٦.

(٣) أنتوني أشلي كوبر، لورد شافتسبري (١٨٠١– ١٨٨٥م)، وأحد أهم الشخصيات الإنجليزية في القرن التاسع عشر، كان شافتسبري زعيم حزب الإنجيليين، إضافة إلى أنه كان أخ لزوجة بالمرستون رئيس الوزراء البريطاني الذي كان يثق به كثيراً، ويأخذ بمشورته.

كان خطاب شافتسبري خليطاً من العناصر الاجتماعية والأساطير الدينية، حيث مزج بين الحاضر والزمان الغابر والتاريخ المقدَّس، وقد كان هذا الخطاب يَصدُر عن فكرة الشعب العضوي المنبوذ بطريقة لم يعمل بها، أي: مفكر أو أديب صهيوني في عصره، سواء كان يهوديا أو غير يهودي.

كان شافتسبري يتحدث من داخل نطاق (العقيدة الألفية والاسترجاعية) بعد علمنتها تماماً، فاليهود بالنسبة اليه شعبا عضوياً مستقلاً وجنساً عبرياً يتمتع باستمرار لم ينقطع، كان يرى شافتسبري أن اليهود قد أصبحوا جنساً غريبا منبوذا في المجتمعات الأوروبية وفي العالم، وأصبحوا متعجرفين سود القلوب منحطين خلقيا، ومنغمسين في العناد والجهل بالإنجيل، ووجودهم بالمجتمعات التي يعيشون فيها يعتبر خطأ، وهو يعارض منحهم الحقوق المدنية والسياسية في بريطانيا، وأن هذا الشعب (اليهود) لهم علاقة خاصة مع منطقة بعينها هي فلسطين، وإن عودتهم إليها هي الحل الصحيح لأجل عودة المسيح ومن ثم خلاص البشر، قال شافتسبري في أطروحته البليغة وهو يعني اليهود، (إن أي شعب لابد أن يكون له وطن، الأرض القديمة

(Chavtsebre) التعريف الغربي لمفهوم الصهيونية في عبارة (أرض بلا شعب، لشعب بلا أرض) في كلمات تقترب كثيراً من الشعار الصهيوني، وقد حاول أليفانت أن يضع المشروع الصهيوني موضع التنفيذ([1]).

بدأت النزاعات الصهيونية تظهر بين اليهود أنفسهم في أواخر القرن التاسع عشر مع تفاقم المسألة اليهودية التي عبرت عن نفسها في بادئ الأمر، عن طريق المساعدات التي كان أثرياء اليهود في الغرب يدفعونها للجمعيات التوطينية المختلفة، التي كانت تهدف إلى توطين يهود فلسطين، حتى لا يهاجروا إلى غربها، فيعرضوا مكانتهم الاجتماعية وأوضاعهم الطبقية للخطر.

وقد عبرت النزعة الصهيونية في شرق أوروبا عن نفسها من خلال جماعات أحباء صهيون التي حاولت التسلل إلى فلسطين للاستيطان فيها.

وتوصف هذه النزعات أيضاً بأنها صهيونية رغم اختلاف الدوافع بين الفريقين الأول والثاني، وبعد المؤتمر الصهيوني الأول عام ١٨٩٧م في بازل، تحدد المصطلح وأصبح يشير إلى الدعوة التي تبشر بها المنظمة الصهيونية وإلى الجهود التي تبذلها، وأصبح الصهيوني هو من يؤمن ببرنامج بازل.

خلاصة التعريف: إن كلمة (الصهيونية) تعني في الوقت الحاضر: (الاستعمار الإحلالي في فلسطين الذي ترسخ بدعم الغرب)، وتحمل الكلمة إيحاءات دينية لدى كثير من العرب والمسلمين أو المسيحيين الذين يرون أن الصراع العربي الإسرائيلي صراع ديني[2].

" ويرتبط تاريخ الصهيونية ارتباطاً عضوياً بتاريخ الحضارة الغربية، ولا يمكن فهمه بمعزلٍ عن حركة التاريخ الأوروبي، وتاريخ الصهيونية مرتبط أيضاً بتاريخ تحول الجماعات اليهودية في الغرب إلى جماعات وظيفية، وبفقدانها هذا الدور في عصر النهضة، وهو الأمر الذي أدى إلى تصاعد حمى معاداة اليهود، وتزايد وتيرة الدعوة الصهيونية بين غير اليهود"([3]).

وبيّن المسيري شعار وجوهر الحركة الصهيونية الذي يعتبر محور ارتكاز وجودها وهو (أرض بلا شعب لشعب بلا أرض([4])، وهذا الشعار هو: صياغة معلمنة للرؤية الإنجيلية القائلة بأن فلسطين هي

للشعب القديم)، وهي صيغة علمانية خافتة لشعار (الأرض الموعودة للشعب المختار)، ثم طوَّر هذا الشعار ليصبح (وطن بلا شعب لشعب بلا وطن)، فهو إذن صاحب هذا الشعار الصهيوني الشهير. wikipedia.org موقع ويكيبيديا.

([1]) عبد الوهاب المسيري: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ٦: ١٤-١٥.

([2]) المرجع السابق، ٦: ١٥-١٦، بتصرف.

([3]) عبد الوهاب المسيري: تاريخ الفكر الصهيوني جذوره ومساره وأزمته، دار الشروق، القاهرة، ط١، ٢٠١٠م، ص٣٧.

([4]) بصدد تاريخ ونشأة هذا الشعار. انظر: جون روز: أساطير الصهيونية، ترجمة: قاسم عبده قاسم، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٦م، ص ١١٣-١٣٤. وعن باقي الشعار (لشعب بلا أرض) راجع الصفحات (١٣٥-١٥٧).

أرض الميعاد والأرض المقدسة، وأن اليهود هم الشعب المقدس، لابد أن يعود للأرض المقدسة، فهو صاحبها.

ولعل أول من قام بعلمنة الصياغة هو: (اللورد شافتسبري) الذي تحدث في منتصف القرن التاسع عشر عن الأرض القديمة للشعب القديم، ثم اكتملت عملية العلمنة في الصياغة الحالية: (أرض بلا شعب لشعب بلا أرض)، ويفسر المسيري هذه العبارة بقوله: " هذه الرؤية للكون (الطبيعة والبشر) باعتباره مادة استعماليه، تضع الإنسان الغربي في المركز ومن ثم يصبح العالم كله فراغاً بلا تاريخ وبلا بشر، وإن وجد بشر منهم فهم مادة استعمالية عرضية لا قيمة لها، ومن ثم تصبح فلسطين أرضاً مأهولة بلا شعب، ويصبح الفلسطينيون مادة استعمالية لا قيمة لها في حد ذاتها"([١]).

٤. أهداف الحركة الصهيونية:

١. وحدة الشعب اليهودي، سواء استمر في الحياة في نيويورك أم حيفا ومركزية إسرائيل في حياته، والمركزية مسألة شديدة العمومية.
٢. تجميع من يريد من الشعب اليهودي في وطنه التاريخي أرض إسرائيل التي قامت على أساس رؤية الأنبياء للعدل والسلام، وهي رؤية يمكن تفسيرها بطريقة حلولية كمونية عضوية ترضي كلا من الدينين والعلمانيين.
٣. الحفاظ على هوية الشعب اليهودي من خلال تشجيع التربية اليهودية والعبرية والقيم الروحية والثقافية اليهودية (سواء في إسرائيل أوفي الولايات المتحدة) وحماية الحقوق اليهودية أينما كانت([٢])، ويصدع المسيري بأهم فكرة من أفكاره حول رؤيته للحركة الصهيونية فيقول: " إن معركتي مع الصهيونية ليست لها علاقة كبيرة بالصراع العربي الإسرائيلي، فعدائي للصهيونية ينبع من عدائي لكل أيديولوجيات العنف والعنصرية مثل: النازية، وأيديولوجية التفرقة اللونية في جنوب أفريقيا، وأنه لو اختفت إسرائيل من على وجه الأرض، أو تصالح معها كل العرب لظل عدائي للصهيونية كما هو، وهذا بطبيعة الحال مرتبط برؤيتي المعرفية التي ترتكز على الكلي والنهائي"([٣]).

وحسب تصور المسيري لجوهر الصهيونية يقرر أن الأيديولوجية الصهيونية أيديولوجية عنصرية معادية لكل من العرب واليهود، وأنها إحدى تجليات التشكيل الاستعماري الاستيطاني الغربي، يأخذ شكلا

([١]) انظر: المسيري: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ٦، ص٢١.

([٢]) عبد الوهاب المسيري: في الخطاب والمصطلح الصهيوني، دراسة نظرية تطبيقية، دار الشروق، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٥م، ص٨٥-٨٦.

([٣]) عبد الوهاب المسيري: رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمر، ص ٥٤٧.

إحلاليا، ويلاحظ أن البعد المعرفي قد أصبح أساسيا، كما هو واضح في العنوان الفرعي للكتاب الذي يضم ملحقا مستقلا في علم اجتماع المعرفة.

وقد بين المسيري أن معظم الدراسات التي تناولت الظاهرة النازية تهمل إبراز حقيقة أن شأنها شأن الصهيونية، لم تكن مجرد إعتراف عن الحضارة الغربية، وإنما كانت تيارا أساسيا فيها وتحقيقا لنموذج حضاري كامن (١).

فالصهيونية ليست جزءا من العقيدة اليهودية، وإنما هي تجلي إمبريالي للعلمانية الشامل، فالصهاينة ينزعون القداسة عن كل شيء، ويلغون تاريخ فلسطين والفلسطينيين، ويهود العالم ويوظفونهم (يحوسلونهم)(٢)، ولكن الصهيونية ليست مجرد تبدٍ عام للإمبريالية الغربية، وإنما هي حركة استيطانية إحلالية تمت في كنف الإمبريالية الغربية وتحت مظلتها، وبدون هذه الإمبريالية ما أمكن وضع الصهيونية موضع التنفيذ.

وقد قامت هذه الإمبريالية بنقل كتلة بشرية من أوروبا لتوطنها في فلسطين لتحل محل سكانها الأصليين، كما فعلت ببعض الكتل البشرية الأخرى التي تم نقلها إلى جنوب إفريقيا والجزائر والأمريكتين من قبل، ولا يوجد تاريخ مستقل للحركة الصهيونية عن الفكر الغربي أو الإمبريالية الغربية، وأنه يمكن فهم الفكر الصهيوني بشكل أعمق إن رأيناه جزءاً من الفكر الغربي- خصوصاً المادي- والصهيونية بطبيعة تكوينها ذات ميول توسعية، وطن اليهود القومي (إرتس إسرائيل) من النيل، وهي في المقام الأول حركة إبادية تدعي أن أرض فلسطين أرض بلا شعب، وهي في هذا لا تختلف عن تجارب الاستيطان الإحلالي الأخرى، والإطار المعرفي للصهيونية هو الإطار المعرفي الإمبريالي الغربي: الداروينية وعبء الرجل الأبيض، وتحويل العالم كله بمن فيه من بشر إلى مادة استعمالية (٣).

وينبّه المسيري إلى السمة الأساسية للدولة الصهيونية وأنها تجمع استيطاني إحلالي يوظف الديباجات اليهودية، وأن نقطة إنطلاقه هي الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة، التي تذهب في نهاية الأمر، وفي التحليل الأخير إلى أن اليهود شعب عضوي يعيش في الغرب ولا ينتمي إليه، ولذا يجب أن يوطن في أرض أجداده أي فلسطين، التي يجب أن تفرغ ممن قد يتصادف وجودهم فيها من البشر.

---

(1) المرجع السابق، ٥١٩-٥٢٠ .

(٢) الحوسلة: اختصار لعبارة: تحويل كذا إلى وسيلة، والعلمنة الشاملة والترشيد المادي يرميان إلى تحويل الطبيعة والإنسان إلى وسيلة، أي: حوسلتهما.

- عبد الوهاب المسيري: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ٨، ص٢٧.
- وانظر: عبد الوهاب المسيري: الجماعات الوظيفية، ص٤٩٨، والصهيونية والنازية ونهاية التاريخ، ص٢٥٢.

(٣) عبد الوهاب المسيري: رحلتي الفكرية، ص ٦١٤.

ولذا فبنية الصهيونية بطبيعتها وحسب منطقها الداخلي بنية تتسم بالشذوذ، فهي تؤدي إلى طرد العرب وإبادتهم، بعد أن تقوم بنقل اليهود من أوطانهم([١]).

٥. علاقة المسيري بالحركة الصهيونية وأهم الأفكار التي نادى بها:

هنالك تاريخ طويل بين المسيري والحركة الصهيونية، تزامنت مع دراسته للأدب الانجليزي، إلا أنه كان متابعاً وبصورة رتيبة لكل ما يجرى على الساحة، مع إطلاعه على جُلّ ما يصدر باللغات الأوروبية عن اليهودية والصهيونية والحضارة الغربية.

وقد أشار لذلك في سيرته الذاتية: " وعدت إلى مصر أحمل في عقلي هذا الإدراك لوثنية الصهيونية وبدائيتها وواحديتها الهستيرية، وانتمائها إلى التقاليد الغربية الحضارية الغربية"([٢]).

وفي أعقاب قيام دولة إسرائيل، استمرت دون عائق عملية تجنيد اليهود العرب للقيام بأعمال التجسس وورد في الموسوعة اليهودية (جودايكا JUDEKA)، بأنه كانت هناك (حركة صهيونية سرية على درجة عالية من التطور) في مصر، وكانت تعمل في خدمة الصهيونية، وهذه أكذوبة كبرى مثل كثير من الأكاذيب الصهيونية الأخرى التي تهدف إلى تضخيم القوه الصهيونية، وكان من الشخصيات البارزة في هذه الحركة المواطن المصري اليهودي (موشي مرزوق)، الذي ولد في القاهرة سنه ١٩٢٦م.

وجاء في الموسوعة اليهودية: " أنه بدلا من أن يرتبط الدكتور مرزوق ببلاده، فإنه كان على إقتناع بأن مستقبل جميع اليهود المصريين يكمن في الهجرة إلى أرض إسرائيل التاريخية"، ونتيجة لهذا فقد كرس حياته لا للدفاع عن البلد الذي ولد وتربى فيه، بل لتحقيق الأهداف الصهيونية، فقام بتجنيد اليهود الشبان، ليذهبوا إلى إسرائيل([٣]).

([١]) عبد الوهاب المسيري: في الخطاب والمصطلح الصهيوني، ص٣٢.

([٢]) المرجع نفسه، ص ٤٨٥.

([٣]) المرجع نفسه، ص ٤٧٨.

المبحث الثاني

الرؤية المنهجية عند المسيري ونقده للخطاب العربي المعاصر

كتابات ومؤلفات المسيري عن الصهيونية وأثرها على حركة الوعي العربي:

تتسم كتابات المسيري بالعمق والتحليل، كما أنها تعتمد النموذج التحليلي الذي أهله لذلك النوع من الدراسات، فتراه يوجه نقداً كبيراً للدراسات التي تعتمد على الكم وتهمل الكيفية والجوهر، لذلك فالموضوعية الفوتوغرافية– كما أطلق عليها– هي: نموذج تحليلي يذهب إلى أن المعرفة علمية، تراكمية تتكون من التقاط أكبر قدر ممكن من تفاصيل الواقع المادي كما هو تقريباً، بصورة فوتوغرافية (أو شبه فوتوغرافية) وإدراجها في البحث أو الدراسة دون ربط بين المعلومات ودون محالة تجريد أنماط منها.

وتذهب المعلوماتية إلى أن المعلومة مهمة في حد ذاتها، لا بسبب علاقتها بالموضوع الكلي أو بنمط متكرر، ولذا يصبح التأليف هو أن يحشد المؤلف أكبر قدر من المعلومات بغض النظر عن عدم ترابطها، وعدم وجود بؤرة مركزية لها، والافتراض الكامن أنه كلما زادت المعلومات، زادت درجة الاقتراب من الواقع كما هو: إلى أن يحشد الباحث كل المعلومات أو المراجع– أو معظمها– ويعطينا صورة طبق الأصل من الواقع، وهو تصور يتضمن صورة للعقل بحسبانه كياناً سلبياً.

إن هذا الموقف الموضوعي المتلقي المعلوماتي ليس موضوعياً، وإنما هو موضوعاتي بمعنى أن الدارس يكتفي برصد التفاصيل والموضوعات وتسجيلها، دون أن يربط بينها ودون أن يبين ما هو المركزي منها وما هو الهامشي، وما هو المعبر عن النمط الكلي وما هو مجرد واقعة غير ممثلة، ومما يستحق الإبقاء منها وما يستحق الاستبعاد، ويمكن القول بأن الموضوعية الفوتوغرافية هي نتيجة انفصال الهيجلية، والرغبة في الوصول إلى رؤية شاملة تنضوي تحتها كل التفاصيل عن النزعة المعلوماتية، فتبقى المعلوماتية بمفردها، ويصبح هم الباحث الذي يدور في إطار أدنى مستويات التخصيص، أن ينقل الواقع كما هو، وأن ينقل التفاصيل والمعلومات المتناثرة كما هي دون ربط أو تجريد(1).

لذلك " كان من الحتمي أن يواكب رفض الموضوعية الفوتوغرافية وفكرة العقل السلبي، وهي تحولات في رؤيتي لعقل الإنسان وعلاقته بالواقع المادي، ومن ثم في الفلسفة الكامنة وراء المنهج، كان من الحتمي أن يواكب كل هذه التحولات تحول في الأدوات المنهجية، ولذا إتجهت نحو البحث عن أداة تحليلية تيسر عملية الرؤية الكلية للظواهر والأفكار، والربط بين العديد من التفاصيل والموضوعات التي تبدو وكأنها لا علاقة للواحد منها بالآخر، والربط بين مستويات الواقع المختلفة: العام والخاص، والمجرد، والمتعين، والموضوعي والذاتي، أداة تجعلني أتجاوز الرصد المباشر، والموضوعية المادية المتلقية دون

(1) عبد الوهاب المسيري: رحلتي الفكرية، ص٣١٦-٣١٧.

السقوط في الذاتية، أداة يمكنها أن تحيط بتركيبة الواقع والظاهرة الإنسانية، وقد وجدت بغيتي في نهاية الأمر في النماذج التحليلية "([1])، وقد كانت بداية وتجليات هذا المنهج في كتابه:

الفردوس الأرضي: دراسات وانطباعات عن الحضارة الأمريكية (بيروت، ١٩٧٩م)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، دراسة في الحضارة الأمريكية، هي في واقع الأمر دراسة في الحداثة الغربية ومفهوم التقدم واليوتوبيا التكنولوجية.

وترى الدراسة أن الإنسان الأمريكي، إنسان مادي بالمعنى الفلسفي، يحلم بأن يؤسس فردوساً أرضياً، بحيث يتحكم في كل جوانب حياته الأرضية أو الزمنية، ولكن ينتهي به الأمر إلى أن يعيش في الجحيم؛ لأن من يحاول التحكم في كل جوانب الواقع هو إنسان إمبريالي يحاول أن يتألَّه، ولأن هذا مستحيل، فالواقع دائماً أكثر ثراءً من تصورنا له، فمثل هذا الإنسان يحكم على نفسه بالتعاسة والبؤس الشديدين.

ويضم الكتاب دراسة في التشابه بين الوجدان الأمريكي والوجدان الصهيوني، وأخرى في حياة الزعيم الأمريكي الأفريقي الحاج مالك الشباز (مالكوم)، كما يضم الكتاب دراسات مطولة عن حركة تحرير المرأة التي تنبأ الكاتب آنذاك أنها ستكتسب مركزية متزايدة في حياة الإنسان الغربي، وقد كتب المؤلف دراسة أخرى من خمس حلقات، في مجلة المصور بعنوان: (هكذا تموت الأحلام، هكذا تشتعل الحرائق)، تدور حول الحضارة الأمريكية ونُشرت عام ١٩٩٥م.

كما كتب المؤلف دراسة ثالثة في الحركة الأنثوية (Feminism) بعنوان: (ما بين حركة تحرير المرأة وحركة التمركز حول الأنثى: رؤية معرفية)، نُشرت في مجلة القاهرة عام١٩٩٧م، ويرى الدكتور المسيري أن فكر التمركز حول الأنثى فكر حلولي يسعى إلى إلغاء الثنائيات والاختلافات بين الجنسين وتهدف إلى تصعيد الصراع بينهما، وهو سيضم كل هذه الدراسات إلى جانب دراسته عن الأمركة وولت ويتمان ودراسات جديدة أخرى عن أدبيات الأزمة الأمريكية([2]).

الأيديولوجية الصهيونية: دراسة حالة في علم اجتماع المعرفة، الكويت ١٩٨١م، مجلدان، طبعة ثانية من مجلد واحد ١٩٨٨م، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

أول دراسة متكاملة باللغة العربية في الأيديولوجية الصهيونية، وهي تضم خلاصة ما توصَّل إليه الكاتب في دراساته السابقة، وتذهب هذه الدراسة إلى أن الأيديولوجية الصهيونية أيديولوجية عنصرية معادية لكل من العرب واليهود، وأنها نمط من الاستعمار الاستيطاني الإحلالي، والكتاب يضم عدة فصول

([1]) انظر: المرجع نفسه، ص٣٦٣-٣٦٤.

([2]) انظر: عبد الوهاب المسيري: رحلتي الفكرية، ص٤٢٧-٤٣٢. وقارن ماجاء فيما بعدها من الصفحات ٤٣٣-٤٤٠- حيث تحدث عن الفردوس الأرضي، عقد الزواج الشامل وبين العلاقة (العقد الصامت) بين الحضارة الغربية المتجسدة حالياً في الولايات المتحدة، وبين الحركة الصهيونية المتمثلة بدولة الكيان (إسرائيل).

من أهمها الفصول التي تتناول الخلفية الفكرية للصهيونية وعلاقتها بالنازية، كما يضم الكتاب ملحقاً مطولاً عن علم اجتماع المعرفة، يبيّن أهمية دراسة الأفكار وعلاقة الأفكار بالواقع الإنساني، ويذهب الكتاب إلى أن الأيديولوجية الصهيونية عنصرية معادية لكل من العرب واليهود، وأنها إحدى تجليات التشكيل الاستعماري الاستيطاني الغربي، يأخذ شكلاً إحلالياً، ويلاحظ أن البعد المعرفي قد أصبح أساسياً كما هو واضح في العنوان الفرعي للكتاب الذي كان يضم ملحقاً مستقلاً عن علم اجتماع المعرفة(1).

نهاية التاريخ:

مقدمة لدراسة بنية الفكر الصهيوني (القاهرة، ١٩٧٢م، بيروت، ١٩٧٩م)، مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية، الأهرام، القاهرة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، دراسة في فلسفة التاريخ الصهيوني، تذهب إلى أن الفلسفات الفاشية تحاول دائماً أن تضع نهاية للتاريخ (الزمان والمكان) وأن تبدأ من نقطة الصفر، وهذا ما يصنعه الصهاينة بالنسبة لكل من الفلسطينيين ويهود العالم، إذ تتحول فلسطين العربية إلى إرتس يسرائيل أو صهيون، أي: أرض بلا شعب، أما يهود العالم فهم أشخاص مقتلعون لا وطن لهم فهم (شعب بلا أرض).

ويتوقف تاريخ فلسطين (التي تنتظر أصحابها الأصليين، أي: اليهود)، كما يتوقف تاريخ يهود العالم، فهم يعيشون في المنفى يتوقون للعودة لوطنهم القومي الأصلي! وحين يضع الصهاينة نهاية للتاريخ فهم لا يختلفون كثيراً في هذا عن النازيين، الذين أوقفوا تاريخ كل العناصر التي قرروا أنها تعوق تطور الشعب العضوي (الفولك).

ومن أهم فصول هذا الكتاب الفصل الأول الذي يتناول قضية حلول الإله في التاريخ، ويظهر نموذج الحلولية باعتباره النموذج التحليلي الأساسي في كتابات الدكتور المسيري (الرأسمالية وفكرة العودة للطبيعة)، كتبها عام ١٩٥٦م، وتداولها أصدقاؤه من أعضاء اليسار الجديد في الولايات المتحدة، ثم ترجمها إلى العربية ونشرت عام ١٩٧٢م في مجلة الطليعة المصرية).

والحلولية هي إنكار المسافة بين الخالق والمخلوق بحيث يصبحان جوهراً واحداً، ومن ثم يستحيل التجاوز وتسود الحتميات وتُصفى الثنائيات وتصبح الظواهر ذات بُعد واحد، أي: تسود الواحدية (الروحية والمادية) بدلاً من الثنائية والجدل والتدافع(2).

---

(1) المسيري: المرجع نفسه، ص٥١٩.

(2) موقع المسيري: **http://www.elmessiri.com/index.php**-

أسرار العقل الصهيوني: (دار الحسام، القاهرة، ١٩٩٦م)([1]):

يدور هذا الكتاب حول قضية المنحنى الخاص للإدراك وعلاقته بالسلوك، وأثر كل هذا على التحليل السياسي بشكل عام، ورغم أن كل الأمثلة التي تناولها الكتاب مستمدة من عالم الجماعات اليهودية والصهيونية، مثل: الإدراك الإسرائيلي للعرب والدولة الفلسطينية والانتفاضة– الإدراك الغربي لليهود– حادثة دريفوس– تهمة الدم– حادثة دمشق، إلا أن الكتاب يحاول أن يبيِّن أن التعامل مع الحقائق الصلبة خارج السياق التاريخي، ودون دراسة البُعد الإدراكي والمعنى الداخلي تجعل هذه الحقائق بلا معنى، أو يجعل من الممكن فرض أي معنى عليها، فأهمية الكتاب المنهجية تفوق بمراحل مضمونه المباشر وسائر الأمثلة، اليهودية والصهيونية، التي وردت فيه، ويتألف الكتاب من مقدمة وأربعة فصول ويدور في مجمله حول قضية الإدراك وعلاقته بالسلوك، وأثر كل هذا على التحليل السياسي مستمدا ذلك من عالم الجماعات اليهودية والصهيونية([2]).

هجرة اليهود السوفييت: منهج في الرصد وتحليل المعلومات، (دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٠م).

ظهر هذا الكتاب أثناء الحديث عن جريمة العصر (أي هجرة اليهود السوفييت)، والهلع الذي صاحب ذلك الخوف من هذه الهجرة التي قيل لنا وقتها إنها ستكون هجرة بالملايين، وأنها ستحول الدولة الصهيونية إلى قوة عظمى.

وقد تحدت هذه الدراسة هذه الرؤية الاختزالية المتسرعة السطحية، فقدمت بدلاً من ذلك دراسة لهجرة اليهود السوفييت باعتبارها حركة جذب لإسرائيل وطرد من الاتحاد السوفيتي، وقد تعرضت الدراسة كذلك لعناصر الجذب إلى الاتحاد السوفيتي والطرد من إسرائيل، كما تناولت الدراسة تاريخ يهود روسيا وبولندا منذ القرن التاسع الميلادي حتى الوقت الحاضر، وأنواع الجماعات اليهودية في هذين البلدين وثقافتهم وتواريخهم (ومسائلهم) اليهودية المختلفة.

وقد تنبأت الدراسة بأن معدل المهاجرين الصهاينة من الاتحاد السوفيتي لن يزيد عن نصف مليون وأنهم سيسببون مشاكل اجتماعية عديدة في إسرائيل، من بينها تزايد الصراع بين المتدينين والسفارد من جهة، والعلمانيين والإشكناز من جهة أخرى، كما سيؤدي إلى تآكل النسيج المجتمعي في إسرائيل،

([1]) في هذا الكتاب يحاول المسيري أن يلقي الضوء على أعقد القضايا التي يواجهها المحللون السياسيون، قضية علاقة إدراك الإنسان للواقع المحيط به وبسلوكه، ومدى تأثير الإدراك (الوعي والأفكار والرموز) في السلوك الإنساني، وهي قضية لاتختلف كثيراً عن مشكلة الذاتية والموضوعية في العلوم الإنسانية والاجتماعية، بل والطبيعية.

– المسيري: أسرار العقل الصهيوني، ص٣.

([2]) انظر بتوسع كتاب: المسيري: أسرار العقل الصهيوني، ص٤٥ –٤٦. حيث قام المسيري بتلخيص نتائج دراسته للخريطة الإدراكية للعقل الصهيوني .

وتقدم الدراسة نفسها باعتبارها منهجاً للرصد وتحليل المعلومات، وليس مجرد دراسة في هجرة اليهود السوفييت، ولذا يؤكد المؤلف أهمية التوصل إلى النماذج المعرفية الكامنة وراء المعلومة وضرورة رؤية المعلومة باعتبارها جزءاً من نمط أكبر.

ويقص المسيري سبب تأليف هذا الكتاب فيقول: " في عام ١٩٨٩م دعاني الدكتور عصمت عبد المجيد– أمين عام الجامعة العربية – إلى مكتبه، وأطلعني على بعض المذكرات والتقارير السرية عن هجرة اليهود السوفيت،... فوجدت المذكرات مليئة بأنصاف الحقائق والمعلومات المعزولة عن أي سياق، والتي لا هدف لها سوى تضخيم العدو والتهويل من شأنه مما سيجعل الاستسلام أمراً منطقياً، فقررت أن أكتب تقريراً عن الموضوع للدكتور عصمت من وجهة نظري، وتحول التقرير إلى كتاب بينت فيه استحالة أن يهاجر ملايين اليهود السوفيت، كما ورد في الصحف الغربية والصحف العربية نقلاً عنها، وقد بينت أن الكتاب يقدم منهجاً في الرصد ورؤية للمعلومات مختلفة عما هو سائد، وطرحت فكرة النموذج التفسيري مقابل الرصد الموضوعي والتراكم المعلوماتي بشكل أكثر إسهاباً وتفصيلاً(١).

الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ: رؤية حضارية جديدة (دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٧م):

يتناول الكتاب الظاهرة النازية انطلاقاً من مستوى تحليلي حضاري معرفي، يتجاوز السرد التاريخي والمستوى السياسي، كما يتجاوز منطق مراكمة المعلومات والحقائق، ويستخدم منهج دراسة الظواهر التاريخية الحضارية من خلال النماذج التفسيرية.

يبدأ الكتاب بتعريف الإبادة وبعض المصطلحات الأساسية المرتبطة، بها ثم يتناول ظاهرة الإبادة في سياقها الحضاري والألماني، وبعض الإشكاليات السياسية والفلسفية التي تثيرها إبادة يهود أوروبا على يد النازي مثل إشكالية انفصال العلم عن القيمة، وتوظيف الإبادة واحتكارها وإنكارها، وإشكالية الحل النهائي وقضية عدد ضحايا الجريمة النازية وملاحقة مجرمي الحرب النازيين.

ويثير الكتاب واحدة من أهم القضايا الخلافية وهي قضية التعاون بين أعضاء الجماعات اليهودية (وخصوصاً الصهاينة) مع النازيين، ويتناول الكتاب كذلك المكانة التي تشغلها الإبادة النازية في الوجدان الفلسفي والأدبي الغربيين.

من هو اليهودي؟: (دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٧م، طبعة ثانية ١٩٩٨م):

يواجه المجتمع الصهيوني في فلسطين المحتلة منذ تأسيسه عام ١٩٤٨م قضية دينية اجتماعية أساسية، مركبة الأبعاد، متعددة المستويات، وهي قضية الهوية اليهودية وتعريف اليهودي، التي يُشار إليها في الخطاب السياسي والإعلامي، الإسرائيلي والغربي، بعبارة: من هو اليهودي؟، ويحاول هذا الكتاب أن يلقي الضوء عليها فيتناولها من منظور تاريخي واجتماعي وسياسي وديني.

---

(١) عبد الوهاب المسيري: رحلتي الفكرية، ص ٥٢٩.

يبدأ الكتاب بعرض تاريخي لظهور الهويات اليهودية المختلفة في أنحاء العالم، وهي هويات نابعة من الواقع الحضاري للمجتمعات التي يعيش أعضاء الجماعات اليهودية بين ظهرانيها، ثم يقدم الكتاب خريطة للهويات اليهودية في الوقت الحاضر، وضمن ذلك الهوية اليهودية الجديدة في المجتمعات الغربية الحديثة، والتعريف الديني الأرثوذكسي للهوية اليهودية.

ثم يعرض الكتاب بعد ذلك للأطروحات الصهيونية التي تنطلق من إدعاء ليس له ما يسانده في الواقع، وهو أن اليهود شعب واحد، وأن الصهيونية هي القومية اليهودية، ثم يبيِّن الكتاب كيف أن الواقع الإثني والعرْقي للمستوطنين الصهاينة في فلسطين المحتلة، ويهود العالم خارجها، يتحدى هذه الأطروحات ويبيِّن طبيعتها الاختزالية وكذبها وزيفها، وفي الطبعة الثانية من هذا الكتاب أضاف المؤلف فصلين: واحد عن الفروق بين المذاهب اليهودية المختلفة (اليهودية الإصلاحية والمحافظة من جهة، والأرثوذكسية من جهة أخرى)، وثان عن تطورات قضية من هو اليهودي عام ١٩٩٨م.

ومن هنا انطلق المسيري بمنهجيته المتميزة فتنقل بين صنوف العمل الأكاديمي والثقافي ثم السياسي، فبدأ حياته مدرسا بقسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب حيث تخرج، ثم باحثا في الأدب الإنجليزي الذي برع فيه وفي ترجمة مؤلفاته.

ومن مؤلفاته في الأدب الغربي (مختارات من الشعر الرومانتيكي الإنجليزي، النصوص الأساسية وبعض الدراسات التاريخية والنقدية)، (الفردوس الأرضي، دراسات وانطباعات عن الحضارة الأميركية)، (العالم من منظور غربي)، (العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة).

وفي منتصف السبعينات من القرن الماضي، كثف دراسته على الحركة الصهيونية تاريخاً وتحليلاً واستقراءً لمستقبلها ومستقبل العرب معها، ولعل أبرز إنجازاته في هذا المجال، (موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية) التي استغرقت منه زهاء ربع قرن وكلفته أموالا طائلة من ماله الخاص، ونشرت عام ١٩٩٩م، بعنوان: (موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، نموذج تفسيري جديد)، وصدرت في ثمانية مجلدات وخلال ثلاثين عاما، ألّف المسيري عشرات الكتب عن الموضوع اليهودي والصهيوني، منها: (نهاية التاريخ، مقدمة لدراسة بنية الفكر الصهيوني) ١٩٧٢م، و(موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية، رؤية نقدية ١٩٧٥م)، (الأيديولوجية الصهيونية، دراسة حالة في علم اجتماع المعرفة١٩٨١م)، وفي هذه الفترة صدرت له دراسات باللغة الإنجليزية، من أهمها كتاب (أرض الوعد، نقد الصهيونية السياسية ١٩٧٧م)، وتوج هذه الأعمال بموسوعته (اليهود واليهودية والصهيونية)، كما صدر له في ذلك الوقت وبعده، عدة كتب في نفس الموضوع من أهمها: (البروتوكولات واليهودية والصهيونية).

" ثم صدر كتاب الجمعيات السرية في العالم (١٩٩٣م)، وهو محاولة لتوظيف منهج دراسة الواقع من خلال نماذج لتخليص العقل العربي من الفكر التآمري الذي يسيطر عليه، وقد بينت أن الفكر التآمري الذي ينسب لليهود كل الشرور ويجعلهم مسئولين عن كل الجرائم والفتن، هو نتيجة استخدام نماذج اختزالية ويضم الكتاب دراسات عن البهائية والماسونية والبروتوكولات واللوبي الصهيوني تهدف إلى توضيح كثير من جوانب هذه الظواهر عن طريق دراستها من خلال النماذج المركبة"[١].

ويعد كتاب انهيار إسرائيل من الداخل دراسات متنوعة في الكيان الصهيوني تغطي الموضوعات الأساسية التالية: الديموجرافيا اليهودية، النبوءات الصهيونية، العنف الصهيوني، إعادة بناء الهيكل، ثم تتوجه الدراسة إلى قضية (انهيار إسرائيل من الداخل) وكيف أن عوامل الأزمة آخذة في التفاقم، ولكنها لن تؤدي إلى الانهيار؛ لأن مقومات حياة الكيان الصهيوني ليست من داخله، وإنما من خارجه، فهو لا يحقق لنفسه الاستمرار من خلال جهد المستوطنين الصهاينة، وإنما من خلال الدعم الأمريكي الغربي– السياسي والاقتصادي والعسكري المستمر، ولذا فلا بد من استمرار الجهاد ضد هذا العدو[٢].

وينبّه المسيري إلى خطورة الفكر التآمري الذي تمثل بكتاب (بروتوكولات حكماء صهيون) الذي ادّعى فيه واضعوه وجود زعامة يهودية عالمية تعمل سراً للتسلط على العالم، من خلال إيقاع الخلافات بين الشعوب المسيحية وانتشر هذا الكتاب– الذي يقال إن شرطة القيصر الروسي السرية كانت وراء إصداره في مراحله الأولى– بعد الحرب العالمية الأولى بشكل خاص، ثم حظي فيما بعد، لسبب ما بانتشار واسع في العالم العربي، وساهم كثيراً وربما أكثر من أي مطبوعة أخرى في إساءة فهم الصهيونية ومخططاتها نظراً للتلفيق الذي يستند إليه[٣].

وقد حاول المسيري مراراً أن يزيل اللبس عن الفهم الخاطئ الذي ينتج من جراء قراءة مثل هذا الكتاب فنبه لذلك وهو بصدد الحديث عن كتبه ومؤلفاته حيث قال: " طرحت قضية البروتوكولات فأوقفت كل نشاطاتي الفكرية لأصدر كتابا بعنوان: البروتوكولات واليهودية والصهيونية، وأبين في هذه الدراسة أن البروتوكولات وثيقة مزيفة، وذلك استناداً إلى بعض الحقائق التي نشرت عن أصولها ومن خلال تحليل النص من الداخل، وقد بينت في هذه الدراسة أن (الفكر البروتوكولي) التآمري فكر اختزالي، ليست له مقدرة تفسيرية ولا حتى تعبوية؛ لأن كره اليهود– الذي ينطلق منه هذا الخطاب– يصب في واقع الأمر في الخندق الصهيوني.

([١]) عبد الوهاب المسيري: رحلتي الفكرية، ص٥٣٠.

([٢]) المرجع نفسه، ص٥٣٣.

(٣) صبري جريس: تاريخ الصهيونية(١٨٦٢–١٩٤٨)، ١: ٤٨.

كما أننا بتصورنا نرى أن اليهود هم السبب فيما يلحق بنا من المصائب، نتجاهل الدعم الأمريكي الشامل المستمر للجيب الصهيوني، وهو الدعم الذي يضمن له الاستمرار والبقاء، إن الصهيونية هي في واقع الأمر دعوة لتخليص أوروبا من اليهود وتصديرهم إلى مكان خارجها؛ ليوظفوا لصالحها، وتبين الدراسة أن الجذور الحقيقية للصهيونية هو الاستعمار الغربي ومعاداة السامية، وتخلص الدراسة إلى أن ترويج البروتوكولات يبث روح الهزيمة ويقوض روح الجهاد، وأن الإصرار على أن اليهودية عبارة عن مجموعة من الصفات الثابتة التي يتوارثها اليهود جيلا بعد جيل يتنافى وتعاليم الإسلام التي تذهب إلى أن الرذيلة– مثل الاستقامة– مسألة اختيار وليست مسألة ميراث.الصهيونية والحضارة الغربية الحديثة([١]).

والرؤية الصهيونية للواقع، وأن تبين أن الصهيونية ليست مجرد انحراف عن الحضارة الغربية الحديثة، كما يحلو للبعض القول، وإنما هي إفراز عضوي لهذه الحضارة ولما نسميه بالحداثة الداروينية، أي الحداثة التي ترمي إلى تحويل العالم إلى مادة استعمالية توظف لصالح الأقوى، في مقابل الحداثة الإنسانية التي ترمي إلى تحقيق التوازن بين الذات والطبيعة والتي تطالب بتكاتف كل أبناء الجنس البشري؛ لإعمار الأرض لصالح البشرية جمعاء بما في ذلك الأجيال القادمة[٢].

وقد أردف هذا الكتاب بكتاب آخر فيه تفصيلات أكثر حول هذا الموضوع وهو كتاب:

اليد الخفية: دراسة في الحركات اليهودية الهدامة والسرية، (دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٨م).

يتناول هذا الكتاب ما يُسمَّى (العقلية التآمرية) التي تنظر إلى العالم من خلال النموذج الاختزالي ذي البُعد الواحد، ومن ثم تسقط في العنصرية التي تبسط الواقع وتجعل التعامل معه والتنبؤ به مسألة صعبة إن لم تكن مستحيلة، مقابل هذا تطرح هذه الدراسة ما يمكن تسميته بالنموذج التركيبي، وقد استخدم الكتاب عدة حالات للدراسة: البروتوكولات، التلمود، السحر، الماسونية، البهائية، الفرانكية، السبئية، الجاسوسية اليهودية، الجريمة اليهودية، اللوبي اليهودي والصهيوني، كما يتناول الكتاب إشكالية العبقرية اليهودية واللوبي اليهودي الصهيوني.

وهذا الكتاب يضم بعض المواد التي وردت في كتاب الجمعيات السرية في العالم، من إصدار دار الهلال، القاهرة ١٩٩٣م، بعد إعادة صياغتها وتطويرها والإضافة إليها، وتضم الدراسة الجديدة ملحقاً به دراسة تفصيلية عن النموذج الاختزالي والنموذج المركب، وعن المؤشر الاختزالي والمركب([٣]).

([1]) عبد الوهاب المسيري: رحلتي الفكرية، ص ٥٣٤.

([2]) المرجع نفسه، ص٥٣٥.

([3]) موقع المسيري على الويب: http://www.elmessiri.com/index.php

موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية وموقعها من أعمال المسيري:

هذه الموسوعة لها قصة وتاريخ، بل هي حياة المسيري وقمة عطائه للأمة العربية والإسلامية، فقد بدأ هذا العمل بصور مختصرة في البداية بعنوان: (موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية : رؤية نقدية، مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية، الأهرام القاهرة، ١٩٧٥م).

وهو بداية الجهد الموسوعي للمؤلف إذ اكتشف ما سماه (جيتوية المصطلح الصهيوني)، وهي أن كل المصطلحات بل المفردات التي ترد في الكتابات الصهيونية لها معنى محدود يختلف عن معناه في النصوص الأخرى، فالحزب السياسي في الكيان الصهيوني يختلف عن، الحزب السياسي في الدول غير الاستيطانية.

وهذه الموسوعة هي محاولة أولية لحصر هذه المصطلحات والمفردات وتحديد معناها واسترجاع البُعد العربي النقدي لها، وتقدم الموسوعة تعريفاً مستفيضاً لمعظم المصطلحات الصهيونية الشائعة حتى ذلك الوقت، ابتداءً بالصهيونية العمالية–على سبيل المثال– وانتهاءً بالكيبوتس([1]).

ويواصل المسيري قصته مع الموسوعة فيقول: " قررت أن أستمر في كتابة دراستي دون توقف لتعريف كل مصطلح؛ لأن مثل هذا التوقف يشتت القارئ ويضعف من تماسك النص، على أن ألحق بالدراسة مسرداً أوضح فيه ما غمض من مصطلحات وأعرف فيه بالأعلام"([2]).

ولكن مشروع المسرد تحول تدريجيا إلى كتيب معجمي مستقل، ترد فيه معاني المصطلحات وتعرف فيه الشخصيات بطريقة معجمية، ثم تحول مشروع الكتيب إلى معجم صغير، والمعجم الصغير إلى معجم كبير، والمعجم الكبير إلى موسوعة صغيرة (من جزء واحد) تهدف إلى توفير المعلومات العربية والغربية، المتاحة في ذلك الوقت للقارئ والباحث العربي حتى لا يضيعا وقتيهما وجهدهما في البحث عن المعلومات، وحتى يتفرغا للعملية البحثية الحقيقية، أي: عملية التفكيك والتركيب والتفسير والتقويم.

فقد اكتشفت المسيري بعد قليل من البحث والتعمق أن حقل الدراسات المعني باليهود واليهودية والصهيونية وإسرائيل ومصطلحاته، مشبع بالمفاهيم الأولية (القَبلية)، وأن عددا كبيرا من المفردات يكتسب دلالات خاصة تخرجها عن معناها المعجمي المألوف وتصبح مصطلحات ذات دلالات خاصة (مثل الشعب والأرض)، وأننا نترجم، ليس فقط حين نترجم، ولكننا نترجم حتى حين نؤلف، وذلك بسبب غياب الرؤية النقدية، كما اكتشف أن المعلومات، مهما بلغت من كثافة وذكاء وحذق، هي عملية لا نهاية لها، ولا جدوى من ورائها، فهي تشبه الرمال المتحركة، وهي لا تأتي بالمعرفة أو بالحكمة؛ لأنها محكومة بمقولات قبلية محددة تتم مراكمة المعلومات في إطارها.

([1]) موقع المسيري: المشار إليه سابقاً.

([2]) المسيري: رحلتي الفكرية، ص٥٣٨.

لذلك تحول مشروع الموسوعة من مشروع لكتابة موسوعة معلوماتية صغيرة عادية تعرف بالمصطلحات والإعلام (على الطريقة الشائعة والمعروفة)، إلى مشروع موسوعة تفكيكية شاملة، أي: موسوعة تحاول تفكيك المصطلحات، وتهدف إلى توضيح المفاهيم والتحيزات الكامنة وراءها، بدلا من تلخيصها والعرض لها، وقد كتب اقتراحا بالمشروع وتقدم به إلى مجلس الخبراء بمركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام، فرفض الاقتراح بحجة أنه لا توجد كوادر كافية لكتابة مثل هذه الموسوعة، فاقترح أن تكون الموسوعة هي الوسيلة لتوليد مثل هذه الكوادر وتدريبها ([١]).

ويذكر المسيري أنه قد أنفق من جيبه الخاص على هذا العمل ذي الأهمية القومية، خاصة بعد خروج الأستاذ هيكل من الأهرام، واستقالة الأستاذ حاتم من مركز الدراسات، إذ قامت إدارة المركز الجديدة بتضييق الخناق عليه، وتقليص حجم الخدمات المتاحة، كانت محدودة من البداية، وقد عرض الكثير من تلاميذه وطالباته وطلابه المساعدة المجانية والتطوع في هذا العمل، حيث أن إمكاناته المالية لم تكن تسمح باستئجار مثل هذا العدد الضخم من المساعدين، ثم مكثت في مصر إلى أن صدرت الموسوعة في مارس سنة ١٩٧٥م، ثم سافر ولحق بأسرته [٢].

ثم واصل جهوده وسارع بعملية تحديث موسوعة المفاهيم والمصطلحات التي تحتوي على مجلد واحد بمجهوداته الخاصة، برغم كل مؤشرات السلام الدائم الكاذبة، وقد ظن حسب تصوره ساعتها أن مسألة التحديث هذه ستستغرق عاما أو عامين على الأكثر وستكلفه عشرة آلاف جنيه فقط لا غير، ولاختصار المدة قرر التعاون مع مجموعة من الباحثين، وحينما كان يحرر بابا أسبوعيا بعنوان (إسرائيليات معاصرة) في جريدة الرياض، لاحظ أن انشغاله بالحدث اليومي بدأ يقوض من رؤيته البانورامية الموسوعية، التي تركز على الثوابت، والتي تتطلب إيقاعا بطيئا واهتماما بموضوعات تاريخية وفلسفية، مختلفة والربط بينهما، كما تتطلب منه الغوص في كل الأبعاد السياسية والاقتصادية والدينية والمعرفية للظاهرة، وإعادة ترتيب الوقائع وتصنيفها في ضوء النماذج التحليلية الجديدة.

وقد اكتشفت أنني لم أعد أفكك وحسب، وإنما بدأت بطرح مصطلحات ومقولات تحليلية بديلة، ويصوغ نماذج تفسيرية جديدة، أكتشف من خلالها حقائق مهمشة، (متناثرة في بطون المراجع المختلفة وقامت النماذج السائدة بتهميشها)، وبدأ يمنحها المركزية التفسيرية التي تستحقها، كما بدأت يسك مصطلحات جديدة، ويعيد تعريف بعض المصطلحات القائمة، كما يتفق وحقيقة الواقع الذي يرتئيه، لا الذي صاغته المراجع والمصطلحات الصهيونية، فإن الموسوعة لم تعد موسوعة معلوماتية تحاول توفير

([1]) عبد الوهاب: المسيري، رحلتي الفكرية، ص٥٣٨.

([2]) عبد الوهاب المسيري: المرجع نفسه، ص٥٣٩.

المعلومات للقارئ عن طريق ترجمتها، ومراكمتها من المراجع والصحف الأجنبية والعربية، ولا حتى موسوعة تفكيكية تحاول هدم النماذج القائمة.

وسمة الموسوعة أنها: تأسيسية تطرح نماذج تحليلية مترابطة، ومصطلحات بديلة، وبرنامجا بحثيا جديدا في الموضوعات اليهودية والصهيونية والإسرائيلية، أي: أنها تطرح بعض الأفكار، ولا تدعى أنها أفكار نهائية مغلقة، ولو ظلت الموسوعة موسوعة معلوماتية، لأصبح حجمها ضعف الحجم الحالي- ثمانية مجلدات – ولتم إنجازها في أقل من نصف الوقت الذي قضاه في كتابة الموسوعة الحالية، ولو كانت موسوعة تفكيكية وحسب لنشرت عام ١٩٨٤م أو ربما عام ١٩٨٥م بعد انتهاء الباحثين من كتابة مداخلهم بوقت قصير، لا سيما الذين قدموا إسهاماتهم في موعدها [١].

ثم ينبّه المسيري إلى نقطة هامة في حديثه وتناوله لقضايا الموسوعة فيقول: " وبنزوعي الدائم نحو الترميز تحولت الموسوعة في ذهني إلى معركة ضارية مع العنصرية والاستعمار، بل إنني كنت أؤكد دائما أن معركتي مع الصهيونية ليس لها علاقة كبيرة بالصراع العربي الإسرائيلي.فعدائي للصهيونية ينبع من عدائي لكل أيديولوجيات العنف والعنصرية (مثل النازية وأيديولوجية التفرقة اللونية في جنوب إفريقيا)، وأنه لو اختفت إسرائيل من على وجه الأرض أو تصالح معها كل العرب لظل عدائي للصهيونية كما هو (وهذا بطبيعة الحال مرتبط برؤيتي المعرفية التي تركز على الكلي والنهائي)[٢].

وقد كرّس بقية حياته الفكرية في الكتابة عن الظاهرة اليهودية والصهيونية، (الصهيونية كاستعمار استيطاني وكأيديولوجية لأعضاء الجماعات اليهودية، الهيجلية والحلولية ونهاية التاريخ، الاستهلاكية ومصير الإنسان، التحيزات المعرفية، والحاجة لمشروع حضاري مستقل، الحاجة إلى استخدام النماذج كأدوات تحليلية، اليهودية الحلولية).

وتحولت الأفكار المتناثرة إلى فكر متماسك، ثم أخذت شكل نموذج معرفي متكامل، جعل من العسير تناول بعض الظواهر من الناحية السياسية والبعض الآخر من الناحية المعرفية، ومن ثم أصبحت دراساته في الصهيونية واليهودية جزءا من الانشغال الفكري العام، ولم يعد من الممكن إنهاء الموسوعة في نفس الإطار الذي بدأتها داخله، ولعل من أهم الأمور التي يجب ذكرها في هذا السياق أنه في هذه الفترة (١٨٩٤- ١٩٨٥م) تحول الإسلام بالنسبة له من كونه مجرد عقيدة يؤمن بها، إلى رؤية للكون بأنه يمكن للإنسان أن يولد منها نماذج تحليلية ذات مقدرة تفسيرية عالية، كما يعطي إجابات عن الأسئلة النهائية، إذ أن الباحث الذي يريد أن يؤسس نسقا فكريا تحليليا جديدا لا ينقل معلومات وحسب، ولا حتى

---

(1) عبد الوهاب المسيري: رحلتي الفكرية، ص٥٤٥- ٥٤٦.

(٢) عبد الوهاب المسيري: المصدرنفسه، ص٥٤٧.

يحاول أن يربط بينها ويجرد منها، وإنما يقوم بعد ذلك بتطوير نماذج تفسيرية تعيد قراءة التاريخ والواقع في ضوئها، حيث أنها قراءة جديدة فإن عليه أن ينحت مصطلحات جديدة ([١]).

([١]) عبد الوهاب المسيري: رحلتي الفكرية، ص٥٤٨.

المبحث الثالث

جذور الصهيونية في تصور المسيري

الإرهاصات الأولى: حملات الفرنجة الصليبيين:

ثمة نزعة صهيونية داخل الحضارة الغربية تعبر عن نفسها بالوعود البلفورية، وهي الوعود التي ترى ضرورة الاستيلاء على فلسطين وتوطين مادة بشرية فائضة فيها، لتخليص الغرب منها وتوظيفها في موطنها الجديد، أي فلسطين، لصالح العالم الغربي، وإن حملات الفرنجة التي يقال لها: الحملات الصليبية تنتمي إلى نمط صهيوني كامن في الحضارة الغربية(١)، وهي (الحملات الصليبية) التي تعد من أهم الأحداث في التاريخ العربي، فهي مواجهة عسكرية بين العالم العربي والعالم الغربي خلال فترة العصور الوسطى، وقد اكتسب هذا الحدث أهمية خاصة بعد ظهور دولة إسرائيل، أدرك الكثيرون مدى التماثل بين تجربة الفرنجة وتجربة الصهاينة(٢).

وعمق التشابه بين المشروع الفرنجي الصليبي والمشروع الصهيوني الإسرائيلي، وهذا أمر متوقع؛ لأن لكليهما جزء من المواجهة المستمرة بين التشكيلتين الحضارتين السائدتين في الغرب والشرق العربي، كما إن حملات الفرنجة هي انطلاق أوروبا نحو التوسع والإصرار على بسط سيطرتهما على الخارج، والواقع أن حملات الفرنجة احتوت بذور كل أشكال الإمبريالية الأوروبية التي حكمت فيما بعد حياة جميع شعوب العالم، ولهذا أصبحت حملات الفرنجة صورة مجازية أساسية في الخطاب الاستعماري الغربي.

وقد رأى كثير من المدافعين عن المشروع الصهيوني من اليهود وغير اليهود أنه استمرار وإحياء للمشروع الصليبي، ومحاولة وضعه موضع التقييد من جديد في العصر الحديث، فقد ألف (سي آر. كوندر) عام ١٨٩٧م، وهو صهيوني غير يهودي، ومؤسس صندوق استكشاف فلسطين كتاباً عن تاريخ المملكة اللاتينية في القدس، أشار فيه إلى أن الإمبريالية الغربية نجحت فيما أخفقت فيه الحملات الصَّليبية، ويمكننا أن القول بأن المشروع الصهيوني هو نفسه المشروع الفرنجي بعد أن تمت علمنته، وبعد أن تم إحلال المادة البشرية اليهودية التي تم تحديثها وتطبيعها وتغريبها وعلمنتها محل المادة البشرية المسيحية (٣).

ويقارن بين الحملتين الصهيونية والصَّليبية قائلاً:" يلاحظ أن كلاً من ممالك الفرنجة والدولة الصهيونية، بسبب طبيعتها الإحلالية خلقت مشكلة اللاجئين، كما يلاحظ أن هؤلاء اللاجئين تحولوا إلى

---

(١) المسيري: تاريخ الفكر الصهيوني، ص١٨٢.

(٢) عبد الوهاب المسيري: دفاع عن الإنسان دراسات نظرية وتطبيقية في النماذج المركبة، دار الشروق، ط٢، ٢٠٠٦م، ص٢١١.

(٣) انظر: المسيري: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ٦/١٣١-١٣٢.

وقود جند سكان المنطقة ضد الدولة القلعة، وتطرح الدولة الصهيونية نفسها باعتبارها قاعدة للحضارة الغربية كلها في مواجهة العالم الإسلامي، ويشير أحد الدارسين الإسرائيليين إلى أنه كان هناك جباية فرنجية موحدة تماماً مثل الجباية اليهودية الموحدة ([1]).

وقد تركت حروب الفرنجة تأثيراً عميقاً في إدراك الوجدان الغربي لكلٍ من فلسطين والعرب، فأصبحت فلسطين الأرض المقدسة التي لا بد أن تسترجع ليوطن فيها عنصر مسيحي غربي، وأصبح العرب (أهل فلسطين) هم الغرباء الذين يجب اسبعادهم، وقد أصبحت هذه الصيغة هي الصيغة التي تمت علمنتها فيما بعد لتصبح الصهيونية([2]).

مركزية حملات الفرنجة في الوجدان الصهيوني- الإسرائيلي:

نظراً للتشابه بين المشروعين الفرنجي والصهيوني، ونظراً لأن كليهما اتخذ فلسطين ساحة لتنفيذ أحلامه، نجد أن الوجدان الصهيوني منشغل إلى أقصى حد بالمشروع الفرنجي، وخصوصاً أن الفرنجة قد رحلوا ولم يتركوا شيئاً خلفهم سوى بعض القلاع المخربة، ويحاول الدارسون الصهاينة أن ينظروا إلى مشروع الفرنجة من منظور ما يسمونه (التاريخ اليهودي)، وكأن حملات الفرنجة جردت بالدرجة الأولى ضد اليهود، وتتحدث الكتابات الصهيونية الإسرائيلية عن ضحايا حملات الفرنجة وكأنهم الضحايا الوحيدون، بل تدعي بعضها دوراً يهودياً مستقلاً في صد الفرنجة، وهو الأمر الذي يتنافى تماماً مع حقائق التاريخ([3]).

لقد شغلت الحروب الصليبية عدداً كبيراً من العلماء والباحثين في إسرائيل، حتى أصبحت الجامعة العبرية من أهم مراكز الأبحاث الصَّليبية في العالم، يستخرجون العبر من دراسة تلك التجربة التاريخية الحية لمجتمع أجنبي حل في البلاد المقدسة، واستقر فيها قرابة قرنين من الزمن([4])، والحركة الصَّليبية في جوهرها حركة استيطانية، وهي حلقة من حلقات الصراع بين الشرق والغرب... وهي حركة كبرى نبعت من الغرب الأوروبي المسيحي في العصور الوسطى، واتخذت شكل هجوم حربي استيطاني على بلاد المسلمين، وبخاصة في الشرق الأدنى بقصد امتلاكها.

وقد نبعت هذه الحركة عن الأوضاع الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والدينية التي سادت غرب أوروبا في القرن الحادي عشر، فالحركة الصَّليبية اعتمدت على المقولة الدينية لتثوير الغرب الأوروبي، وإثارة الدافع الديني لديه، وذلك من خلال خطبة بطرس الناسك، وتحريض البابا أوربان الثاني، حيث طرح هذا البابا في خطابه في (كليرمونت) بفرنسا أن هذه الحملة هي حجة تهدف إلى تحرير البلاد

([1]) المصدر نفسه، ١٣٢/٦.

([2]) المسيري: دفاع عن الإنسان، ص٢٢١. مصدر سبق ذكره.

([3]) المسيري، تاريخ الفكر الصهيوني، ص٢٠٤. مصدر سبق ذكره.

([4]) فوشيه الشارتري: تاريخ الحملة إلى القدس، ترجمة: زياد العسلي، ص٦، عمان، دار الشروق.

المقدسة من براثن الكفار، ذلك الجنس الخسيس الذي يعاني من الحقارة والانحطاط، وتستعبده الشياطين والعفاريت على أيدي جنود المسيح الذين يطيعون أوامر الله والكنيسة المقدسة.

وهكذا زحف الغربيون نحو البلاد المقدسة تحت شعار (إرادة الله)، كما بعثت الحركة الصهيونية من ركام التاريخ تعابير تفي بالغرض مثل أرض الميعاد، وشعب الله المختار، والعهد وصهيون ويهودا والسامرة وأورشليم، وبذلك تم تشييد الهيكل الدعائي للحركة الصهيونية، آخر الحملات الصَّليبية وأشدها دهاء، فهذه الحركة لا تزال في جوهرها حركة استيطانية مسلحة، قدمت من بلاد الغرب واستعمرت قطعة من بلاد الشرق، وأخضعت أهلها واستندت على قاعدتها في الغرب لتقديم الدعم بالرجال والأموال والعتاد.

ولكن تغيير الأديان وما تبعه من تغيير الرموز والشعارات، أدى إلى إغشاء الأبصار وتضليل العقول، فبدل من أن يستمر طرح التناقض بين الغرب المسيحي من جهة، والشرق المسلم العربي من جهة أخرى، عرض على أنه صراع بين اليهود والعرب ودعي بالقضية الفلسطينية([1]).

لقد اهتم اليهود اهتماماً كبيراً يفوق التصور بالحركة الصَّليبية، وبكل ما يتصل بها من دراسات، وذلك لما سكن في العقل الصهيوني من التشابه الصارخ بين التجربتين وبين المشروعين الاستعماريين (المشروع الصليبي و المشروع الصهيوني)، إذ أن القاسم المشترك بينهما هو الأب الداعم الأوروبي الذي رأى في وجود المشروع الصهيوني قضية كبرى لمصلحته الإستراتيجية في المنطقة، وللإحساس العميق لدى الدارسين الإسرائيليين بالمصير الذي لاقته الحملات الصَّليبية في هذه البلاد، والتجربة الصَّليبية هي النموذج التاريخي الحي الذي يمكن استقراؤه وتمحيصه للاستفادة من تجربته، ولتلافي أخطائه التي عجلت بإنهائه.

غير أنه لا يجوز بحث موضوع الدراسات الصهيونية للحركة، دون الإشارة إلى (يهوشع برافر) عميد الدراسات الصَّليبية، وهو المؤسس الأول لهذه الدراسات، وأصبحت هذه الدراسات تعرف فيما بعد بـ (السلفانيوت) في مقابل (Crusades) الكلمة الإنجليزية، وتميز دراسات برافر في أنه أول من نظر إلى الحركة الصَّليبية كحركة استيطانية كولونيالية، فكتب أبحاثاً رائدة في مشروع الدولة الجديدة، ومهد لتلاميذه الذين أصبحوا زملاءه فيما بعد سبل البحث في كيان الدولة ومؤسساتها، وطبيعة الحكم فيها والأسس التشريعية لهذا الحكم، ونظامها العسكري، وتطور مفهومها الأمني، وتأثير العوامل الجغرافية كالصحراء على الاعتبارات الإستراتيجية، وطبيعة علاقة الصَّليبيين بالسكان المحليين المدعوين بالأقليات من مسلمين ومسيحيين شرقيين ويهود، وبدو، وإسماعيلية، وموارنة، بكثير من التفصيل ودرسوا الحياة الفكرية والعقلية في تلك الفترة، وقد ركزوا أيضاً على الدراسات الإسلامية، إذ درسوا الوضع السياسي والاجتماعي المعاصر في المجتمع العربي– الإسلامي، والحياة العقلية والفكرية والأدب والأشعار والأمثال الدارجة في تلك الفترة، ثم بحثوا في فكرة الجهاد وفاعليتها في تحريض المسلمين على القتال.

([1]) انظر: زياد العسلي: مقدمة كتاب (تاريخ الحملة إلى القدس)، ص ١٣– ١٤، مصدر سبق ذكره.

كما درسوا طبيعة الحكم والعلاقات الطبقية والتجارية والزراعية، ومدى انعكاس هذه العوامل على الدولة الصَّليبية، وليس أدل على نشاط العلماء اليهود في هذا المجال أكثر من عضويتهم في (جمعية دراسة الصليبيات والشرق اللاتيني) ومركزها بريطانيا، إذ ينضم الآن لهذه الجمعية خمسة وعشرون عالماً وعالمة من اليهود في فلسطين من أصل ٢٣٧ من جميع أنحاء العالم، مقابل سبعة علماء عرب، والأبحاث الصهيونية في الصليبيات على كثرتها تكاد تنحصر في مملكة القدس اللاتينية ولا تتخطاها إلا في النادر لدراسة الإمارات الصَّليبية الأخرى في طرابلس وإنطاكية والرَّها.

وقد يعكس ذلك اهتمام الإسرائيليين عموماً بالتركيز على التاريخ غير العربي– الإسلامي لفلسطين، ولكن على أي حال لا يدل على اهتمام علمي مجرد بالوجود الصليبي في الشرق عامة، بل ينحصر ذلك في الكيان الذي قام في الأراضي المقدسة.

ويستاء الصهيونيون من مقارنة حركتهم بالحركة الصَّليبية لما تتضمنه تلك المقارنة عن الكيان الصهيوني كعنصر دخيل على الشرق سيلفظه كما لفظ الدولة الصَّليبية من قبل، ونعتقد أن تشريحهم للكيان الصليبي يستهدف استخلاص العبر من تمكنهم من تجنب ذلك المصير، ونرى أنهم نجحوا بالفعل في تفادي أخطاء الصَّليبيين في نواحٍ أساسية عدة، كاستعمال اليهود في الزراعة، وتأسيس الجامعات، وتشجيع العلم والفكر، وتهجير السكان الأصليين، وتشجيع الهجرة اليهودية بشتى الوسائل، والتمييز بين الأقليات، وتعميق العلاقات الصهيونية الدولية، والتدخل بشكل فعال في شؤون البلاد المجاورة، ولكنهم لم ينجحوا في نواح أخرى مثل التمسك بالعنصرية، وعدم الانصهار في الشرق، والاعتماد على المساعدات الخارجية، والفشل في اجتذاب عدد أكبر من المهاجرين من البلاد الغربية.

أما التشابه الأساسي بين التجربتين هو التشابه الاجتماعي الإنساني، وأوجه الشبه بين هاتين الدولتين صارخة، إذ أن كلاً منهما حركة بنيت على الدين، مسلحة عدوانية استيطانية غريبة المصدر فلسطينية المستقر، عنصرية غير انصهارية، اعتمدت على الدعم الغربي مالياً وعسكرياً ودعائياً واجتماعياً، ثم إن كلاً منهما نشأت في فترة انقسام وشرذمة الشرق.

أوجه الاختلاف بين الحركة الصَّليبية والصهيونية:

الحركة الصَّليبية نشأت في فترة تكافؤ القوى بين المشرق الإسلامي والغرب المسيحي من حيث القوى السياسية، والاقتصادية والعلمية فلم يكن انتصار الصليبيين تعبيراً حقيقياً عن موازين القوى، فقد كانت الجيوش العربية الإسلامية، وموارد المنطقة الاقتصادية والبشرية تكفل هزيمة ساحقة إذا ما جمعتها جهة موحدة، وهو ما حدث بالفعل بعد ذلك، ولكن التشرذم العربي، بل ومساندة بعض المسلمين للجيوش الصليبية وميراث الحقد والشك والضغائن بين حكام المنطقة جعل انتصار الصليبيين أمراً منطقياً([١]).

([١]) قاسم عبده قاسم: رؤية إسرائيل للحروب الصليبية، دار الموقف العربي، القاهرة، ١٩٨٣ م، ص١٩٩–٢٠٠.

أما الحركة الصهيونية فنشأت في فترة تفوق فاضح للغرب على الشرق في جميع المجالات وبالأخص الجانب العسكري، مما أدّى إلى استيراد الأسلحة من الغرب الأوروبي والأمريكي، ومن ثم حوصر المشرق وافتقد استقلاليته الفكرية وافتقد قراره السياسي والعسكري، حيث أن قراراته كانت تتلاءم مع ظروف توفر الأسلحة اللازمة، فيما انخرط المجتمع الصهيوني علمياً وثقافياً وعسكرياً، فأصبح أكثر مقدرة على إنتاج الأسلحة المتطورة.

الموقف اليهودي من الحروب الصليبية:

إن الموقف اليهودي من الحركة الصليبية نابع من إدراكهم للحقيقة الوظيفية الحضارية للتاريخ كعلم، فهم يدرسون تاريخ الحركة الصليبية مع التركيز على الوجود اللاتيني فوق أرض فلسطين، وطبيعة علاقات الصليبيين بشعوب المنطقة وعوامل النجاح التي حققت لهم الانتصارات الأولية، ثم عوامل الفشل والإخفاق التي أدت إلى رحيل الصليبيين من المنطقة العربية ونهاية دولتهم، حيث إن هناك كثيراً من أوجه التشابه بينهما (الصليبيين والإسرائيليين)، فكلتا الحركتين استعماريتين استيطانيتين، تسربلتا برداء الدين، وارتكزت على مفهوم الخلاص.

وكل من مملكة بيت المقدس اللاتينية وإسرائيل كيان غريب، يضم مجموعات بشرية متفاوتة الثقافات والدرجات الحضارية، زرع في أرض عربية اللسان، إسلامية الثقافة، مشرقية السمات، كما إن الصليبيين والصهاينة يشتركون في الاعتماد في كلتا الحالتين، فضلاً عن جوانب أخرى تشابه فيها الصليبيون والإسرائيليون، منها الطابع العسكري للمجتمع وتوظيف كافة موارد هذا المجتمع من أجل الحرب، ومنها العنصرية التي تختفي خلف ستار الدين، هذا التشابه هو الذي يغري الكثيرين من الدارسين اليهود بدراسة تاريخ الحركة الصليبية، وتسخير نتائج دراساتهم في دارسة مستقبل الكيان الصهيوني.

والباحثون الإسرائيليون يولون الصليبيات عناية فائقة، يرون فيها الحركة الرائدة والتجربة السالفة، فالغزو الصهيوني يشبه في غزوه واحتلاله الغزو الصليبي، يهتمون بالمشكلات التي واجهت الصليبيات مثل الأمن، الاستيطان، العمائر والمستوطنات الحربية، نقص في الطاقات البشرية، يدرسون الموقف في الشرق العربي الإسلامي، وهناك فرق عمل كاملة في الجامعات العبرية تخصصت في دراسة الحروب الصليبية، يهوشع بروار، ميرون بنفينستي، بنيامين أريل، آرييه جرابوس، يأئيل كاتزير، والقائمة طويلة.

إنهم يكتبون بالعبرية والإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية والروسية، ويتابعون ما يُنشر عن الصليبيات في العالم أجمع، ويشاركون في الجمعيات العلمية المهتمة بدراسة الصليبيات مثل جمعية دراسة الحروب الصليبية والشرق اللاتيني بإنجلترا، الصليبيات في حد ذاتها لا تهمهم، وإنما يهتمون بها باعتبارها نقلة بين الحركة الصهيونية والمستقبل، إسقاط التاريخ على الواقع المستقبلي، درسوا القلاع الصليبية ونظم التحصين الصليبي في مرتفعات الجولان، حللوا رحلات الحجاج والتغير في الرؤية للأرض المقدسة، درسوا الجغرافيا التاريخية لفلسطين إبان الحروب الصليبية، وتاريخ اليهود والأحياء اليهودية والاستيطان

الصليبي، والإقطاع وقوانين الإدارة والتجارة والحدود، والسقوط المفاجئ لمملكة بيت المقدس وطرد آخر بقايا الصليبيين غداة سقوط عكا، هذه المسألة في الماضي، وممتدة في المستقبل .

والإسرائيليون يتحسسون في الصليبيات مصير الغد الصليبيات والصهيونيات كأنهما فلقتان أخرجتا من بذرة واحدة، كان النصف الأول من البذرة في القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي، والنصف الآخر من القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي، المكان واحد هو فلسطين، الغزوة الصليبية والغزوة الصهيونية نتاج مشاكل أوروبية داخلية خالصة، اجتماعية واقتصادية... إلخ[1].

الحروب الصليبية في العقل الصهيوني:

تستخدم الحركة الصهيونية التاريخ بمختلف مناهجه لدراسة ظاهرة الحروب الصليبية أو (تاريخ مملكة القدس اللاتينية) كما يحلو لمؤرخيهم تسميتها، حيث إن هناك مؤسسات علمية بحثية تقوم بتنظيم فرق بحث لدراسة تاريخ الحملات الصليبية لتستخلص منها العبر.

ومن خلال استخلاص لتلك العبر تقوم بالكشف والتنقيب عن النموذج المماثل لها في التاريخ حيث يتم الكشف عن أوجه التشابه بين التجربتين، حيث التمزق والتشرذم الذي تعاني منه الأمة آنذاك، وتعاني منه اليوم، وبنفس الصورة بل أكبر وبشكل مكثف جداً وأبشع، على الرغم من أن انتصار الصليبيين آنذاك لم يكن تعبيراً حقيقياً عن موازين القوى، فقد كانت الجيوش العربية، وموارد المنطقة والبشرية تكفل هزيمة ساحقة إذا ما جمعتها جهة موحدة، وهو ما حدث بالفعل بعد ذلك، ولكن التشرذم العربي، بل ومساندة بعض المسلمين للجيوش الصليبية، وميراث الحقد والشك والضغائن بين حكام المنطقة جعل انتصار الصليبيين أمراً منطقياً[2].

وهذا من أهم عوامل انشغال الوعي الصهيوني بهذه الحروب وبتلك الحملات، حيث أخذت حيزاً مهماً من انشغال العاملين في الأبحاث الاستشراقية والصراعية، فتتم دراسة الوقائع والتطورات والعبر ذات الصلة بالحملات الصليبية ومواجهتها، ودراسة الظروف العربية التي سبقت وسادت القرنين الثاني عشر والثالث عشر، والوقوف ملياً عند معركة حطين سنة ١١٨٧م، مقدماتها ومجرياتها نتائجها والدروس المستخلصة منها مع محاولة صهيونية مكشوفة لتزوير التاريخ بجانب أو بآخر مما يتصل بالفترة المدروسة[3]، لقد أعدت الحركة الصهيونية العدة الكاملة لدراسة الظاهرة الصليبية، فهناك المؤسسات والجامعات والمعاهد والباحثين . ويتضح لنا ذلك حينما نعرف أن اليهود من أنشط المستشرقين والباحثين.

---

(١) انظر: محمد عيسى صالحية: الصليبيات والصهيونيات، مقالة في مجلة العربي، عدد ٤٨٩، مايو ٢٠٠٠م، (محرم ١٤٢١ هـ)، ص(١١٥-١٧٧) بتصرف.

(٢) رؤية إسرائيلية للحروب الصليبية، ص١٩٩-٢٠٠.

(٣) إبراهيم عبد الكريم: الإستشراق وأبحاث الصراع لدى إسرائيل، دار الجليل، عمان، ١٩٩٣م، ص٢٢٦.

رصد المستشرقين اليهود للمصادر التي كتبت في عصر الحروب الصليبية:

المستشرقون اليهود ليسوا بدعاً في ذلك، حيث إنهم يحاكون الاستشراق الغربي بجميع مناهجه ومؤسساته التي تأسست من أجل المعرفة ومن ثم السيطرة، معرفة هذا الشرق للسيطرة عليه وعلى خيراته، حيث أنهم أخضعوا الشرق أو بلاد المشرق العربي للدراسة وجعلوا منها حقلاً غنياً لدراساتهم، والمستشرقون الأوروبيون هم الرواد في الدراسة والبحث والتحليل واستخلاص العبر من خلال دراساتهم عن الحروب الصليبية أو ما يعرف بالصليبيات (CRUSDES) إلا أن الفارق بينهم وبين الاستشراق اليهودي هو أنه ليس قلقاً على مصيره كما هو الحال في إسرائيل.

على أن بعض هؤلاء المستشرقين اليهود هم تلامذة للمؤسسات الاستشراقية الأوروبية، لذلك يقوم الاستشراق بجميع طواقمه ومؤسساته بمختلف اهتماماتها لدراسة ورصد المصادر العربية والإسلامية التي ألفت وكتبت قبل وبعد الفتح الصلاحي وأثناء الحروب الصليبية– حروب الفرنجة.

وقد قامت الجامعة العبرية في القدس والمكتبة الوطنية بتوفير جميع تلك الدراسات والمؤلفات للباحثين والدارسين، ولا بدع في ذلك فمكتبة الجامعة العبرية من المكتبات الهامة جداً والعريقة، وفيها من الكتب ما لا يوجد في غيرها حيث تجاوزت محتوياتها من الكتب العربية المليوني كتاب عدا عن الكتب باللغات الأخرى، وفيها من المخطوطات العربية الكثير، وبالذات ما تم الاستيلاء عليه من خزائنها الأصلية، ودور أصحابها التي صودرت أثناء النكبة عام ١٩٤٨م، أيضاً يوجد فيها معظم المخطوطات العربية الهامة على المصغرات الفيلمية (ميكروفيلم وميكروفيش)، وهناك أرشيف لدورٍ تحتفظ بمئات الألوف من الوثائق، فلا عجب حينما يتصدون لدراسة تلك الحقبة وتلك الفترة.

وقد بيّن المؤرخ شاكر مصطفى في محاضرة قيمة له بعنوان (الإسلام والصليبيات) وهي بمثابة عرض وتعليق لكتاب المستشرق اليهودي عمانويل سيفان، حيث نبه الدكتور شاكر مصطفى إلى أن اهتمامات المستشرقين اليهود منحصرة في نقطة وحيدة حسب قوله هي (كيف تم طرد الصليبيين من هذه البقاع نفسها التي يحتلونها)، لهذا لا يهمهم بحث ما قتله الغربيون بحثاً، ولكن تهمهم الرمال المتحركة تحت الغزاة في فلسطين وحول فلسطين، إنهم يدرسون معنى الجهاد وكيف استيقظ في المشرق العربي ومدى حيوية الشام بالذات، وتأثير فكرة الجهاد قبل الصليبيات وخلالها وبعدها، يحللون مدى قدسية القدس وعناصرها في نفوس المسلمين، وردود فعلهم ضد الاحتلال الغريب، ويبحثون عن جذور الترابط في المنطقة من مصر إلى العراق، عن أسباب توحدها في حطين وما بعدها.

ويضيف مصطفى قائلاً:" ولاحقت نصوص التراث التي تتداولها المجموعة الصهيونية بالدارسة، فإذا التراث الذي نتصور أنه نائم في دمائنا وفي أدراجنا هو لديهم كيان كامل على المشرحة، يستنطقونه ويحكمون علينا من خلاله، يدرسون خطب الجهاد منذ عهد الفتوح مروراً بالحمدانيين حتى العهد المملوكي، وكل الكتب التي ألفت في الجهاد أو كتبت عنه، وبخاصة كتاب الجهاد الذي ألفه علي بن طاهر السلمي النحوي (المتوفى عام ٤٩٨هـ)، والذي كان يدرسه في الجامع الأموي في ١٢ جزءاً، إثر

الاحتلال الصليبي للقدس مباشرة، وقد صور اليهود هذا الكتاب من المكتبة الظاهرية بدمشق، ونشروا بعضه سنة ١٩٦٦م، ويدرسون كذلك أحكام الجهاد وفضائله لعز الدين السلمي، وكتاب الجهاد الذي وضعه القاضي (بهاء الدين بن شداد) لصلاح الدين الأيوبي، ضمن كتابه (دلائل الأحكام)، فكان كتاب المخدة عنده لا يفارقه، وبين ما يدرس الصهيونيون من الكتب التي تتحدث في فضائل الشام والقدس، ومقارنتها بمكة والمدينة (وتصل إلى خمسة وثلاثين كتاباً).

وأشار شاكر مصطفى أيضاً إلى اهتمامات الإسرائيليين حتى بالشعراء الذين عاصروا الحروب الصليبية، ممن عاشوا الفترة الصليبية، كما يدرسون كتاب الفقه والفتاوى، وبخاصة تلك التي أصدرها العلماء (كالإمام النووي) و(كتاب المغني لابن قدامة)، ويدرسون السير الشعبية ويرونها منجم المشاعر العميقة للجموع المقاتلة، مثل سيرة الأميرة ذات الهمة، وسيرة عنترة وفتوح الشام للواقدي، وفتوح الشام الأخرى للأزدي، وقصة علي نور الدين المصري مع مريم الزنارية، ويصلون حتى تحليل النكات والنوادر.

هكذا يقوم المستشرقون الإسرائيليون بتحري الأسباب التي تدفع الباحثين والمستشرقين الصهاينة إلى التوغل في أعماق غابات الكتب الصفراء قراءة، تحقيقاً واستخلاصاً؛ وذلك لأن في التراث العربي قرائن وأدلة ثابتة على ما كان سائداً في الفترة التي تنتمي إليها هذه المؤلفات، لذلك فالدراسات التي يقوم بها المستشرقون الإسرائيليون للنتاجات الفكرية والثقافية التي ظهرت إبان الحقبة الصليبية وقبلها، تسعى إلى وضع اليد على التغيرات الكمية التي قادت إلى التغيرات النوعية في تاريخ المنطقة مع معركة حطين وغيرها، ووضع اليد كذلك على السياق العام الذي جاء فيه صلاح الدين الأيوبي، والتراث العربي إذ يعكس بأمانة هذا المعطي، فإنه يقدم في الوقت ذاته مؤشراً على ضرورة التحسب لاحتمالات تكرار ظاهرة الانتصار العربي الساحق عل الغزو الأجنبي مستقبلاً، لذلك فمعركة حطين تشكل كابوساً يجثم على الإسرائيليين.

الفصل الثالث

نموذج الحلولية الكمونية الواحدية وتشكّل العلمانية الشاملة

المبحث الأول: النموذج كإطار نظري ومنهجية للبحث عند المسيري.

- **النموذج التفسيري.**
- **أبعاد النموذج التفسيري.**
- **سمات النموذج التفسيري.**
- **هواجس الأيقنة، هاجس الاختزال وهموم التطوير.**

المبحث الثاني: وظيفة النموذج لدى المسيري.

- **نموذج الحلولية الكمونية.**
- **مفهوم الحلولية عند المسيري.**
- **الحلولية اليهودية.**
- **الحركة الصهيونية أيديولوجية حلولية وثنية.**
- **العلاقة بين الحسيدية والصهيونية.**
- **نقد مفهوم المسيري للحلولية.**

المبحث الثالث: نموذج العلمانية الشاملة وعلاقته بنموذج الحلولية الكمونية.

- **المبحث الأول:**
- **تعريف العلمانية.**
- **المبحث الثاني: أقسام العلمانية.**
- **العلمانية الشاملة.**
- **العلمانية الجزئية.**
- **العلمانية والنازية.**
- **المبحث الثالث: علاقة العلمانية بالفلسفة الداروينية.**
- **الصهيونية والتفرقة العنصرية.**

المبحث الأول

النموذج كإطار نظري ومنهجية للبحث عند المسيري([1]):

يطرح المسيري مفهوم النموذج باعتباره تجريداً للواقع، يؤدي إلى إعادة ترتيب تفاصيل الظاهرة في نسق متماسك ذي قدرة تفسيرية([2]) فهو صورة عقلية، ونسق فكري ونمط تصوري وبنية عقلية مجردة، حتى يتسنى للعقل الإنساني الوصول إلى جوانب منها.

ويؤدي النموذج الذي يطرحه المسيري إلى افتراض أنه يتضمن مستويين متمايزين، في المستوى الأول يتحدد النموذج كنظرية علمية يفترضها الباحث لتفسير ظاهرة طبيعية وكيفية عملها، وعلى هذا الأساس فالنماذج كالنظريات فيما بينها، والنموذج قد يكون بسيطاً أو اختزالياً تفكيكياً أو تركيبياً، وهو يتفاوت من حيث درجة العمومية والخصوصية.

أما المستوى الثاني لمفهوم النموذج وهو ما يمثل الإسهام الرئيسي الذي يقدمه هذا المفهوم للنظرية في العلوم الاجتماعية، فيتحدد النموذج فيه كإطار مرجعي أو كمنظور للنظرية في العلوم الاجتماعية، إلا أنها تتميز في موسوعة المسيري بأساسها الفلسفي وتطبيقاتها التي تتفاوت عموميةً وتخصيصاً، ففلسفياً تقوم هذه الرؤية على أساس رفض النظرية الواحدية المادية، وتطبيقاً لهذا المفهوم، قدم المسيري ثلاثة نماذج أساسية: الحلولية العلمانية، العلمانية الشاملة، الجماعات الوظيفية، حيث لم يعد اليهود مفهوماً مطلقاً بل جماعات تعيش في سياقات ثقافية واجتماعية، مما يؤدي إلى فهم أكثر تركيباً لليهود واليهودية، يتجاوز مرحلة التفسيرات الأحادية([3]).

([1]) النموذج المعرفي عند المسيري هو(بنية فكرية تصورية).

- انظر: عبد الوهاب المسيري: الموسوعة ١/١٠٧.

والملاحظ أن نموذج المسيري هو نموذج توليدي لا تراكمي، نابع من التراث وغير مادي يطمح للوصول إلى نظرية شاملة وكلية، وقد اتسمت نماذج المسيري بأنها: أعادت الوحدة والإرتباط بين عدد من الظواهر التي كانت تبدو من قبل منفصلة تمام الإنفصال، وهذا ما يتح لنا من خلال النماذج الثلاثة التي سيدور البحث عنها في الفصول التالية.

([2]) غالباً ما نجد المسيري يتمسك بهذا المصطلح، حتى جعله ميزاناً لجدوى المنهج الذي أقام نماذجه عليه، وهو مدى تجاوب النموذج لديه في استيعاب عملية التفسير فتجد هذا المصطلح أقل تفسيرية وأكثر تفسيرية حاضراً باستمرار في مواضع كثيرة من موسوعته، وفي جميع كتبه الأخرى، ويقرر المسيري هذا المصطلح بقوله: " إن معيارنا لا ينبغي أن يكون الدقة أو كم المعلومات أو مدى مطابقة معلوماتنا للواقع، وإنما في المقدرة التفسيرية للمصطلح فإن كان المصطلح قادراً على تفسير الواقع بتبايناته وتشابكاته فهو أكثر تفسيرية"، (وهي عبارة تحل محل مصطلح ذاتي) وعلى ذلك فإن التفسيرية تتمرد على الموضوعية المتلقية والذاتية المغلقة.

- عبد الوهاب المسيري : دفاع عن الإنسان، دار الشروق، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٦م، ص٢٨٩.

([3]) استخدم المسيري النموذج المعرفي التحليلي المركب الذي يبتعد عن الاختزالية والتفسيرات أحادية البعد، واستخدم أيضاً النموذج المركب في معظم دراساته الأخرى، والنموذج المعرفي التحليلي المركب الذي ابتدعه المسيري يحاول من خلاله أن يتناول الظواهر اليهودية والصهيونية في أبعدها السياسية والاقتصادية والحضارية والمعرفية، وهو نموذج على مستوى معقول من العمومية والخصوصية، يرمي إلى وضع اليهود واليهودية والصهيونية ضمن حالة محددة، في سياق إنساني عالمي مقارن = يضم

النموذج التفسيري:

يعرف المسيري النموذج التفسيري قائلاً: "عندما يتجه الإنسان إلى ظاهرة ما مستهدفاً تفسيرها، فإنه يقوم بعدة خطوات حتى يصل إلى هذا التفسير، وحينما يرى الإنسان ظاهرة ما، فعليه التعامل مع عدد كبير من العلاقات والتفاصيل والحقائق والوقائع، وعندئذ يقوم العقل باستبعاد بعضها؛ لأنه يعتقد أنها لا دلالة لها (من وجهة نظره)، ويستبقي البعض الآخر- وهذا هو التجريد-"([1]).

وتأتي بعد ذلك خطوة الربط بين العلاقات والوقائع والحقائق التي أبقاها فينسقها تنسيقاً خاصاً، بحيث تصبح حسب تصوره مماثلة للواقع، أي: أن تكون قادرة على تقديم صورة معبرة بشكل صحيح عن الواقع، وما ينتج عن عملية التجريد وتصور العلاقات بين عناصر الظاهرة يسمى (النموذج) فهو بناء يماثل الواقع لكنه افتراضي، أي: متخيل ومع هذا تشبه العلاقات بين عناصره العلاقات الموجودة بين عناصر الواقع، ففي إطار الموسوعة استخدم المنهج للحاجة إلى تفسير تاريخ الجماعات اليهودية، وبالتالي تفسير الواقع الراهن للدولة الصهيونية الاستيطانية ليصبح نموذجاً للتفسير الحضاري الغربي، فهي تعتبر محاولة لدراسة الظاهرة الإنسانية والتاريخية والحضارية، ولا يتأتى إلا من خلال فهم الظاهرة من داخلها أي فهم التركيب الداخلي لها، وهذا المنهج يساعد على الفصل بين المعرفة والموقف السياسي.

واتّبع المسيري في الخروج عن التصورات العنصرية اليهودية والتصورات العنصرية المعادية لليهود، فلم تسيطر على الموسوعة الصورة النمطية عن اليهود، وإنما النموذج التفسيري للحالة اليهودية من الداخل فتأتي المعرفة متسعة مع الواقع المعاش.

ورغم الارتباط بين النموذج التفسيري والظاهرة محل الدراسة إلا أنه لم يجعل هذا الارتباط قيداً على التعميم، ولهذا نجد النموذج التفسيري الذي تقدمه الموسوعة يتوسع لكشف النماذج التفسيرية المعرفية الأخرى، ثم كشف الترابط و العلاقات بين هذه النماذج، فالنموذج المعرفي لدى المسيري هو تصور نابع من الظاهرة ليفسرها، ثم تتعدد النماذج المعرفية والتي يمكن إعادة تنظيمها في أطر عامة.

ونرى قدرة النموذج المعرفي، على تفسير الحالة اليهودية والتاريخ الحضاري الغربي، فالنموذج ليس إطاراً للعلاقات السببية، أو تجريبياً صارماً، بل استطاع أن يقدم النموذج كإطار يحتوي المعلومات

كل البشر ويدرك إنسانيتنا المشتركة، ويحاول النموذج التحليلي في الوقت نفسه ألا يهمل الملامح الفريدة والمنحنى الخاص للظواهر اليهودية والصهيونية ضمن المجال الرحب للعلوم الإنسانية.

- انظر: المسيري: دفاع عن الإنسان، ص ٣٤٠.

([1]) ويعرّف المسيري النموذج في موضع آخر فيقول: النموذج هو بنية تصورية يجردها العقل من كم هائل من العلاقات والتفاصيل والوقائع والأحداث، فيستبعد بعضها لعدم دلالتها (من وجهة صاحب النموذج) ويستبقي البعض الآخر، ثم يرتبها ترتيباً خاصاً وينسقها تنسيقاً خاصاً بحيث تصبح- من وجهة نظره- مترابطة بشكل يماثل العلاقات الموجودة بالفعل بين عناصر الواقع، وعملية التجريد هذه يمكن أن تأخذ شكل خريطة إدراكية يستنبطها الإنسان تماماً ويحملها في عقله ووجدانه، فتحدد طريقة ومجال للواقع الخام المحيط به فيقوم بتهميش بعض التفاصيل، وتأكيد البعض الآخر بحيث يراها هامة ومركزية.

- المسيري: دفاع عن الإنسان، ص٢٩٨.

وينظمها، وحتى ندرك النموذج التفسيري، يمكن أن نتتبع أسلوب المسيري في تشكيل النموذج المعرفي حيث نجده يحدد مفاهيم كل مفهوم يصف جانباً من الظاهرة فيصبح اسماً لها، ثم يقيم العلاقة بين مفهوم وآخر من خلال حالة التقابل واللقاء الواقعي بين المفهومين، أي: من خلال حالة الترابط الظرفي، وبالنظر التاريخي يتحول المفهوم إلى تاريخ معرفي فتصبح حالات عبر الزمن ومنها يكتسب المفهوم بعداً تاريخياً يجعله مماثلاً لتاريخ الظاهرة، والعلاقة التفاعلية بين النموذج المعرفي التفسيري([١]).

والظاهرة موضع الدراسة، هي التي كونت منهج النظر من الداخل حتى يصبح النموذج المتعدد الأبعاد إطاراً يسمح بتحديد الخصائص الداخلية للظاهرة على هذه الأبعاد المتعددة، مما يساهم في تصنيف الظاهرة على محك منها.

أبعاد النموذج التفسيري([٢]):

يقدم المسيري نموذجاً معرفياً لفهم الظاهرة أو الظواهر اليهودية يقوم على بناء ثلاثي الأبعاد: العلمانية الشاملة، الحلولية الكمونية، والجماعات الوظيفية، ومن هذه الأبعاد الثلاثة يمكن أن نفهم النموذج ونقيم حالة التفاعل معه.

أما عن البعد الأول والمتمثل في مفهوم العلمانية الشاملة، فإن المسيري يرى أن الحضارة الغربية المعاصرة ترتكز حول مفهوم العلمانية، والتمركز حول الدنيا كقيمة مادية مستقلة، تدور حولها الحياة وإعطاء قيمة للمادة في حد ذاتها، مما يؤدي إلى النظر للحياة والعالم من خلال قيمة المادة، ويتكامل مفهوم العلمانية من حيث التحول التاريخي لها عبر مراحل متتالية، يتحول فيها مركز القيمة من الدين إلى الإنسان، فيصبح العقل الإنساني هو مركز الكون القيمة فيتم تنحية الدين عن الحياة والسلوك والقيم.

وإلى جانب مفهوم العلمانية الشاملة يقدم المسيري مفهوم الحلولية الكمونية ويعرفها على أنها: المذهب القائل بأن كل ما في الكون (الإله والإنسان والطبيعة)([٣]) مكون من جوهر واحد، ومن ثم ينكر

([١]) أسَّسَ المسيري لرؤية موضوعية اجتهادية وبناء نموذج تحليليّ معرفيّ جديد للعقل، باعتبارِهِ كياناً توليديًّا، وليس مجرد مُتَلَقٍّ للمعلومات؛ لأن دراسة الظواهر في إطار الموضوعية المتلقية المادية تأخذ شكل دراسة موضوعات لا إشكالات، والصفات العامة المطلوب توافرها في الأطروحات التحليلية، هي: البساطة الدقة– التجرد – الانفصال عن القيمة، دفاع عن الإنسان.

- ص٢٧٧.

([٢]) فصل المسيري كل ما يتعلق بالخطاب التفسيري في كتابه: في الخطاب والمصطلح الصهيوني – دراسة نظرية وتطبيقية، دار الشروق، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٥م، ص١٤-٢١ .

([٣]) انظر: بالتفصيل ما جاء في الموسوعة للمسيري، ج١، ص١٩٦ وما بعدها.

حيث عقد فصلاً هاماً لكل ما يتعلق بالحلولية الكمونية الواحدية، حتى وصل إلى كيفية تشكل مفهوم العلمانية، وعلاقته العضوية بمفهوم الحلولية .

هذا المذهب وجود الحيز الإنساني، كما ينكر إمكانية الحرية والتجاوز، وهو يصل إلى الذروة في وحدة الوجود، ومذهب الحلول والكمون مذهب أحادى اختزالي، فهو يختزل الإنسان ويساويه بالكائنات الطبيعية.

بل إن العالم يتحول إلى وحدات طبيعية وإنسانية، متساوية ومستقلة ومختلفة ومنفصلة، بسبب عدم وجود مركز ومرجعية كلية مشتركة وتصبح كل وحدة ذات سيادة مطلقة ومرجعية ذاتها، ويلفت المسيري نظر القارئ إلى عدد كبير من المصطلحات المتقاربة، ذات الحقل الدلالي المشترك للتعبير عن فلسفات الحلول من ذلك: الحلول، وحدة الوجود، الكمون، الباطنية، الاتحاد، الفناء، المحايثة، الفيض، التجسد، المبدأ الواحد وغيرها.

وما هو مشترك بين هذه المصطلحات هو: اتجاهها إلى نفي طرفي الثنائية الوجودية (الخالق والمخلوق، الكلي والنسبي، المادي والروحي، الظاهر والباطن، الداخل والخارج) إلى أن ينتهي الأمر بأن يفنى أحدهما في الأخر، ويذوب فيه بصورة تامة، حتى يكونا في نهاية المطاف واحداً عضوياً يلغي كل أساس للمقابلة والتمييز (١).

ومن ثم يقدم تصوراً أن القيمة المركزية في الحضارة الغربية تتم بمراحل الحلول المتتالية، فيحل العقل الإنساني محل القيمة الدينية ويتغير المنطق المعرفي من الدين، وهو مطلق إلى العقل الإنساني، وهو نسبي ومن هذه العملية يتخذ العقل الإنساني صفة ليست فيه فيصير مطلقاً رغم أنه نسبي(٢).

تعريف النموذج: كلمة نموذج معربة، والنموذج أداة تحليلية ونسقاً كامناً يدرك الناس من خلاله واقعهم ويتعاملون معه ويصوغونه، والنموذج بنية فكرية تصورية يجردها العقل الإنساني من كم هائل من العلاقات والتفاصيل، فيختار بعضها ثم يرتبها ترتيباً خاصاً، بحيث تصبح مترابطة بعضها ببعض ترابطاً يتميز بالاعتماد المتبادل، وتشكل وحدة متماسكة، وطريقة التنسيق هي التي تعطي النموذج عناصر الواقع.

سمات النموذج المعرفي عند المسيري:

تكمن صعوبة قراءة نموذج المسيري في نصه المركب المستحوذ على معظم الحقول والمكونات الثقافية والمعرفية، وهو نص معقد، رغم أنه يخفي ويضمر بمقدار ما يفصح أحياناً، إلا أنه بعيد عن الأدلجة والتنظير، رغم قوة انتمائه لقيمه ومبادئه العربية الإسلامية، مع احتفاظه ببراعته التامة في

---

(١) المسيري: الموسوعة ج١، ص١٩٨.

(٢) المسيري: الموسوعة١، ص ٢٠٠-٢٠١، المسيري: دفاع عن الإنسان،ص٢٩٨.

استعمال المنهج الماركسي في التحليل أحياناً، ولعلها من بعض مرجعياته، إن لم تكن أهمها كما صرح هو بذلك([1]).

ويمتازُ نص المسيري أيضاً: بأنَه نصٌ مُنهكٌ للقارئِ، حيثُ هناك الجمل القصيرة، وهناك الجمل التي تتجاوز نصف الصفحة، لذلك فهو نص غير عادي مكثف متمثل لكل ما قرأ، كما أنه غني وعميق في آن واحد([2]).

أهم سمات نماذج المسيري:

أ. تتمثل أهم السمات عند المسيري في عدم الوقوع في إرساء المعلوماتية وعدم تهيب الأرقام، فكثيرة هي الدراسات العلمية والأكاديمية التي تتوخى الدقة الموضوعية، وتتناول المعلومات بدون رابط([3]).

ب. ترتبط بالسمة الأولى في علاقتها بالمتلقي وبفكرة التوثيقية أو ما أسماه (جيتوية المصطلح)، وهو هنا يقصد تحديداً الانهزام أمام المصطلح القادم بالشكل الذي يؤدي إلى استعمار العقل.

ت. الموسوعية، فهو موسوعي في معرفته، فنراه يتحدث عن العلاقة بين النموذج والواقع، وضرب مثلاً في الفن التشكيلي، فيشبه النموذج بالاسكتش الذي يعبر به الفنان عن واقع.

ث. رؤية الآخر في إطار مغاير، والتي تنبع من المعرفة الموسوعية أو رؤية الآخر في الذات، ويعود المسيري إلى الأنا لمواجهتها واستكشافها من أجل معرفة الآخر، فهو يرفض الفكر التآمري والموضوعيين العلميين التوثيقيين، الذين يحاولون التعامل مع الظاهرة الصهيونية.

ج. التداخل الشديد بين الذاتية والموضوعية في وصفه عن نفسه وذكرياته في دول شتى([4]).

هواجس الأيقنة والاختزال([5]) وهموم التطوير:

([1]) المسيري: الموسوعة ج٨، ملحق وكشاف هجائي بجميع ما ورد في الموسوعة.

([2]) دافيد هارفي: ما بعد الحداثة: رحلة في أصول التعبير الثقافي، ترجمة: محمد شيا: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م، ص١١.

([3]) المسيري: رحلتي الفكرية، ص٣١٦– ٣١٧.

- ويؤكد المسيري ذلك بقوله: " إن المدرسة المعلوماتية التراكمية معادية للفكر والإبداع، إنها تدور في إطار الموضوعية المتلقية السلبية، العقل عندها آلة ترصد وتسجل، وليس طاقة إنسانية مبدعة تعيد صياغة العالم، وهي لا تكترث بالحق أو الحقيقة، حيث يتم رصدها من الخارج دون تعمق ودون اجتهاد وكأنها أشياء مرصوصة، كمُ لا هوية له، لذا تفقد الظواهر شخصيتها ومنحناها الخاصين".
- المسيري: رحلتي الفكرية، ص٣٣٩.

([4]) المسيري: رحلتي الفكرية، ص٣١٨.

([5]) النموذج الاختزالي المعلوماتي التراكمي (الواحدي الموضوعي المادي) الذي لا يُفرِّق بين الظاهرة الطبيعية البسيطة والظاهرة الإنسانية المركبة، يهيمن على الدراسات والبحوث في جامعاتنا ومراكزنا البحثية بل يكتسحها تماماً، ويرى المسيري أن ما يحدث هو أنه رغم وجود الوعي النظري بالاختلاف الجوهري بين العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية إلا أنه لا يتم تفعيله ولا ينتقل إلى

لا تكتسب النماذج التفسيرية أهميتها ومبرر وجودها إلا من كونها قادرة على تقديم تفسيرات أكثر تركيباً وشمولاً للظواهر الإنسانية من المناهج الاختزالية، ويثير العديد من الهواجس حول إمكانية الاستفادة من الأطروحات السياسية والمنهجية التي يقدمها المسيري، الأمر الذي يمكن إنجازه في ثلاثة هواجس أوهموم(1).

أولاً– هاجس الأيقنة(2):

بمعنى التركيز على تفرد العمل الموسوعي الذي قام به المسيري، وليس على كيفية الاستفادة منه من خلال تجاهل الأطروحات الفكرية والدلالات النضالية لهذا العمل الكبير، حيث يحسب للمسيري أنه رد الاعتبار للقدرات التحليلية لهذا المصطلح (الصهيونية)، فقد قدمه في إطار نظري شديد التماسك في سياق عدد من المقولات المنهجية التي تكشف عن قصور الأدوات التحليلية والنظريات القائمة على التطبيع المعرفي للظاهرة الصهيونية، والانشغال بوصف عناصر النظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي(3).

ولا تقتصر دلالات المنهج الذي يقدمه المسيري على مرحلة ما قبل قيام دولة إسرائيل، وإنما تشتمل أيضاً على الممارسات الحالية للنظام السياسي الإسرائيلي، فإذا نظرنا إلى الأفكار التي راجت في منتصف التسعينيات حول ما سمي بالسوق الشرق أوسطية، فهو يراها أنها تعبر عن الجماعات الوظيفية، فالاندماج الأمثل للاقتصاد الإسرائيلي في اقتصاديات المنطقة يجب أن يتم من خلال سيطرة إسرائيل على عمليات الوساطة المالية في المنطقة.

تتحدى الصورة التي يقدمها العديد من التصورات والقوالب التفسيرية التقليدية التي صنعت لفهم السلوك الإسرائيلي، فمفاهيم كاللوبي الصهيوني التي تبرر الاستسلام العربي باعتبار أن العرب يواجهون

مستوى الممارسة البحثية نفسها، ويؤكد أن كثيراً من الباحثين يتخلون عن وعيهم هذا ويَسقُطون في الممارسة الاختزالية، التي لا تُفرِّق بين الطبيعي البسيط والإنساني المركب، المسيري: الموسوعة١، ص١٤٧، وقارن ما أورده في كتابه دفاع عن الإنسان، ص٣١٣–٣٤٠، حيث عقد مقارنة بين العديد من النماذج الاختزالية وتطبيقاتها في حياتنا المعاصرة= =وتجلي ظاهرة الصهيونية وكيفية التعامل معها من خلال النماذج البسيطة والمركبة والاختزالية وغيرها من النماذج التي تكمن داخل الخطاب الصهيوني.

(1) فصّل المسيري هذه القضية في رحلته الفكرية، ص٣٣٦.

(2) الأيقنة هي: نزع ظاهرة ما من سياقها الإنساني التاريخي والاجتماعي والثقافي، بحيث تصبح مرجعية ذاتها: مطلق يقبله الإنسان بدون تساؤل، سر من الأسرار المقدسة الذي لا يمكن فهمه أو تفسيره، وإنما يخشع أمامه المسيري، دفاع عن الإنسان، ص١٧٧، ومن الحيل الصهيونية الأساسية ما يطلق عليه المسيري (أيقنة المصطلح) أي: تحويل المصطلح إلى ما يشبه الأيقونة، بحيث يصبح المصطلح مرجعية ذاته، وتختزل الحقيقة المركبة إلى مثل هذه الأيقونة التي لا تقبل المناقشة أو المراجعة أو الدراسة أو التساؤل.

– المسيري: في الخطاب والمصطلح الصهيوني، ص٥١.

(3) يقول المسيري بهذا الصدد: " أدرك الصهاينة أهمية الخريطة الإدراكية في تشكيل الرأي العام، وفي تحريك الجماهير".

– المسيري: رحلتي الفكرية، ص٣٥١.

ما لا قبل لهم بمواجهته ولا مكان لهم في هذا النموذج، فالخطوة الأولى لفهم وتحليل الظاهرة الصهيونية هي وضعها في سياقها التاريخي السليم.

ثانياً- هاجس الاختزال([1]):

بالغت غالبية الدراسات في التركيز على التفرد المصطلحي، وعلى أهمية بناء نسق علمي مستقل تماماً عن الفكر الغربي، فالمتأمل في أعمال المسيري يلاحظ أن الانتصار التاريخي هو الهم الحاكم في هذه الأعمال، فتحليله للظاهرة الصهيونية على سبيل المثال يقوم على نقد استثنائها لنفسها من التاريخ الإنساني، فالمجتمعات والأيديولوجيات الاستيطانية كما يقول المسيري معادية للتاريخ بالضرورة، ومن هنا فالخطوة الأولى باعتبارها ظاهرة استعمارية غربية، ويتضح هذا المنهج التاريخي في تحليل المسيري لأسطورة الماسادا([2]) وطبيعة الجندي اليهودي الذي يفضل الانتحار على الاستسلام([1]).

([1]) تشكل أطروحات الرصد الموضوعي المادي المتلقي التربة الخصبة لظهور النماذج الاختزالية التي تتسم بالتماسك والبساطة والصلابة والتجانس والطموح، نحو شمولية التفسير ونحو درجة عالية من اليقينية، والطموح نحو الدقة المتناهية في المصطلحات، والنموذج الاختزالي نموذج بسيط ومغلق وواحدي ومصمت ونموذج مادي متلقي يتجه نحو: اختزال العالم إلى عدة عناصر مادية بسيطة، ومن ثم يضفي على الظواهر عامل التبسيط والإطلاقية والبعد عن الاحتمالية، ويرجعها إلى سبب واحد بسيط عام أو سببين أو ثلاثة تنطبع في عقل متلق، لهذا القانون أو الدافع أو القوة، والنموذج الاختزالي لا يفرق بين الطبيعة- المادة والإنسان، ومهما تنوعت الأسباب وتعددت فإن التنوع والتعدد من منظور النموذج الاختزالي مسألة ظاهرية، ولهذا السبب فإن النماذج الاختزالية مطلقة ومغلقة ترى التاريخ يتحرك بطريقة واحدة ونحو نقطة واحدة.

- راجع: عبد الوهاب المسيري: الموسوعة ١، ص ٨٨-٩٢، وترتبط بالأيقنة بعض الصور المجازية التي تختزل الواقع وتترجمه إلى أطروحة صهيونية.

- انظر: المسيري: في الخطاب والمصطلح الصهيوني، ص٥٢.

([2]) ماسادا: أسطورة ليست في أهمية أكذوبة (أرض بلا شعب لشعب بلا أرض) ولكنها ذات فعالية على مستويين: بعث الخوف في قلوب العرب، وتعبئة الشباب الإسرائيلي، وتذهب الأسطورة إلى أن اتجاهاً شمشونياً يسمى (الشخصية اليهودية) أو الإسرائيلية، وهو أن اليهود إن حوصروا، فإنهم يؤثرون الانتحار على الاستسلام وأنهم يقولون: (عليَّ وعلى أعدائي) ويدمرون العالم بأسره، هذه هي الرؤية الصهيونية لواقعة ماسادا، وهي رواية تحتوي على حقائق تاريخية كثيرة، ولكنها حذفت حقائق تاريخية أخرى في غاية الأهمية، حتى تؤكد ما يسمى: (الشخصية اليهودية) إلا أن أية قراءة لكتب التاريخ ستقوض الرواية الصهيونية تماماً.

- المسيري: في الخطاب والمصطلح الصهيوني، ص٧٠-٧١ .

وقد أسهب (ايجال يادين) - عالم الآثار الإسرائيلي- في وصف الطريقة التي عثر فيها على هذه البقايا البشرية مسبغاً عليها طابعاً يرقى إلى القداسة، والتي وصفتها الحكومة الصهيونية، بالإضافة إلى بعض الأشياء التي تم العثور عليها لاحقاً، بأنها تعود (لأبطال يهود)، إلى درجة أنه تم دفنها في مقبرة مخصصة للجنود الصهاينة، بعد لفها بالعلم الصهيوني.غير أن عالم الإنسان الصهيوني (جو زياس) والخبير في التشريح (إسرائيل جورسكي) كتبا في دراستهما، التي نشرت في مجلة (آثار الشرق الأدنى)، أن البقايا قد لا تكون لأشخاص يهود على الإطلاق.

- موقع وكالة نبأ على الويب *www.nabanews.info*.

ويقدم في تحليله للظاهرة الصهيونية نموذجاً تفسيرياً مركباً يتضمن العديد من المفاهيم الجديدة، غير أن القضية تتمثل في فهم السياق الذي أنتج هذه المصطلحات، فالتصور المركزي للظاهرة الصهيونية عند المسيري يقوم على أنها مثلت استجابة معينة لواقع اقتصادي واجتماعي عرف في التاريخ و أوروبا باسم (المسألة اليهودية).

ونشأة الدولة الوظيفية تزيد الصورة تركيباً، فسلوك هذه الدولة يصبح دالاً في منطقين متمايزين هما منطق الدولة، ومنطق الصهيونية الاستيطانية، ومن ثم الإشكالية الأساسية لدراسة واقع الصهيونية والممارسات الإسرائيلية هي استكشاف أنماط التفاعل بين منطق المشروع الصهيوني والدولة الطبيعية، ويوضح المسيري أن خطورة جيتوية المصطلحات تتمثل في أنها تضفي على الظواهر – محل الدراسة– طابعاً أسطورياً، فجوهر فكر المسيري هو التركيب ومحاربة الأنماط الاختزالية سعياً وراء نماذج معرفية، تدرك خصوصية الظواهر الإنسانية ببعديها التمايز والسياق، وترفض الفصل بين هذين البعدين، سواء بالتركيز على الخصوصية المفرطة أو تجاهل السياق الأعم للظواهر.

ثالثاً– هموم التطوير:

النماذج التفسيرية التي يقدمها الدكتور المسيري ليست مجرد تمارين عقلية تمارس في الدوائر الأكاديمية، ولكنها أيضاً خطوة أساسية نحو تحويل الفهم والتفسير على حد تعبير المسيري إلى نضال من أجل ما نتصور أنه الحق والعدل، والنظر إلى المسيري كصاحب مشروع فكري وليس كصاحب مجموعة مؤلفات متناثرة له عدة دلالات تتعلق بأسلوب فهم عمل المسيري، وهو ما يمكن إيجازه في نقطتين أساسيتين هما:

أ. **أولوية الهدف النموذجي:** ففي البدء كانت الإشكالية المنهجية المتمثلة في الانتصار للتاريخ، واستحضار الفاعل الإنساني في الظواهر الاجتماعية في مواجهة المناهج التطبيعية للعلوم الاجتماعية، فأولوية الاعتبارات المنهجية والمعرفية هما أهم خصائص المشروع الفكري للمسيري.

ب. **مركزية مفهوم دراسات الحالة وحدوده:** ففي الوقت الذي يرفض فيه المسيري الافتراضات المعرفية والمقولات الأساسية للمدرسة السلوكية، فإنه يشاركها تطلعها الأساسي للوصول إلى تحليل واقعي ذي قدرة

– وراجع: المسيري: دفاع عن الإنسان، ص١٥٩–١٦٤، وينبه المسيري إلى كيفية استغلال واختزال هذه الأسطورة من قبل الصهاينة، وتحويل التاريخ إلى أسطورة تخدم تحيزاتهم وأهوائهم وتشويه التاريخ وتسخيره لخدمة رؤيتهم الذاتية.

– المسيري: دفاع عن الإنسان، ص١٥٩–١٦٠.

([1]) كشف عالمان صهيونيان زيف أسطورة (قلعة ماسادا) التي وجد بها بقايا بشرية، عثر عليها في ستينيات القرن العشرين، في أحد الحمامات وكان الاعتقاد الصهيوني السائد أنها بقايا ليهود قتلوا أنفسهم، خوفا من أن يصبحوا عبيدا للرومان، ولكن العالمين أثبتا أن هذه البقايا البشرية لأشخاص رومانيين وليس العكس، عند الكشف عن هذه البقايا للمرة الأولى.

– موقع وكالة نبأ على الويب.

عالية على التنبؤ، ومن خلال الفهم الخاص للمشروع الفكري يتأسس هم التطوير كهم شاغل لكل مهتم، بأن تأخذ الأطروحات الفكرية التي يقدمها المسيري في الأجندة البحثية العربية وهي عملية ذات بعدين: بعد داخلي بالتحاور مع القضايا المنهجية والافتراضات المعرفية التي تثيرها النماذج التفسيرية واستكشاف الأجزاء التي يمكن تطويرها، وبعد خارجي تناول عناصر أجندة بحثية تطبيقية تخرج النماذج التفسيرية التي قدمها المسيري من أسر الحالة الصهيونية.

وظيفة النموذج:

من أهم وظائف النموذج وظيفة الإدراكية الإنسانية للكون، التي يرتب الحقائق وينظم المعلومات على أساسها، وذلك أثناء أبسط عمليات الإدراك ([1]).

والنموذج التحليلي الذي يستخدمه المسيري في تركيبه عناصر دينية وفلسفية واجتماعية وسياسية، وهي عناصر متشابكة متفاعلة تحسن من المقدرة التفسيرية، كما يستخدم المسيري النماذج الثلاثة (الحلولية والعلمانية والجماعات الوظيفية) مع التأكيد على جانب أساسي وهو أن: وحدة الوجود الروحية الصوفية هي ذاتها وحدة الوجود المادية، وأن الحركات الصوفية والحلولية عادة ما تمهد لظهور العلمانية الشاملة([2]).

المبحث الثاني- نموذج الحلولية الكمونية الواحدية:

تنطلق دراسات المسيري من إيمانه بأن هناك فارقاً جوهرياً بين الإنسان والطبيعة، والطبيعة في تصور الماديين هي نظام يتحرك بلاهدف أو غاية، نظام واحدي مغلق مكتفٍ بذاته، توجد مقوماته وحركته داخله، ويحوي داخله ما يلزم لفهمه، نظام لا يشير إلى أي هدف أو غرض خارجه، وهو ضروري كلي شامل تنضوي تحته كل الأشياء.

والتفكير الذي يرى أسبقية الطبيعة على الإنسان يستوعبه فيها ويختزله إلى قوانينها ويخضعه إلى حتمياتها، بحيث يصبح الإنسان جزءاً لا يتجزأ منها ومنفصلاً نسبياً عما حوله، ويختفي ككيان مركب متجاوز للطبيعة والمادة له قوانينه الإنسانية الخاصة، أي: أن الحيز الإنساني يختفي ويبتلعه الحيز المادي([3])، وبدلاً من ثنائية الإنساني والطبيعي تظهر الواحدية الطبيعية "([4]).

([1]) المسيري: الموسوعة اليهودية، ١، ص١٠٧، والمسيري: النازية ونهاية التاريخ، ص٢٢٩-٢٣١ .

([2]) المسيري: دفاع عن الإنسان، ص٨٣.

([3]) يقول الفيلسوف فيخته (١٧٦٢-١٨١٤م) بصدد موضوع الوحدة والحلول: " إن الطبيعة التي علي أن أعمل فيها ليست شيئاً غريباً عني فتنقطع الصلة بي، وإنه إذا كان باستطاعتي أن أنفذ إلى الطبيعة وذلك؛ لأنها مكونة بقوانين فكرية، وإنها بيني وبين نفسي".

- انظر: محمد ياسر شرف: فلسفة الوحدة المطلقة عند ابن سبعين، ط١، بغداد، دار الرشيد، ص٢١١.

([4]) المسيري: دفاع عن الإنسان، ص٢٧٣.

وقد فك هتلر شيفرة الخطاب الفلسفي الغربي بكفاءة غير عادية حينما قال: " يجب أن نكون مثل الطبيعة، والطبيعة لا تعرف الرحمة أو الشفقة، وهو تبع في ذلك كلا من داروين ونيتشه، وانطلق من واحد من أهم التقاليد الأساسية في الفلسفة الغربية"([1]).

١. **مفهوم الحلولية:**

مفهوم قديم في لفظه، ومتغير في معانيه ودلالته واصطلاحاته، وتعني كلمة الاتحاد الملاصقة لمصطلح الحلول هو حدوث امتزاج شيئين أو أكثر، في كل متصل الأجزاء، والاتحاد في الجنس يسمى مجانسة وفي النوع مماثلة، وفي الخاصة مشاكلة، وفي الكيف مشابهة وفي الكم مساواة وفي الأطراف مطابقة وفي الإضافة مناسبة، وفي جميع المعاني موازاة([2]).

الحلولية([3]) في الأساس هي فكرة نشأت في الديانتين اليهودية والمسيحية وبعض الفلسفات الغنوصية([4])، وهناك عدة فلاسفة منذ العهد اليوناني نادوا بهذه الفكرة، وقد تسربت هذه الفكرة إلى بعض المتصوفة في الإسلام؛ حيث بدأ المتصوفون في هذه المرحلة من تطور الفكر الصوفي، بحثهم عن علاقة مميزة تكون أكثر من العشق الإنساني إلى الخالق الذي هو أقرب إلى مخلوقه من حبل الوريد، وكان ذلك الجهد الذي ينتهي إلى الفناء في ذات الله.

والحلول هو النزوع إلى الله عند حال فناء العبد فيه نظراً للضعف الإنساني المتناهي في القدرة البشرية فلا حول ولا قوة إلا بالله، وظهر لدى بعض المتصوفة الإلحاح على الوصول إلى موقف يتميز بدرجة أعلى من الإيمانية والخضوع، فكانت الدعوة بحلول الله في الإنسان، ومن أشهر من قال بهذا

([1]) المصدر نفسه، ص٢٧٤.

([2]) جميل صليبا: المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنكليزية واللاتينية، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ط١، ١٩٧٨، ج١، ص٣٥.

([3]) الحلولية متتالية يؤدي تتالي حلقاتها إلى وحدة الوجود، التي تتبدى في صيغتين مختلفتين ظاهراً، لكنهما في واقع الأمر صيغة واحدة برغم اختلاف التسميات التي تطلق على مركز العالم (المبدأ الواحد) الحال فيه، المفارق له.

- المسيري: رحلتي الفكرية، مصدر سابق، ص٣٨٩.

([4]) **الغنوصية**: (Gnostieisme): " هو مصطلح معناه معرفة أشياء دينية تسمو على عامة المؤمنين، أو على مستوى العقيدة الرسمية وكان للمسيحية غنوصها في القرنين الثاني والثالث الميلادي، ثم تحول الغنوص إلى المعتقدات السرية والخفية، بل الملحدة أحياناً والغنوصية مذهب تلفيقي يجمع بين الفلسفة والدين ويقوم على أساس فكرة الصدور ومزج المعارف الإنسانية بعضها ببعض، ويشتمل على طائفة من الآراء المضنون بها على غير أهلها، وفيه تلتقي الأفكار القبالية بالأفلاطونية الحديثة، وبعض التعاليم الشرقية كالمزدكية والمانوية، وكان له أثره في التفكير الفلسفي في المسيحية والإسلام وغنوصي نسبة إلى الغنوصية".

- انظر: إبراهيم مدكور: المعجم الفلسفي، القاهرة، مجمع اللغة العربية، ص١٣٣.

الحلاج والسهروردي، إلا أن بعض المتصوفة كان أكثر إصراراً على تثبيت دعائم اتجاههم الديني، على أرض صلبة تتمثل في قيامه ثابتاً منيعاً، ضد هجمات الفقهاء والكلاميين والفلاسفة، فاتخذوا لأنفسهم طرقاً مذهبية ذات مناهج محددة في النظر إلى الوجود والموجودات، وتعليق العلاقات وأسس الاتصال بالله وإدراك الكائنات.

وقد ظهر ذلك عبر زمرتين من التفكير:

وحدة الوجود: وقد ظهرت هذه الفكرة واضحة في التصوف الإسلامي، بعد شيوع أراء الإفلاطونية الحديثة، وخرج التصوف بالآراء الغنوصية، وأشهر من عرف بهذا المضمار: ابن مسرة، ابن عربي، والشوذي.

الوحدة المطلقة: وقد بلغ التصوف شأوه في تخيل صورة الارتباط بين الله والإنسان، مع عبد الحق بن سبعين الذي رأى أن الله فقط وأن لا وجود إلا الله ([1]).

واشتهر من هؤلاء المتصوفة الحسين بن منصور الحلاج بنزوعه الروحي، وقد اتهم بالحلولية وبأنه ادعى الإلوهية، وكثيراً ما يرددون عبارته (أنا الحق) شاهداً على ما يقولون، ولكن الوحدة التي يقصدها الحلاج لا تمت إلى الحلولية بصلة، فالله عز وجل ليس مادياً كعالم الخلق ليحل فيه حلولاً، وإنما يتجلى الحق في الخلق تجلياً.

فاللطافة لا تحل في العالم الكثيف، بل يتجلى الحق والمطلق النسبي واللطيف الكثيف، والله تعالى يتجلى تجلياً، ولا يحل حلولاً في العالم الحسي، والعالم الحسي هذا ليس جزءاً من كل هو الله، وإلا كان هذا الكل مركباً من أجزاء، وبالتالي كان محدوداً تنتفي عنه الكلية بتحديده فيتصف هو ذاته بأوصاف الجزئية المحدودة، إن عالم الحس هو كلٌ لا جزءَ، ولكنه بدٌ يعكس حقيقة الكل الحق؛ لذلك كان الحلاّج يعتقد أن هذا الحق مرتبط وجوده بوجوده، ولا إرادة إلا من إرادته([2]).

وعلى النقيض من العقائد التوحيدية، نجد الاختلاف الشديد والمفارقة الأيديولوجية والفكرية بالمقارنة مع الأيديولوجيات الغربية، فالخالق في النظم والفلسفات الحلولية يحل في العالم فيمتزج بالمخلوق والإله بالعالم.

والحلولية تهبط بالإله إلى الإنسان فتؤنِّس الإله وتؤلِّه الإنسان، ولكنها تهبط بعد ذلك بكليهما إلى الطبيعة والمادة فتجعلهما مستوعبين فيها، فيتحولان إلى مادة محض، وبالتالي يختفيان، فسقف هذا

([1]) شرف: فلسفة الوحدة المطلقة عند ابن سبعين، – مصدر سبق ذكره، ص٩١-٩٢.

([2]) مكارم، سامي: الحلاّج في ما وراء المعنى والخط واللون، دار رياض الريس للكتب والنشر، لندن، ط١، ١٩٨٩م، ص١٢١-١٢٢.

الإنسان المتألّه هو عالم الطبيعة (المادة) الدنيا، ويصبح هو مصدر القداسة، وعادة ما يصاحب هذا ظهور التفسيرات الحرفية المادية، وإسقاط المجاز وأية ثنائية، مثل ثنائية الخالق والمخلوق، والسماء والأرض، والروح والجسد، فالحرفية الحلولية ثمرة القضاء على الثنائية والتجاوز وثمرة اختزال المساحة التي تفصل الخالق والمخلوق، وبين الإنسان والطبيعة وبين الدال والمدلول بحيث يختزل الواقع إلى مستوى واحد، فلا يشير إلى أي عالم آخر أو أية منظومة أخرى، وبحيث تصبح رؤية الواقع في نهاية الأمر واحدية، لا تختلف كثيراً في بنيتها عن التفسيرات المادية التي تنكر الثنائية والتجاوز([1]).

ووحدة الوجود المادية تعني سياق قانون الطبيعة المادي على كل من الطبيعة والإنسان، ويتم من خلال الحلولية الصلبة (الحلولية المادية) في مراحلها الأولى حين يتم تصفية الإنسان باسم الطبيعة، ويكون مركز العالم هو الطبيعة (المادة)، وهذه هي مرحلة الحداثة ([2])، ولكن تصبح أشياء عديدة موضع الحلول، فتعدد المراكز ويسقط كل شيء في قبضة الصيرورة الكاملة، يتغيب كل يقين وتسيطر النسبية تماماً، ويفضي بنا كل هذا إلى عالم مفكك لا مركز له ويتحول العالم إلى كيان شامل واحد لا يوجد فيه قيمة أو قاع، أو يمين أو يسار أو ذكر أو أنثى، وإنما يأخذ شكلاً مسطحاً تقف فيه جميع الكائنات الإنسانية والطبيعية على نفس السطح، وتصفى فيه كل الثنائيات، وتنفصل الدوال عن المدلولات وتتراقص بلا جذور، ولا مرجعية ولا أسس، وتصبح كلمة إنسان دالاً بلا مدلول، أو دالاً متعدد المدلولات.

وهذا هو التفكيك الكامل، وهذا هو أيضاً الانتقال من عالم التحديث والحداثة والإمبريالية والحلولية المادية الصلبة، إلى عصر ما بعد الحداثة والنظام العالمي الجديد والحلولية المادية، وبذلك تنزع القداسة عن المقدس، ولكنها في الوقت نفسه قد تخلع القداسة على غير المقدس.

ولذا نجد النزعات الحلولية، حيث أن نموذج الحلولية والعلمانية الشاملة هي المفتاح لكل الحركات والمذاهب الإلحادية فهي ترفع الحاجز بين المقدس والمدنس، وتقدس أشياء غير مقدسة مثل الكون والطاقة، ولا يمكن وجود علمانية بدون حلولية وبدون إلحاد ونفي للإله.

([1]) عبد الوهاب المسيري: اللغة بين التوحيد ووحدة الوجود، دار الشروق، القاهرة، ط١، ٢٠٠٢م، ص٢٢٤-٢٢٥.

([2]) " يحلم أنصار ما بعد الحداثة بعالم الصيرورة، عالم الإشارات بلا خطا، بلا حقيقة بلا أصل، عالم مادي خال تماماً من القداسة، والمعرفة من منظور ما بعد الحداثة معرفة بدون مركز، فهي معارف صغيرة بنطاقها، فهي مثل الجسد الذي لا يتجاوز شرعيته حدوده، وحينما ندركه هو وحده، فنحن ندرك ذواتنا وحسب (فالجسد هو الذات والموضوع)".

- المسيري: اللغة والمجاز بين التوحيد ووحدة الوجود، ص٥٥.

وعليه يترتب تحويل العالم إلى مادة استعماليه وهي الوجه الآخر للإمبريالية التي حولت العالم (أسيا وإفريقيا والأمريكتين) إلى مادة استعماليه يوظفها الإنسان الغربي الأقوى لصالحه([1]) لمن عنده القوة الكامنة لهزيمة الآخرين، ونتيجة لهذا العلم والتكنولوجيا المنفصلان عن القيمة والغاية، وانطلاقاً من هذا التعريف للرؤية الشاملة([2]) وفي المنظومات الحلولية الكمونية (وحدة الوجود المادية) يسمى المبدأ الواحد الإله ولكنه يحل في مخلوقاته، ويمتزج معها ويسري فيها تماماً، بحيث لا يصير له وجود دونها، ولا يصير لها وجود دونه، أي لا يبقى من الإله سوى اسمه، ولكنه إله متحد تماماً بالطبيعة المادية، ويمكنها الحديث باسمه، لكل هذا يمكن الحديث بلغة روحية عن عالم المادة، ولغة مادية عن عالم الروح (فهذا عالم ذو بعد واحد لا يتسم بأية ثنائية)([3])، ويتم الاستغناء تماماً عن الإله أو أية لغة روحية أو مثالية، ويحل الخطاب المادي الصرف محل الخطاب الروحي.

ومن أهم مقولات الحلولية ووحدة الوجود المادية وأوجه التشابه بينهما تتدرج في النقاط التالية:

١. الإنسان سيد الكون ومركزه وبالتالي هو المرجعية.
٢. غياب أي مرجعية متجاوزة لذاته الفردية، ينغلق الإنسان على هذه الذات، فيصبح تدريجياً إنساناً فرداً لا يفكر إلا في مصلحته ولذته، وبالتالي تصبح هذه الذات لا الإنسانية جمعاء هي موضع الحلول، فيؤله الإنسان الفرد نفسه أو قومه في مواجهة الطبيعة وفي مواجهة الآخرين، ويصبح إنساناً إمبريالياً، ويستمد هذا الإنسان الإمبريالي معياريته من ذاته الإمبريالية فيوظف الآخرين ويسخرهم ويوظف الطبيعة ويسخرها لحسابه.
٣. يكتشف الإنسان تدريجياً أن الطبيعة (المادة) موضع، وأنها مرجعية ذاتها، ومكتفية بذاتها.
٤. ازدواجية الإنسان المتمركز حول ذاته الذي يشغل مركز الكون، مقابل الطبيعة المكتفية بذاتها التي تشغل مركز الكون.
٥. تصبح الطبيعة فيما بعد موضع الحلول وتحل الواحدية المادية محل الواحدية الإنسانية، فيبدأ الجوهر الإنساني في الغياب تدريجياً ويحل الطبيعي محل الإنساني، ويستمد الإنسان معياريته لا من ذاته، وإنما من الصيغة المادية، ويزداد اتحاده بالطبيعة إلى أن يذوب فيها تماماً ذوبان الجزء في الكل.

([1]) المسيري: رحلتي الفكرية، ص٤٠٠.
([2]) المصدر نفسه، ص٣٩٨.
([3]) المصدر نفسه، ص ٣٨٦-٣٩٠.

٦. تتصاعد معدلات الحلول والتفكيك، وتتعدد مراكز الحلول إلى أن يصبح النسبي هو المطلق الوحيد، ويصبح التغيير هو نقطة الثبات الوحيدة (لا يوجد شيء ثابت) حينئذ تفقد الطبيعة (المادة) مركزيتها بحسبانها المرجعية النهائية([١])–كبديل عن الخالق– وتأليه للطبيعة.

ومن هنا تكمن صعوبة التعايش في عالم الروح، وينحبس الإنسان في عالم الحواس الخمس، ويجد صعوبة بالغة في الانطلاق نحو التجاوز الرباني، لذلك نجد الفلسفة الحلولية فلسفة مادية، ترى أن الطبيعة مكتفية بذاتها، وعليه يتم توجيه الإنسان نحو اللذة والشذوذ الجنسي وتقديس الجسد والرغبات، والفلسفة النيتشوية وأصلها الدارويني فلسفة حلولية ترى أن الطبيعة مكتفية بذاتها، ليس فيها حدود أو قيود أو سدود، والسوبرمان هو قمة هذا الإتجاه فهو موضع الحلول "([٢])، وتعبر الحلولية عن نفسها بشكل أقل عنفاً في فكرة الإنسان الإستهلاكي الباحث عن لذته وعن مصلحته، فهو يجعل ذاته مرجعيته النهائية والوحيدة، والشذوذ الجنسي تعبير متطرف عن تلك الحلولية ([٣]).

٢. مفهوم الحلُوليَّةُ عند المِسيري:

لم يتوقَّف المسيري طويلاً لاستعراض المعاني المختلفة لمصطلح الحلول، وما يرتبط به من مفاهيم متنوعة الدلالات على نحو ما رأيناه فيما سبق، وإنما يُلمح– فقط– لأصل الكلمة، ثم يحدِّد دلالة الحلولية بأن يضيف إليها كلمة الكمونية ويقول ما نصُّه: الحلولية الكمونية([٤])، هي رؤية للواقع، ترى أنَّ الإله قد حَلَّ في العالم، حتى أصبح الإله غير متجاوزٍ للعالم، متوحِّداً معه ومن ثَمَّ أصبح الإله والطبيعة والإنسان شيئاً واحداً، أي: أن ثنائيات الخالق والمخلوق، الإنسان والطبيعة، الكل والجزء، العام والخاص، تم إلغاؤها لتظهر الواحدية الكونية المادية.

وهو يشير إلى أنه يضطر إلى إضافة كلمة كموني إلى كلمة حلولي، حتى يُزيد من القدرة التفسيرية والتحليلية للمصطلح، والكمون عنده مقصودٌ به: الإنكار للحيِّز الإنساني، والسقوط التام في قبضة الصيرورة، وإنكار أي وجود للكل المتجاوز وهو– كما نرى – تعريفٌ بحاجةٍ إلى تعريف! وإن كان معناه قد يتضح في سياق كلام المسيري، بما مفاده أنَّ الكمون هو رؤية الله في الأشياء، بمعنى أنه تعالى كامنٌ في خلقه ومن ثمَّ، فإنَّ التوحيد هو عكسُ الحلولية الكمونية([٥]).

([١]) المصدر نفسه، ص٣٩٢. مصدر سبق ذكره.

([٢]) المصدر نفسه، ص٣٩٤.

([٣]) المصدر نفسه، ص٣٩٤.

([٤]) " في المنظومات الحلولية الكمونية (وحدة الوجود الروحية) يسمى المبدأ الواحد الإله، ولكنه يحل في مخلوقاته ويمتزج ثم يتوحد معها ويذوب فيها تماماً، بحيث لا يصير له وجود دونها ولا يصير لها وجود دونه".

– المسيري: رحلتي الفكرية، ص٣٨٩ .

([٢]) الكمون بمعنى: حالٌ فيه يُقال إن الله كامن في الكون " فهذا يعني أن الإله والكون كيان (جوهر) واحد، وحينما يُقال إن (قوانين الكون كامنة فيه) فهذا يعني أن من يريد أن يفهم هذا الكون عليه أن يدرس القوانين الكامنة فيه لا يتجاوزها، ومبدأ

الحلُولِيَّةُ اليَهُودِيَّةُ:

بعد التأسيس النظرى، والصياغة الخاصة لمفهوم الحلولية تأتى الموسوعةُ إلى التطبيقات فتوُجِّه القدرةَ التفسيرية للمصطلح نحو موضوعها الرئيس، وهو اليهود واليهودية وهو ما نراه مشتَّتاً بين مجلَّداتِ وأجزاء الموسوعة، ومنسحباً على معطياتٍ عدَّة، تبدأ من تاريخ الفلاسفة أعضاء الجماعة اليهودية حتى إشكاليَّاتِ العلاقة بين اليهودية والصهيونية والفكر الغربى المعاصر بمدارسه المختلفة.

وعلى النهج ذاته، تنتهى الموسوعةُ إلى تعليل صعوبة تعريف الهوية اليهودية وذلك اعتماداً على القدرة التفسيرية لنموذج الحلولية حيث تقرِّرُ أنَّ عبادة يسرائيل التي تعود إلى الديانات السامية القديمة– وهى ديانات حيويَّة حلولية– والتي ترتبط أيضاً بعبادة الأسلاف– أحد المكوِّنات الأساسية لعبادة يسرائيل– هي الأصل الذي رفضه إبراهيم عليه السلام، وألغاه موسى بميثاقه مع الرب، ومن ثمَّ خطا التوحيد خطىً واسعة بين العبرانيين، ولكن العبادةَ لم تكن توحيديَّةً خالصة فقد عبدوا العجل الذهبي، وحينما تسلَّل العبرانيون إلى كنعان (فلسطين) تراجع التوحيد عدة درجات، وبدأت الرؤية الحلولية تترسَّخ وقد انتهت عبادة يسرائيل بهدم الهيكل (٧٠ميلادية) وتطورَّ النسق الديني اليهودي بعيداً عن العبادة الإسرائيلية، ولم يستقر حتى الآن، وهذا يفسِّر عدم تجانس النسق الديني اليهودي، وصعوبة تعريف الهوية اليهودية.

ومن القديم إلى المعاصر، مروراً بتطور التاريخ اليهودي العام، يسلِّط المسيري الأضواء الكاشفة لنموذج الحلولية، فيقرأ– قراءةً جديدة– هذا التاريخ وإشكالياته... مؤكِّداً بين ثنايا قراءته، أن ثمة مناطق في التركيب الجيولوجي لليهودية، تجلَّت فيها الحلولية الكمونية بوضوح، وسط هذه الطبقات الجيولوجية المتناقضة مثال ذلك عنده: ظهور فكرة الشعب المختار، وفكرة الميثاق في العهد القديم، الذي يعتبره وثيقة صراع بين الاتجاه التوحيدي والاتجاه الوثني الحلولي.

ولما عاش اليهودُ بين أهل الديانات التوحيدية: كالإسلام والمسيحية، لم يعد التوحيد اتجاهاً مميِّزاً لهم: بحث الحاخامات عن استراتيجيات مختلفة للحفاظ على الهوية، حتى تغلَّبت النزعة الأسطورية

الكمون هو القول بأن (الكل داخل الكل) والقول بأن عناصر الوجود تتضمن بعضها بعضاً ولا تؤلف إلا حقيقة واحدة، وهو عكس التجاوز والتعالي... ولذا، يُعَدُّ تطبيق مبدأ الكمون على هذه الصورة مقدمة من مقدمات مذهب وحدة الوجود أو نتيجة من نتائجه، ففي مذهب وحدة الوجود، تكون ماهية الإله كامنة (باطنة) في العالم، أي أن الإله والعالم واحد، وقد قال إسبينوزا في تعريفه: (الإله أنه هو السبب الكامن لكل الأشياء، لا العلة المؤثرة عليها من الخارج)، وارتباط اسم إسبينوزا بهذا المصطلح له دلالته، فإسبينوزا هو الذي نادى بتعادل وترادف الإله والطبيعة، أي: كمون الإله في الطبيعة، أي أن الإله والطبيعة (وكل الأشياء) جوهر واحد، العلمنة هي عملية تكمين أي جعل المركز كامناً في العالم، فيصبح الكون مكتفياً بذاته (مرجعية ذاته)، وهذه هي المرجعية الكامنة، وقد عُرِّفت الوضعية بأنها تعني أن يكون معيار الحكم على الشيء هو ذات الشيء، لا من مصدر خارجه أو مستقل عنه، أي أن معياره كامن (حال) فيه، والمرجعية الكامنة لابد أن تكون واحدية وتنكر التجاوز.

– المسيري: الموسوعة، ج١، ص١٩٧.

الشعبية، وأخذت شكلها الحلولي الكموني الواحدي، ولعبت القَبَّالاه دوراً حاسماً في تحويل اليهودية من نسق توحيدي إلى نسقٍ حلولي كموني متطرف يساوى بين الإله والطبيعة، بحيث يصبح الإله هو الطبيعة، ويتم إلغاء التاريخ ويتركَّز الحلول الإلهي في الشعب اليهودي، إذ يحلُّ المطلق أو المركز في الشعب، والقبالاه بهذا تشكِّل عودةً للواحدية الكونية والحلولية الوثنية.

وتستعرض الموسوعة تجلِّيات القَبَّالاه فى الفكر اليهودي، ولدى المفكِّرين (من أعضاء الجماعة اليهودية) على مَرِّ التاريخ، منتهيةً إلى تقريرٍ حاسمٍ تعبِّر عنه الفقرة التالية:

النمط الحلولي الذي ساد العقيدة اليهودية، هو النمط الثنائي الصلب– المرتبط بوجودهم كجماعة وظيفية– ومع هذا كان النمط الشامل السائل الروحي أو المادي كامناً من البداية، ففلسفة اسبينوزا([1])، (الحلولية المادية)، وحركة شبتاي تسفي، ثم الحركتين الفرانكية والحسيدية (الحلولية الروحية) تقوم بتفكيك الإنسان وردِّه إلى كُلٍّ أكبر منه.

ثم أخذت معدَّلات الحلولية المادية، والحلولية الروحية، في التصاعد بعد القرن الثامن عشر والصهيونية شكلٌ من أشكال الحلولية الثنائية الصلبة المادية، وهى من ثَمَّ تنتمي إلى النمط نفسه الذي تنتمي إليه النازية والقوميات العضوية، وشيوع الحلولية في النسق الديني اليهودي، لم يكن مجرد امتداد للحلولية الكامنة في التوراة والتلمود، فثمة عنصرٌ ساعد على تعميق هذه الحلولية، وعلى تكثيفها ثم تفجُّرها وشيوعها بين أعضاء الجماعات اليهودية، وهو وضع اليهود في الحضارة الغربية، كجماعاتٍ وظيفية وسيطة، فأعضاءُ الجماعة الوظيفية الوسيطة، ينزعون دائماً منزعاً حلوليّاً فى رؤيتهم للكون، فهم يرون أن الإله يحلُّ فيهم، ولذا فهم– حسب ظنهم– يتمتعَّون بقداسةٍ خاصة تعزلهم عن المجتمع، ومن ثمَّ فإنَّ أعضاءَ الجماعات اليهودية ساهموا في ظهور العلمانية (وهى وحدة مادية) بشكلٍ مباشر وغير واعٍ، من خلال نشر الرؤية الحلولية.

٣. الصهيونية والحلولية:

قبل البحث في العلاقة بين الحركة الصهيونية وتجسدها كنموذج من الحولية الكمونية والعلمانية الشاملة، لابد أن نبحث في جذور ونشأة الحلولية في الديانة اليهودية نفسها، لذلك آثرت أن أبدأ في جذور الحلولية ونشأتها في الدين اليهودي نفسه، حيث أن المكون اليهودي يتضح لنا بصورة لا نستطيع تجاهلها.

([1]) يقول شتراوس: " لأن الدين اليهودي بشكله الحديث هو فرع من اليهودية الحاخامية وسبينوزا أو أفكار سبينوزا النقدية، بمعنى أن نقد سبينوزا للدين تحديداً في رسالة اللاهوت والسياسة ترك أثراً عميقاً على الدين اليهودي نفسه، مما أدى إلى إعادة صياغة ذلك الدين، وذلك بالحيلولة دون استمرار رفض الممارسات أو الشعائر وثمة خصوصية يهودية واضحة لفكره، لكنها خصوصية لم تحل دون شمولية التأثير، وهو ما يصدق على كثير من الحضور اليهودي في الحضارة الغربية ".

– سعد البازعي: المكون اليهودي، مرجع سابق ص١٦٣.

فمرتكزات المفاهيم الحولية الأساسية في اليهودية الحاخامية تؤكد أن الإله: موجود في كل شيء وحلولية التصور اليهودي، هي حلولية كامنة في بنية اليهودية تتفجر فى شكل حركات ماشيحانية (نسبة إلى الماشيح أو المسيح المخلص اليهودي) وهذا ما حدث بالنسبة للحسيدية([١]).

فنجد أن (بعل شيم) طوف يوصل العبارة السابقة لنتيجتها المنطقية، ويؤكد أن الإله موجود فعلا في كل شيء، في النباتات والحيوانات وفى أي فعل إنساني وفي الخير والشر ذاته، ويستخدم الحسيديون مصطلحات وصورا مجازية صوفية تقليدية، للتعبير عن رؤاهم الحلولية المتفجرة، فالخالق نور إلهي لا نهائي يختفي بشكل تدريجي حتى لا يبتلع كل شيء في جلاله وبهائه، وحتى تتمتع المخلوقات بوجود مستقل، والعالم كله بمثابة ثوب للإله صدر عنه، ولكنه جزء منه تماما مثل محارة الحيوان البحري المعروف بالحلزونة فهي قشرته الخارجية، ولكنها مع هذا جزء لا يتجزأ منه.

ويستخدم الحسديون مثلا آخر لتفسير التنوع والتعدد الظاهرين في العالم، ولتأكيد الوحدة المبدئية التي تنتظم الكون (وكل فكر صوفي حلولي هو في نهاية الأمر فكر واحدي، ينظر انفصال الخالق عن المخلوق، ويمحو كل الثنائيات وينكر بالتالي استقلال الإرادة الإنسانية)، يجلس ملك عظيم فوق عرشه في وسط قصره ذي الأبهاء الكثيرة المزينة بالذهب والفضة والأحجار الكريمة، ويأتي الخدم لزيارته فيركز بعضهم على الذهب والفضة أكثر من اهتمامهم بالتأمل في طلعة الملك البهية، ويقضون جل وقتهم في الأبهاء الخارجية يجمعون الكنوز التي يجدونها، ويستوعبهم عملهم هذا تماما حتى أنهم لا يبصرون وجه الملك بتاتا.

ولكن الخادم العاقل يرفض أن يدع أي شيء يصرف اهتمامه عن الملك، ولذلك فهو يسير ويستمر حتى يصل إلى العرش وسط القصر وحينما يصل إلى هناك فهو يكتشف على التو القصر والأبهاء وكنوزها، إن هي إلا وهم صنعته مقدرات الملك الإعجازية، وهكذا يخفى الخالق نفسه في الثوب المسمى بالكون، ويدل هذا على أن الحسيديين يؤمنون بأن الإله ذاته هو كل شيء وأن ما عدا ذلك وهم وباطل؛ لأن الأشياء المخلوقة لا حقيقة لها فكل المخلوقات لا وجود لها.

([١]) الحسيدية: كلمة مشتقة من الكلمة العبرية حسيد ومعناها التقى، وهى تستخدم في العصر الحديث للدلالة على الحركة الدينية الصوفية التي أسسها بعل شيم طوف (١٧٠٠/١٧٦١) وقد بدأت هذه الحركة في منتصف القرن الثامن عشر في بولندا وغاليسيا وأوكرانيا، وانتشرت فيها إلى بولندا وروسيا البيضاء والمجر ورومانيا، وهى أصبحت عقيدة أغلبية الجماهير اليهودية في شرق أوروبا بحلول عام ١٨٣٠م.

- دفاع عن الإنسان، مصدر سابق، ص٨٤.

" الحسيدية من حيث هي مذهب صوفي حلولي لم يبتدع أفكارا دينية أو فلسفية جديدة، فهي امتداد للحلولية اليهودية التقليدية بمزجها بين الشعب والأرض والخالق، وبمزجها بين الشعب والإله وبتأكيدها التقاليد المفتوحة بين اليهود والمستمرة بينهم، أي: أنه لا يوجد حاكم للمرسلين، وإنما يمكن لأي يهودي أن يصبح نبيا في أي لحظة ".

- المسيري: دفاع عن الإنسان، مصدر سابق، ص٨٩.

إذا نظرنا لها من زاوية نظر الخالق والقول بأن: الإله هو كل شيء يختلف عن الصيغة الإسلامية القائلة بان الله خلق كل شيء، فالأولى تفترض التوحد بين الخالق والمخلوق والثانية تفترض الانفصال، الخالق مثل الشمس والمخلوقات مثل الأشعة حسب التصور الحسيدى، أي: أنه لا وجود إلا وجود الله، ولنلاحظ الصورة المجازية للشمس والمرتبط تمام الارتباط بفكرة الفيض الإلهي على عكس التصور الإسلامي الذي يمكن أن يأخذ بمثل هذه الصورة المجازية فالخلق في أي ديانة توحيدية هو لحظة فارقة([1])، وقد تسربت مفاهيم الحسيدية بطريقة غير مباشرة إلى الحركة الصهيونية، بواسطة عدة مفكرين وفلاسفة وعلى رأسهم الفيلسوف اسبينوزا([2])، وفريديك نيتشه من بعده.

الصهيونية إيديولوجية حلولية وثنية، وقد وصفها بعض الحاخامات بأنها عقيدة شيطانية، ويصفون الدولة الصهيونية بالعجل الذهبي . وهو إله يهودي بديل عن الخالق.

والحلولية هي الأرضية التي يستند عليها الاتفاق المبرمج بين الصهاينة الملاحدة والصهاينة المتدينين، فكلاهما يتفق على أن الشعب اليهودي المقدس هو مصدر القداسة، فالمتدينون يرون أنه الخالق، ولكنه خالق حالٌ في شعبه، بينما يرى الملحدون أنه شعب مقدس، خلع القداسة على نفسه، وقد حاول سبينوزا في فلسفته عرض الواحدية المادية، وحاول كانط الدفاع عنها ولكنها أخذت تهمش تدريجياً إلى أن تصل هيجل حيث تصل الحلولية وفلسفة وحدة الوجود ذروتها([3]).

٤. العلاقة العضوية بين الحلولية والحسيدية والصهيونية:

الحسيدية مذهب من المذاهب الباطنية في الديانة اليهودية، ويشير معنى الاسم إلى وظيفته الدينية حيث المعنى هو: (التقوى أو التقوية) وهو مشتق من الحصيد بالآرامية والعربية، وهو أسافل الزرع التي

([1]) المسيري: دفاع عن الإنسان، مصدر سبق ذكره، ص٩٠.

([2]) باروخ سبينوزا (بالهولندية: Spinoza Baruch) هو فيلسوف هولندي من أهم فلاسفة القرن ١٧، ولد في ٢٤ نوفمبر ١٦٣٢م في أمستردام، وتوفي في ٢١ فبراير ١٦٧٧م في لاهاي، أعظم من تصدى لبني قومه بالنقد، ولد سبينوزا في هولندا، لعائلة برتغالية من أصل يهودي تنتمي إلى طائفة المارانيين، كان والده تاجرا ناجحا ولكنه متزمت للدين اليهودي، فكانت تربية باروخ أورثودوكسية، ولكن طبيعته الناقدة والمتعطّشة للمعرفة وضعته في صراع مع المجتمع اليهودي، درس العبرية والتلمود في يشيبا (مدرسة يهودية) من ١٦٣٩م حتى ١٦٥٠م، في آخر دراسته كتب تعليقا على التلمود، وفي صيف ١٦٥٦م نُبذ سبينوزا من أهله ومن الجالية اليهودية في أمستردام بسبب إدّعائه أن الله يكمن في الطبيعة والكون، وأن النصوص الدينية هي عبارة عن استعارات ومجازات غايتها أن تعرّف بطبيعة اللهّ، بعد ذلك بوقت قصير حاول أحد المتعصبين للدين طعنه، من ١٦٥٦م حتى ١٦٦٠م اِشتغل كنظّاراتي لكسب قوته، ثم من ١٦٦٠م حتى ١٦٦٣م، أسس حلقة فكر من أصدقاء له وكتب نصوصه الأولى من ١٦٦٣م حتى ١٦٧٠م، أقام في بوسبرج وثم بعد نشر كتابه رسالة في اللاهوت والسياسة سنة ١٦٧٠م، ذهب ليستقرّ في لاهاي، حيث اِشتغل كمستشار سرّي لجون دوويت . في سنة ١٦٧٦م، تلقّى زيارة من الفيلسوف الألماني(لايبنيتز)، توفّي سبينوزا ١٦٧٧م في ٢١ فبراير، شباط.

– موقع: ويكيبيديا الموسوعة الحرة.http://ar.wikipedia.org/wiki

([3]) المسيري: الموسوعة ١، ص١٩٢.

تبقى لا يتمكن منها المنجل، والحصيديون هم البقية الصالحة التي لم تتمكن منها ديانات ولا عادات الأغراب، ولم تصرفها عن عبادة الله على ملة اليهود([1]).

وأصبح يستخدم هذا المصطلح في العصر الحديث للدلالة على الحركة الدينية الصوفية الحلولية التي أسسها وتزعمها (بعل شيم طوف)، انتشرت الحسيدية من جنوب بولندا وقرى أوكرانيا في القرن الثامن عشر إلى وسط ليتوانيا وروسيا البيضاء، ثم المناطق الشرقية من الإمبراطوية النمساوية المجرية، ولكن أقصى تركيزها كان في الأراضي البولندية التي ضمتها روسيا إليها، وانتشرت الحسيدية في القرى والمدن الكبيرة، حتى أصبحت عقيدة أغلبية الجماهير اليهودية في شرق أوروبا بحلول عام ١٨١٥م، ويقال أنها أصبحت عقيدة نصف يهود العالم آنذاك، إلى جانب أنها عقيدة أغلبية يهود اليديشية([2]).

لذلك تعتبر الصهيونية هي ضرب من ضروب (الحسيدية اللادينية) إن صح التعبير، وقد أوجز المسيري مبيناً أوجه التشابه والالتقاء بين الحسيدية والصهيونية، وأثر الطريقة الصوفية الحلولية في الحركة السياسية في النقاط التالية:

١. الجماهير التي اتبعت الصهيونية، كانت في وضع طبقي مشابه لوضع الجماهير الحسيدية، فقد كانت جماعة وظيفية فقدت وظيفتها وغير قادرة على الاندماج في الاقتصاد الجديد وفي المجتمع الحديث بسبب وضعها الاقتصادي وخلفيتها الثقافية والدينية، وكانت في الوقت نفسه غير قادرة على التقهقر إلى داخل الجيتو؛ لذلك نجد أن الجماهير الصهيونية، مثل الجماهير الحسيدية، كانت تعبد صهيون.

٢. ساهمت الحسيدية في إشاعة جو صافى حلولي، أضعف من الانتماء الحضاري والنفسي لدى يهود شرقي أوروبا لبلادهم؛ مما جعلهم مرتعا خصبا للأيدلوجية الصهيونية، فقد صعدت الحسيدية من حب اليهود (لارتس يسرائيل) ومن كره الأغيار، وزادت من حدة النزعة القومية في الفكر اليهودي (وهى جرعة تزداد دائما بازدياد النزعة الحلولية الوثنية)، ولذا نلاحظ ازدياد الحديث عن مركزية ارتس يسرائيل عن ذي قبل، والحسيدية والصهيونية يشتركان في الإيمان بإله حلولي يوجد في كل الأشياء، يمنحها القداسة، فإله الحسديين الذي يوجد في الخير والشر وفى الحيوانات والأرض ويذهب إلى المنفى مع اليهود لا يختلف كثيرا عن إله الصهاينة المتجسد في الدولة الصهيونية وفى الأرض المقدسة، (وقد تحدث موشيه ديان ذات مرة عن الأرض الفلسطينية، مشيراً إلى أنه لا يعرف رباً سواها).

٣. الصهيونية تشبه الحسيدية في أنها حركة ماشيحانية؛ تغلغلت بين كل طبقات اليهود، وحصلت على موافقة الحاخامات وتأييدهم.

([1]) عبد المنعم الحفني: موسوعة فلاسفة ومتصوفة اليهودية، مصدر سبق ذكره، ص١٠٧.

([2]) المسيري: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية (المختصرة)، ج٢، ص١٣٧.

٤. ترجمت النزعة الدينية الحسيدية نفسها إلى حركة هجرة، ويمكننا أن نرى الهجرة الحسيدية على أنها فاتحة وتمهيد للهجرة الصهيونية، حيث إنها خلقت تربة خصبة لنمو عقلية الهجرة وهو ما سماه فيبير([١]) بالتبادل الاختياري.

٥. الصهيونية حركة ماشيحانية هروبية من واقع تاريخي مركب إلى حالة من النشوة الصوفية الحلولية الواحدية، أو إلى أوهام إيديولوجية– بالمعنى السلبي للكلمة– عن أرض الميعاد التي تنتظر اليهود، والواقع أن الصهيونية قد استفادت من المفاهيم الحسيدية الماشيحانية في إحلالها فكرة العصر الماشيحاني أو الماشيحانية بلا ماشيح، محل المفهوم الأرثوذكسي للعودة الشخصية للماشيح.

٦. تدور الحسيدية والصهيونية حول فكرة البقية الصالحة التي تحولت إلى فكرة (التساديك) في الحسيدية، وإلى فكرة النخبة الصهيونية الرائدة.

٧. تأثر الحسيديون والصهاينة بالأدب القباليشأنهم في هذا شأن معظم المثقفين في أواخر القرن الثامن عشر في أوروبا.

٨. تؤمن الحسيدية بالخلاص في هذا العالم، وبتحويل التجربة الدينية إلى تجربة شاملة تنظم كل أشكال الحياة بخيرها وشرها، وإسرائيل بالنسبة للصهاينة هي أيضاً التجربة الدينية بعد تحويلها إلى تجربة شاملة تنظم كل جوانب الحياة القومية بخيرها الافتراضي في مزارع الكيبوتس، وشرها الحتمي في جيش إسرائيل.

٩. تؤكد كل من الحسيدية والصهيونية الجوانب اللاعقلية وغير الواعية في الإنسان الأمر الذي يجعلهما تهيمان في الأساطير التاريخية.

١٠. وقفت كل من الحسيدية والصهيونية ضد حركة الاستنارة اليهودية، التي كانت تحاول حل المسألة اليهودية في شرقي أوروبا عن طريق دمج أعضاء الجماعات اليهودية في المجتمع، وطرحتا بدلا من ذلك حلولهما التي تدور في إطار الحولية الكمونية اليهودية([٢]).

([١]) ماكسيميليان كارل إميل ويبر (بالألمانية: Weber Maximilian Carl Emil) (٢١ أبريل ١٨٦٤–١٤ يونيو ١٩٢٠م) كان عالمًا ألمانيًا في الاقتصاد والسياسة، وأحد مؤسسي علم الاجتماع الحديث ودراسة الإدارة العامة في مؤسسات الدولة، وهو من أتى بتعريف البيروقراطية، وعمله الأكثر شهرة هو كتاب (الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية) حيث أن هذا أهم أعماله المؤسسة في علم الاجتماع الديني وأشار فيه إلى أن الدين هو عامل غير حصري في تطور الثقافة في المجتمعات الغربية والشرقية، وفي عمله الشهير أيضا (السياسة كمهنة) عرف الدولة: بأنها الكيان الذي يحتكر الاستعمال الشرعي للقوة الطبيعية، وأصبح هذا التعريف محوريا في دراسة علم السياسة . درس فيبر جميع الأديان وكان يرى أن الأخلاق البروستنتانتية أخلاق مثالية ومنها استقى النموذج المثالي للبيروقراطية والدي يتميز بالعقلانية والرشادة ومن الصعب تطبيقه في الواقع ولو طبق في التنظيم لوصل لأعلى درجات الرشادة.

– موقع: **Max Weber** - Wikipedia،the free encyclopedia

([٢]) المسيري: دفاع عن الإنسان، ص١٠٥ – ص١٠٦.

نقد مفهوم الحلولية عند المسيري:

انتقى الدكتور المسيري من جملة الدلالات الخاصة بالحلول، صيغة محددة تبناها، وأضاف إليها الكمونية الواحدية، دونما التفات إلى تشابك الصيغة الحلولية مطلقاً، منذ الديانات التي اقترنت باليهودية في نشأتها، حتى تأسيس دولة إسرائيل، دائماً هناك حلولية كمونية واحدية، وكأن هذا النموذج التفسيري لابد وأن ينطبق دوماً وفي كل زمان، على كل جماعة يهودية، وإذا أحصينا المرات التي تكرر فيها هذا التعبير: الحلولية الكمونية– في الموسوعة، فلن يقل العدد عن ألف مرة، وهذا ينبثق عن آلاف التفسيرات، لذلك كيف نفسر التوحيد العالي والمجرد من التشبيه عند موسى بن ميمون.

إن الاهتزازة المنهجية التي وقعت فيها الموسوعة تتمثل في أن صاحبها بدأ يؤسس نماذجه التفسيرية وعينه على اليهود تحديداً، لا يرى غيرهم... فإذا به يرى اليهود بحسب ما عكسوا على مرآته هو، حسب نماذجه التفسيرية وحدها، وإلا لم يكن من الممكن تأسيس هذه الأطر النظرية في ذاتها، ثم استخدامها استخداماً عاماً، فهو يرى في المماليك جماعة وظيفية من دون ربطها بالحلولية([١]).

(١) موقع: يوسف زيدان للتراث والمخطوطات: www.ziedan.com

المبحث الثالث

نموذج العلمانية الشاملة وعلاقته بنموذج الحلولية الكمونية

٤. تعريف العلمانية.

٥. أقسام العلمانية.

- العلمانية الشاملة.
- العلمانية الجزئية.

٦. العلمانية والنازية.

- علاقة العلمانية بالفلسفة الداروينية.
- الصهيونية والتفرقة العنصرية.

نموذج العلمانية الشاملة وعلاقته بنموذج الحلولية الكمونية

العلمانية ليست فصل الدين عن الدولة، بل هي: نزع القداسة والتكريم الإلهي عن الإنسان، وتحويله إلى مصدر طبيعي، بحيث يتم دمج الإنسان في الطبيعة واتحاده مع الألوهية كحالة تحل في الطبيعة([1])، وعندها تنمحي الفواصل ويصبح الإنسان مادة قابلة للاستعمال والفناء والاستعباد.

ومن أهم مميزات المشروع الفكري للمسيري أنه لم يقر للمشروع الصهيوني بأية قداسة أو صبغة دينية على الإطلاق، فالمشروع الصهيوني في تصور المسيري مشروع إمبريالي إحلالي، وقد قام المسيري بتشكيل منظومة منهجية معرفية في علم الاجتماع لحل وتفكيك الظاهرة الصهيونية، وتركيبها ضمن المنهجية الإسلامية ([2]).

العلمانية ووحدة الوجود المادية والمرجعية المادية الكامنة، هي الإطار المعرفي النهائي للحضارة الغربية الحديثة، والرؤية العلمانية هي في واقع الأمر رؤية حلولية كمونية مادية لا تفصل الدين عن الدولة وحسب وإنما تعزل القيم المطلقة (المعرفية والأخلاقية والإنسانية والدينية) عن الدنيا، بحيث يصبح مركز الكون كامناً فيه ويُردُّ الواقع بأسره (الإنسان والطبيعة) إلى مستوى واحد، ويصبح كله مجرد مادة محضة نافعة نسبية لا قداسة لها تُوظَّف وتُسخَّر.

والهدف من وجود الإنسان في الأرض هو زيادة معرفة قوانين الحركة والطبيعة البشرية والهيمنة عليها، من خلال التقدم المستمر الذي لا ينتهي، ومن خلال تَراكُم المعرفة وسد كل الثغرات، وقمع الآخر إلى أن يخضع كل شيء (الإنسان والطبيعة) لحكم العقل وقانون الأرقام (وهو قانون يستمد مشروعيته من المعارف العلمية المادية)، بحيث تَحوَّل الواقع بأسره (طبيعة وبشراً) إلى جزء متكامل عضوي تنظمه شبكة المصالح الاقتصادية والعلاقات المادية، فيخضع الواقع للواحدية المادية، ويصبح أشبه ما يكون بالسوق والمصنع.

وقد تم ترشيد كل شيء على هدي المعايير العلمية الواحدية المادية، والنماذج التي تستند إلى مفهوم الطبيعة–المادة، بحيث أصبح كل شيء فيه محسوباً ومضبوطاً بعد استبعاد كل الاعتبارات غير

---

(1) نزع القداسة عن العالم (الإنسان والطبيعة) (نَزْع القداسة عن العالم) ترجمة للكلمة الإنجليزية « (desanctify) أو (desacral) التي تعني نزع القداسة عن الظواهر كافة (الإنسان والطبيعة) بحيث تصبح لا حرمة لها ويُنظَر لها نظرة طبيعية/مادية صرفة لا علاقة لها بما وراء الطبيعة. أي أن نزع القداسة عن العالم هو نتيجة حتمية للإيمان بفعالية القانون الطبيعي في مجالات الحياة كافة (الطبيعية والإنسانية، العامة والخاصة). وإذا ما تم ذلك، فإن العالم (الإنسان والطبيعة). ونزع القداسة يعني فرض الواحدية المادية على الكون، بحيث يسري قانون واحد على كل الأشياء. ونزع القداسة يؤدي إلى ظهور نزعة إمبريالية لدى الإنسان، فهو ينظر إلى العالم باعتباره مادة نافعة له، يمكنه توظيفها لحسابه ويصبح الهدف من المعرفة هو زيادة التحكم، وحيث لا توجد قداسة أو حرمات أو مرجعيات أخلاقية، فلا حدود لعملية الغزو.

– المسيري، الموسوعة ١، مصدر سابق، ص٢٥٩

(٢) مازن النجار في حديثه عن المسيري، ندوة المسيري سنة ٢٠٠٧م الذي عقدتها إذاعة القدس بالتعاون مع الجزيرة مباشر.

المادية، مثل الغيبيات والمطلقات والخصوصيات، ذلك لأن ما بداخله غيب أو أسرار، وكل ما هو فردي فريد لا يمكن قياسه أو التحكم فيه أو غزوه أو توظيفه أو حوسلته.

وقد تم تهميش الإله أو إلغاؤه باسم الإنسان، وصالح الجنس البشري .وبعد إلغاء أية مرجعية متجاوزة، تظهر المرجعية الكامنة فيصبح مركز الكون كامناً فيه، ويصبح الإنسان مركز الكون (دون أي استخلاف من الإله) وتظهر الحركة الإنسانية الهيومانية، ولكن في إطار المرجعية الكامنة يُختَزل الإنسان ويُردُّ في كليته إلى الطبيعة- المادة، ويصبح إنساناً طبيعياً (مادياً) غير قادر على تجاوز ذاته الطبيعية المادية ولا يتجاوز الطبيعة- المادة بحيث يسري عليه ما يسري على الظواهر الطبيعية من قوانين وحتميات، وهذا ما يعني أن الإنسان يفقد إنسانيته المركبة، وتُنزَع عنه القداسة تماماً.

والإنسان الطبيعي إنسان لا حدود ولا قيود عليه، يقف وراء الخير والشر، متمركز حول منفعته ولذته، لا راد لقضائه أو لرغبته في البقاء، وهو لا يلتزم بأية قيم معرفية أو أخلاقية أو أبعاد نهائية، فهو يتبع القانون الطبيعي ولا يلتزم بسواه بل لا يمكنه تجاوزه، لكل هذا أصبح الإنسان كائناً غير قادر إلا على التمركز حول مصلحته ومنفعته ولذته المادية وبقائه المادي، فمفهوم الإنسانية جمعاء مفهوم أخلاقي مطلق ميتافيزيقي متجاوز لقوانين المادة، وليس هناك ما يُلزم الإنسان الطبيعي مرجعية ذاته المتمركز حولها، بأن يؤمن بمثل هذه المطلقات وهذه المُثُل العليا غير المادية، فماذا في قوانين الطبيعة وقوانين الحركة وقوانين الضرورة يُلزمه بأن يتجاوز مصلحته الخاصة الضيقة، وألا يُحوِّل الآخر إلى مادة تُوظَّف لصالحه [1].

١. تعريف العلمانية:

" يعد مصطلح (العلمانية) من أهم المصطلحات في الخطاب التحليلي الاجتماعي والسياسي والفلسفي الحديث، لكنه ما يزال مصطلحاً غير محدد المعاني والمعالم والأبعاد" ([2]).

كلمة (العلمانية) هي ترجمة لكلمة (Secularism) الإنجليزية، وهي مشتقة من كلمة لاتينية (Saeculum)، وتعني العالم أو الدنيا وتوضع في مقابل الكنيسة، وقد استخدم مصطلح (Secular) لأول مرة مع توقيع صلح وستفاليا عام ١٦٤٨م- الذي أنهى أتون الحروب الدينية المندلعة في أوربا- وبداية ظهور الدولة القومية الحديثة أي: (الدولة العلمانية) مشيرًا إلى (علمنة) ممتلكات الكنيسة، بمعنى نقلها إلى سلطات غير دينية أي لسلطة الدولة المدنية.

وقد اتسع المجال الدلالي للكلمة على يد جون هوليوك (١٨١٧-١٩٠٦م) الذي عرف العلمانية بأنها: " الإيمان بإمكانية إصلاح حال الإنسان من خلال الطرق المادية دون التصدي لقضية الإيمان سواء بالقبول أو الرفض"([1]).

([1]) المسيري، الموسوعة، ١،مصدر سابق، ص٣٠٩، وراجع : دفاع عن الإنسان ،ص٣٤٤، وموسوعة العلمانية الشاملة والجزئية ١، ٦٩.

([2]) المسيري، الموسوعة ١، ٢١٧.

أقسام العلمانية:

ويقسم المسيري العلمانية إلى قسمين هما:

١. **العلمانية الجزئية:** وهي رؤية جزئية للواقع (براجماتية) مقصورة على عالم السياسة والاقتصاد ويقصد بها فصل الدين عن الدولة، أي: فصل العمليات السياسية والاقتصادية عن الإعتبارت الدينية وقطع كل صلة بين المؤسسات الدينية عموماً والدولة خصوصاً.

والبعض يوسع هذا التعريف ليعني: فصل الدين عن كل نشاط عام يشترك الناس فيه، وهذه هي العلمانية الجزئية –في نظر المسيري– حيث أن فصل الدين عن الدولة لم يكن معناه علمنة الحياة، فالعلمانية الجزئية لا تعلن موقفاً محدداً من الدين والمبادئ الأخلاقية، والأهداف السامية لحركة المجتمع والفرد، وعليه فالعلمانية الجزئية تترك حيزاً واسعاً للقيم الدينية، إذا لم تتدخل في السياسة، كما أنها لاتنكر بالضرورة وجود مطلقات وكليات أخلاقية وإنسانية وربما دينية، أو وجود ما ورائيات وميتافيزيقا، لذا لا تتفرع عنها منظومات معرفية وأخلاقية، كما أنها رؤية محددة للإنسان ([٢]).

٢. **العلمانية الشاملة:** لعل أهم المفاصل في أطروحة المسيري حول العلمانية هو العلاقة الوثيقة التي تربطها بالنزعات الحلولية، في وجهها الروحاني الكموني والمادي الواحدي، لذلك يقترح المسيري نموذجاً نفسيرياً مغايراً يربط العلمنة بالحلولية الكمونية وليس بالتوحيد، فعملية الترشيد التي تمت في إطار حلولي كموني أدت إلى تذويب كل الثنائيات، وهيمنة المبدأ الطبيعي المادي الواحدي على كل مناحي الوجود.

لهذا السبب كانت هذه الحلولية متساوقة إلى حدٍ كبير مع حركة العلمنة بنزوعاتها المادية الدنيوية، بل إن المسيري يذهب إلى القول بأن العلمانية ليست إلا شكلاً من أشكال الكمونية المادية، وأن ماحدث من معدلات الحلولية الكمونية في الحضارة الغربية والمسيحية الغربية على وجه الخصوص، هي التي مهدت لظهور المنظومة العلمانية، وعلى هذا الأساس يذهب المسيري إلى القول: بأن العلمانية قد تخلقت في رحم الحلولية اليهودية والمسيحية، وكان ذلك بسبب تراجع أبعاد التوحيد والتجاوز وارتفاع نسب الحلول والكمون في كل منهما([٣]).

وحدة الوجود المادية (العلمانية الشاملة):

أ. يبدأ الإنسان العلماني في عالم الطبيعة والمادة، عالم الحواس الخمسة، فيبحث عن الإشباع الفوري والمباشر لحواسه وغرائزه، وعن تحقيق الحد الأقصى من الحرية الفردية والمتعة الشخصية، فلا إرجاء ولا تأجيل لإشباع الغرائز والحاجات، إذ يجب أن تختفي كل الحدود وأن تُزال كل القيود والسدود، وهكذا يركز

---

(١) المسيري، العلمانية الشاملة والجزئية ٢٤١،١. وراجع الموسوعة ١، ص٣٤٢.

(٢) مصدر سابق١، ص٢٢٠.

(٣) بوشلافة، عبد السلام، محور العلمانية والحلولية في فكر المسيري: عرض وتحليل، تعقيب ونقاش، ضمن كتاب في عالم عبد الوهاب المسيري ١–٣٠٦، مصدر سبق ذكره.

العقل العلماني على عالم الذات وعالم الحواس والمعطيات المادية، مستبعداً أي شيء يتجاوز ذلك، فالإله والقيم المطلقة أفكار مجردة تجاوز حدوده، ويتزايد التركيز على الشخصي والمباشر والمتعين حتى يصبح جسد الإنسان الحقيقة النهائية والمطلقة الوحيدة، وتصبح الأعضاء التناسلية (في الخطاب ما بعد الحداثي) الصورة المجازية النهائية.

ب. مع اختفاء المسافة بين الإنسان والطبيعة (المادة)، يذوب الإنسان فيها ويفقد ما يميِّزه كإنسان ويجد نفسه خاضعاً للحتميات الطبيعية، الموضوعية المادية .والطبيعة- المادة مجموعة من القوانين المجردة التي لا تكترث بالإنسان ولا بخصوصيته، ومن ثم تختفي تدريجياً كل الأشكال الخاصة والمتعينة، وتحل محلها القوانين الطبيعية المجردة،والمعادلات والأرقام، يتميَّز التمركز حول الذات وحول الموضوع بالصلابة، ولكن في إطار العلمانية الشاملة لا يتوقف الأمر عند هذا الحد إذ تنتقل المنظومة ككل من مرحلة الصلابة إلى مرحلة السيولة.

جـ. يحل المبدأ الواحد في كل الأشياء فتتعدد المراكز ويصبح العالم لا مركز له، وبدلاً من الواحدية الموضوعية تظهر الواحدية الذرية السائلـة، حيث تصبح كل ذرة مستقلة بذاتها، ومن ثم ننتقل إلى حالة السيولة.

وهي رؤية شاملة للعالم ذات بعد معرفي (كلي و نهائي) وتحاول بكل صرامة تحديد علاقة الدين والمطلقات الماورائية (الميتافيزيقية) بكل مجالات الحياة، وهي رؤية عقلانية مادية تدور في إطار المرجعية الكامنة والواحدية المادية التي ترى أن مركز الكون كامن فيه، غير مفارق أو متجاوز له والعلمانية الشاملة مثل الحلولية الكمونية المادية، كلاهما يؤمن بأن العالم مكتف بنفسه، وهو عالم متماسك لا ينفصل فيه الإله عن الإنسان والطبيعة، فهما معاً كل واحد متصل متماسك يخضع لقانون واحد حتمي لا مكان فيه لإرادة أو حرية الاختيار.

والمبدأ الذي يبدأ منه الكون وإليه ينتهي ليس إلهاً مفارقاً {**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**} (الشورى:١١)، بل يحل في كل الموجودات، أي: في الإنسان والطبيعة على السواء، وهذه الواحدية تعني أن كل الأشياء متساوية ونسبية ومعرفتها جميعاً تتم بالحواس الخمس، ويمكن التحكم فيها بمعرفة المزيد عن قوانين حركتها.

وتعد نظرية الداروينية([1]) خير مثال لها، فهي نظرية تقوم على أن الكائنات في حالة صراع للبقاء لا مكان فيه لأية قيم أو أخلاقيات، والعلمانية الشاملة ليست فقط فصل الدين عن الدولة أو الحياة

([1]) دراوينية: نسق حياوي (بيولجي) وفلسفي عند داروين فضلاً عن المعنى العام، وتطلق هذه الكلمة بمعنيين مختلفين هما:

١. في مقابل النشوئية بحيث تدل الداروينية على المذهب التحولي الذي يقول بأن الأنواع تخرج عن بعضها البعض، والذي يرى بنحوٍ خاص أن الجنس البشري ينحدر من أنواع حيوانية – لكن دون فرضية حول أصل الحياة والمعنى العام لتطورها.

العامة، وإنما فصل كل القيم عن كل من الإنسان في حياته العامة والخاصة والطبيعة ونزع القداسة عنهما، بحيث يصبح العالم مادة نسبية لا قداسة لها، ومن هنا فالعلمانية الشاملة هي الإمبريالية التي قامت بتحويل الإنسان إلى مادة استعماليه، يوظفها الإنسان الغربي بوصفه الأقوى لصالحه ([١]).

والعلمانية هي الخلفية التي وجهت ما يسمى بالنهضة الأوروبية للهيمنة على الشعوب المستضعفة ذات الفكر ما قبل العلمي والعقلية البدائية وعلى ما يسميه ليفي بروهيل([٢]) المجتمعات السفلى التي ذكرها في كتابه: (الوظائف الذهنية في المجتمعات السفلى، الصادر ١٩١٠م) تمييزاً لها عن المجتمعات العليا التي هي نظرة المجتمعات الغربية صاحبة العقيدة الوضعية والفكر العلمي والمالكة للوسائل التقنية والعقل المستنير؟([٣]).

لقد تعود مفكروا الغرب الحديث إقامة جدار سميك يفصل عالم الشرق الأقصى عن الغرب الأوروبي الأطلسي، بغية تاكيد تفرد هذا الأخير وتمايزه الجوهري عن أطراف المعمورة، سواء كان ذلك من وجهة البنى الذهنية أم المؤسسات الاجتماعية والسياسية، ولكن البحث العميق يبرر واقع التشابه البنيوي بين حلوليات الشرق والغرب ([٤]).

طرحت العلمانية الشاملة نفسها منذ البداية على أنها رؤية للكون، والعلمانية الغربية من وجهة نظر المسيري، هي: امتداد طبيعي للحلولية اليهودية المسيحية في العصر الحديث، التي تجسدت في فلسفة إسبينوزا– ذات المنزع الحلولي المادي– في القرن السابع عشر، ثم في فلسفة هيجل في القرن التاسع عشر.

فقد نظر إسبينوزا لضرب من الحلولية الفلسفية لا تميز بين ما أسماه بالطبيعة الطابعة والطبيعة المطبوعة، إذ حول إسبينوزا مجرى التراث اليهودي والمسيحي إلى حلولية مادية كاملة مادية تذيب الله

---

٢. في مقابل نظرية لامارك: lamark وسبنسر spencer حول التكيف بالدربة والوراثة، وتدل الداروينية على النظرية القائلة أن تحول الأنواع مرده على النخب الطبيعي، نظرية الانتخاب الطبيعي أساساً.

انظر: لالاند، اندريه، موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب، خليل أحمد خليل، تعهده واشرف عليه حصراً أحمد عويدات، بيروت، ط١، ١٩٩٦م، مج١ص٢٤٣–٢٤٤.

تنسب الداروينية الحديثة إلى العالم الإنجليزي شارل داروين (١٨٠٩–١٨٨٢) الذي عرض نظريته في التطور سنة ١٨٥٩م في كتابه (أصل الأنواع) وقد سبقه مفكرون آخرون تحدثوا عن معاني التحول والارتقاء.

- انظر: المسيلي، محسن، العلمانية فلسفة موت الإنسان ص١٤٦. مصدر سبق ذكره.

(١) المسيري، العلمانية الشاملة ١–٢٢١.

(٢) لوسيان ليفي– بريل (١٨٥٧– ١٩٣٩)، فيلسوف وعالم اجتماع، وأثنولوجي فرنسي. له بحوث في العقلية البدائية. كان أستاذاً بجامعة السوربون منذ ١٨٩٩، أهم كتبه (الوظائف العقلية في المجتمعات البدائية) ١٩١٠م، و(العقلية البدائية) ١٩٢٢م، وللأخير ترجمة عربية.

- انظر موقع: wikipedia.org/wik.

(٣) المسيري، محسن، العلمانية وفلسفة موت الإنسان، ١٩٨٦م، تونس، ط١، ص٨٢.

(٤) بوشلافة، عبد السلام، محور العلمانية والحلولية في فكر المسيري، مصدر سبق ذكره.

والإنسان في صرامة الطبيعة، كما استعمل القاموس الكلامي اليهودي والمسيحي ضمن سياقات ميكانيكية حتمية، معمماً الإمتداد الهندسي الديكارتي إلى مستوى الألوهية والذاتية الإنسانية.

أما هيجل فقد قام بنيانه الفلسفي على حلولية روحية، تجد تعبيرها المكثف في الدولة القومية باعتبارها التجلي الأسمى للعقل الكوني ([1]).

وقد أدركت الصهيونية نفسها منذ البداية باعتبارها حركة علمانية شاملة ترفض العقيدة اليهودية، وترفض الإيمان بأية مطلقات أخلاقية أو دينية متجاوزة لعالم المادة والقوى السياسية والطبقية والصراعات الفكرية، وقد اتخذ الصهاينة موقفاً لا دينياً من كثير من المفاهيم المحورية في العقيدة اليهودية، ويمكن أن نأخذ أهم العناصر المكونة للرؤية الصهيونية العلمانية الشاملة، وهي الموقف الحلولي، الإله والأرض والشعب، وبين عمق علمانية الصهيونية وتجردها من المفاهيم الدينية وهي على النحو التالي:

١. حل الإله في الأرض اليهودية والشعب حسب التصور الأرثوذكسي، وربط بينهما برباط عضوي لا يمكن فك أواصره، وبعد أن حل الإله في الأرض والشعب اليهودي فإنهما أصبحا في قداسة الإله([2]).
٢. أصبحت صهيون فلسطين ليست أرضاً ذات قداسة خاصة، مرتبطة بالخلاص، وإنما طالب بالأرض العلمانية فقط.
٣. الرؤية الصهيونية تنكر أي تجاوز معرفي أو مطلقية أخلاقية؛ لأنها تبنت الرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية وما يتبعها من تمجيد لإرادة القوة، وطرحت الصيغة الصهيونية الأساسية التي تشكل العمود الفقري لكل الصهيونيات، شعب عضوي منبوذ غير نافع ينقل خارج أوروبا ليوظف لصالح الغرب، وهي صيغة علمانية كاملة لا تعترف بقداسة أرض أو إنسان ولا تعترف بأية أخلاقيات.

وفي هذا الإطار يمكن فهم مشاريع الاستيطان الصهيونية المختلفة خارج فلسطين (صهيونية دون صهيون) فهي مشاريع استعمارية عادية، شأنها في هذا شأن أي مشروع استعماري غربي، يهدف إلى حل بعض المشاكل الاجتماعية، التي ظهرت داخل التشكيل الحضاري السياسي العربي عن طريق نقلها إلى آسيا وأفريقيا.

فالمشكلة كانت المسالة اليهودية، وكان حلها نقل اليهود إلى مكان في الأرض وتحويلهم إلى مستوطنين غربيين، وقد ظل كثير من الصهاينة ينظرون لمشروع الاستيطان الصهيوني في فلسطين من خلال المنظور نفسه أي باعتباره مشروعا استعماريا غربياً... ولا يزال التيار الصهيوني العلماني الرافض لليهودية قوياً، فمن المعروف أن الفكر الصهيوني كان يرفض استخدام اصطلاح (دولة يهودية) فكتاب هرتزل يسمى (دولة اليهود)([3])، لا الدولة اليهودية، وكانت النية متجهة نحو استخدام اصطلاح عبري بدلاً

---

(١) المصدر نفسه: ٣١٤.

([2]) المسيري، تاريخ الفكر الصهيوني، ص٦٠-٦١.

([3]) كتاب دولة اليهود لتيودور هرتزل أو الدولة اليهودية حسب تسمية النشرات المختلفة التي صدر بها الكتاب، وهو كتيب صغير كتبه هرتزل وقد حظي بمكانة منفردة في الأدبيات الصهيونية، وقد طرح فيه تيودور هرتزل حلاً جذرياً للمشكلة اليهودية التي

من يهودي، ولذا كانت تتم الإشارة إلى الدولة العبرية، ولم يتم استخدام مصطلح دولة يهودية إلا في مراحل متأخرة، والصهاينة الحقيقيون هم صهاينة إلحاديون تماماً([1]).

٣. العلمانية والنازية:

"وهي تعبير مباشر عن الإنسان الطبيعي المادي، الإنسان كمادة محض وكقوة إمبريالية كاسحة، فالمجتمع النازي يعتبر أن الإنسان كائناً طبيعياً مرجعيته النهائية الطبيعة، ومرجعيته الأخلاقية المادية إرادة القوة، ولهذا نظر إلى البشر جميعا باعتبارهم مادة استعماليه يمكن توظيفها، ويقوم الأقوى والأصلح بهذه العملية لصالحه.

ومن هنا تم تقسيم البشر من منظور مادي مرشد إلى أشخاص نافعين وغير نافعين، وتقرر إبادة بعض غير النافعين منهم ممن لا يمكن إصلاحهم، وتحويلهم إلى عناصر منتجة، وقد تجسدت هذه الرؤية في معسكرات الاعتقال النازي حيث طبقت عليهم فلسفة ونماذج محسوبة ومحسومة بشكل رياضي صارم، تم تطهيرها تماماً من ظلال الإله فلا رحمة فيها ولا تراحم، ولا مجال فيها لأية غائيات أو مرجعيات إنسانية؛ لأن المرجعية الوحيدة هي المنفعة المادية وإرادة القوة، ولذا أعطي كل إنسان رقماً حتى تحول إلى مادة استعمالية تولد فيها الطاقة عمالة رخيصة، أو سلع تحويل العظام إلى سماد، والشحوم الإنسانية إلى صابون، والشعر البشري إلى فرش، وعلى هذا النحو يتم تعظيم الفائدة وتقليل العادم.

وبالمثل لا تعتبر اللحظة الصهيونية انحرافاً عن الفكر العلماني الشامل، بل تمثل تبلوراً جاداً له، حيث نظرت إلى فلسطين باعتبارها أرضاً بلا شعب، وحولت كل شيء إلى مادة، فأصبحت فلسطين أرضاً تستغل، وأصبح الفلسطينيون أنفسهم مادة بشرية تنقل وتباد وتستغل، وأصبح العلماني هي عادة، ويصبح كل شيء قابلاً للاستعمال والنقل ([2]).

علاقة العلمانية بالفلسفة الداروينية ومدى تأثيرهما وتأثرهما ببعضهما البعض([3]):

كانت موجودة حتى عام ١٨٩٥م، وقد ساهم الكتاب في إرساء قواعد الخطة المدروسة للحركة الصهيونية وللدولة التي ينشدها هرتزل منذ مائة عام، وهو بمثابة دليل ودستور نحو إنشاء تلك الدولة، فقد عملت الحركة الصهيونية بأفكاره وخطت على هداه وخطواته، بل إن بعض رجال الحركة الصهيونية اعتبروه بمنزلة لا تقل عن التوراة.

– راجع يوميات هرتزل، تحرير: الدكتور أنيس صايغ، بيروت، مركز الأبحاث، وراجع: منصور، معجم الأعلام والمصطلحات الصهيونية والإسرائيلية، ص٢٣٤.

([1]) المسيري، تاريخ الفكر الصهيوني، ص٦٣، مصدر سبق ذكره.

([2]) المسيري، العلمانية الشاملة ٢٤٨/١-٢٤٧.

(٣) كان المسيري يربط بين الوضعية المنطقية ونظرية داروين، وبين المأكولات السريعة، وفلسفة ما بعد الحداثة، بين مبدأ المنفعة وهتلر والصهيونية.

– جلال أمين، المثقف إذ يلحظ الروابط بين الأشياء، بحث ضمن كتاب: في عالم عبد الوهاب المسيري، ٢-٢٨٣.

لا توجد فلسفة أثرت في عصرنا الحديث أكثر من الفلسفة الداروينية، كما لا توجد فلسفة بلورت الرؤية العلمانية الشاملة للكون أكثر من الفلسفة الداروينية، ويكمن تأثيرها على النحو التالي:

١. رسخت الفلسفة الداروينية أفكار الواحدية المادية التي تذهب إلى إن العالم: مادة واحدة صدر عنها كل شيء، مادة خالية من الغرض والهدف والغاية، ولا توجد داخلها مطلقات متجاوزة من أي نوع، فالعالم طبيعة والطبيعة محايدة لا تعرف الخير أو الشر أو القبح أو الجمال، ولا توجد أية ثغرات في الكون، إذ أن المنطق المادي حتمي شامل يشمل كل شيء، ولا توجد ثنائيات في الكون إذ يرد كل شيء إلى المادة، ويفسر كل شيء بالتطور المادي.

ومن ثم يمكن القول بأن الداروينية هي أساس اليقينية العلمية الزائفة، التي ظهرت في القرن التاسع عشر، والإطار الذي ظهرت من خلاله فكرة نهاية التاريخ([١])، وقد تبدت هذه المنظومة الداروينية بشكل واضح في الرؤية العلمانية الإمبريالية من إنكار قيمة أي شيء، أو أية مرجعية متجاوزة إلى تأكيد الصراع والإصرار على حرية السوق وآلياته، وعدم تدخل الدولة بحيث يهلك الضعفاء ولا يبقى سوى الأقوياء.

والإمبريالية هي الرؤية الداروينية بعد تدويلها حيث أصبح العالم كله سوقاً، أو مسرحاً لنشاط الإنسان الأبيض المتفوق الذي أباح لنفسه قتل الآخر ضماناً لبقائه وتأكيداً لقوته... وكذلك الفكر الصهيوني مثله مثل الفكر النازي ترجمة للرؤية الداروينية، فالصهاينية قاموا بغزو فلسطين باسم حقوقهم اليهودية المطلقة التي تنفي حقوق الآخرين، كما أنهم جاؤوا إلى فلسطين ممثلين للحضارة الأوربية حاملين عبء الرجل الأبيض، وهم نظراً لقوتهم المادية العسكرية، ذوو مقدرة أعلى على البقاء، أي: أنهم جاؤوا من الغرب مسلحين بمدفعية أيديولوجية وعسكرية وداروينية علمانية شاملة ثقيلة، وقاموا بتشويه الأمور من خلال المدفع الدارويني النيتشوي، فذبحوا الفلسطينيين وهدموا قراهم واستولوا على أراضيهم، وهي أمور شرعية تماما من منظور دارويني علماني شامل، بل واجبة([٢]).

٢. رسخت الفلسفة الداروينية أفكار الواحدية المادية التي تذهب إلى أن العالم إن هو إلا مادة واحدة صدر عنها كل شيء، مادة خالية من الغرض والهدف والغاية، ولا توجد داخلها مطلقات متجاوزة من أي نوع، فالعالم طبيعة، والطبيعة محايدة لا تعرف الخير أو الشر أو القبح أو الجمال، ولا توجد أية ثغرات في الكون إذ أن المنطق المادي حتمي شامل يشمل كل شيء، ولا توجد ثنائيات في الكون إذ يُرَد كل شيء إلى المادة ويُفسَّر كل شيء بالتطور المادي، ومع هذا توجد الثنائيات الاجتماعية الصلبة: الأقوياء، الضعفاء، الأثرياء، الفقراء، السادة، العبيد، القادرون على البقاء، ضحايا الصراع.

٣. الإنسان إن هو إلا جزء من هذه الطبيعة وهذه المادة، وقد صدر هو أيضاً عنهما من خلال عملية التطور، إذ لا يوجد سوى قانون طبيعي واحد يسري على الإنسان والأشياء، فالوجود الإنساني نفسه يتحقق

([١]) المسيري، الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ، ص٦٧.

([٢]) المسيري، العلمانية الشاملة، ٢– ص٦٩.

من خلال الآليات التي يتحقق من خلالها وجود كل الكائنات الأخرى، أي الصراع والقوة والتكيف، وهو وجود مؤقت، تماماً مثل مكانته في قمة سلم التطور، إذ أنه حتماً سيفقد مكانته هذه من خلال سلسلة التطور التي دفعته إلى القمة، بل يمكن القول بأن الأميبيا من منظور تطوري صارم أكثر تميزاً من الإنسان؛ لأنها حققت البقاء لنفسها مدة أطول من الإنسان، والإنسان شأنه شأن الأميبيا، لا يتمتع بأية حرية ولا يحمل أية أعباء أخلاقية، فالقوانين الأخلاقية هي مجرد تَطوُّر لأشكال من السلوك الحيواني الأقل تطوراً والحرص الغريزي على البقاء البيولوجي، وهذا يعني أن القانون الأخلاقي، وكل القوانين هي قوانين مؤقتة نسبية، ترتبط بحلقة التطور التي أفرزتها، ولذا يتم الاحتفاظ بالقوانين طالما أنها تخدم المرحلة.

ومن ثم فإن الأخلاق المطلقة تقف ضد التقدم العقلاني المادي، وخصوصاً إذا كانت أخلاقاً دينية تدعو إلى حماية الأضعف والأقل مقدرة إلى الإشفاق عليه والعناية به، وهذا يعني أن كل الأمور نسبية تماماً ولا توجد أية مطلقات، ولذا يمكن القول بأن النظرية الداروينية هي الأساس العلمي للفكر النسبي، وإذا كان التطور يتم أحياناً عن طريق الصدفة، وتحدده الحوادث العارضة، فيمكن القول بأن النظرية الداروينية هي أيضاً أساس الفكر العبثي.

٤. إذا كان الأمر كذلك، فإن أفضل طريقة لتفسير سلوك الإنسان ووجوده لا يمكن أن تتم إلا من خلال النماذج الطبيعية المادية، ومن هنا حتمية وحدة العلوم، وإذا كان للظاهرة تاريخ، فهو تاريخ مادي يمكن دراسته من خلال دراسة بنية الظاهرة المادية.

وقد قام داروين نفسه بتفسير الظواهر البيولوجية من خلال دراسة تاريخها البيولوجي، وكما قال أحد الباحثين فإن هذا يعني في واقع الأمر عدم وجود أي فارق أساسي بين مجموعة من الشبان الذين يختطفون فتاة ويغتصبونها ثم يقتلونها، وقطيع من الذئاب تهاجم ظبياً وتلتهمه، فكلاهما تدفعه غريزة طبيعية مادية قوية، ولعل الفارق الثانوي الوحيد أن الشبان قد هاجموا عضواً من نفس نوعهم، وهو الأمر الذي يعوق عملية البقاء، وهذا هو المنطق الوحيد المقبول في إطار دارويني عقلاني مادي.

٥. رغم الواحدية المادية التي تَصدُر عنها الداروينية، ورغم رفضها لأن تكون أية نقطة متجاوزة للمادة مصدراً للحركة، ورغم أنها تفترض عدم وجود مخطط إلهي وراء الكون، فإنها مع هذا كله تفترض وجود غائية طبيعية كالتطور باعتباره حركة من نقطة أدنى إلى نقطة أعلى، ومن التجانس البسيط إلى اللاتجانس المركب، حركة حتمية تماماً مثل التقدم الحتمي الذي تفترضه معظم الأيديولوجيات العلمانية. والغائية التي يطرحها داروين غائية غير متجاوزة تأخذ شكل إيمان بأن هناك غاية كامنة في الطبيعة نفسها.

لكن هذه الغائية قد تكون زيادة في التركيب والتطور من البسيط إلى المركب، وقد تكون شيئاً يُسمَّى: إرادة الحياة، أو القوة، وقد يكون شكلاً من أشكال الوعي ظهر بالصدفة من خلال عملية كيماوية زادت المادة تركيباً، والمهم أن التطور مهما بلغ بالكائنات من ارتفاع ورقي، فليس ثمة تجاوز إذ أن كل شيء (وضمن ذلك الإنسان) أصله مادي ويُرَد إلى المادة.

وينطبق الشيء نفسه على نظرية الأخلاق، فالبقاء هو القيمة الوحيدة، والصراع هو الآلية، والأنانية وحب الذات هما مصدر الحركة، ولذا فإن العالم هو ساحة قتال بين الذئاب من البشر (والإنسان ذئب يفترس أخاه الإنسان) وبين الأمم التي لابد أن تصرع بعضها بعضاً لغاية البقاء، فهي حرب الجميع ضد الجميع. ولا توجد قيمة مطلقة لأي شيء، إذ أن ما يحدد القيمة هو القدرة على الصراع والبقاء.

ويمكن القول بأن النظرية الداروينية هي خليط من الصورة المجازية العضوية والصورة المجازية الآلية، فالكون في حالة تَطوُّر عضوي مستمر، يتبع نمطاً ثابتاً لا يتغيَّر، ومن ثم لا يختلف التطور العضوي عن الحركة الآلية في النمطية أو الرتابة.

وقد تبدَّت هذه المنظومة الداروينية بشكل واضح في الرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية، من إنكار قيمة أي شيء أو أية مرجعية متجاوزة إلى تأكيد ضرورة التنافس والصراع والإصرار على حرية السوق وآلياته، وعدم تدخُّل الدولة بحيث يهلك الضعفاء، ولا يبقى سوى الأقوياء، والإمبريالية هي تدويل للرؤية الداروينية حيث أصبح العالم كله سوقاً، مسرحاً لنشاط الإنسان الأبيض المتفوق، الذي أباح لنفسه قتل الآخر ضماناً لبقائه وتأكيداً لقوته، وقد ساهمت الداروينية أيضاً في تزويد النظريات العِرْقية الغربية، والتجارب الخاصة بتحسين الأجناس والنسل والقتل الرحيم على أساس علمي.

كما هيمنت النظرية التطورية (ذات الأصل الدارويني) على العلوم الاجتماعية، فالإيمان بالتقدم والحتمية التاريخية جميعها أشكال من التطورية، وهناك كثير من النظريات التاريخية والاجتماعية تُعَد تطبيقات لمبدأ التطور من التجانس البسيط إلى اللاتجانس المركب، فقد درس (هربرت سبنسر) التاريخ باعتباره تطوراً من المجتمع العسكري إلى المجتمع الصناعي، ورآه (دوركهايم) تطوراً من التضامن الميكانيكي إلى التضامن العضوي، ورآه ماركس تطوراً من الشيوعية البدائية إلى الشيوعية المركبة (عبر حلقات محددة: المجتمع العبودي فالإقطاعي فالرأسمالي فالاشتراكي).

بينما بيَّن (أوجست كونت) أن التطور هو تَطوُّر من مجتمع يستند إلى السحر إلى مجتمع يستند إلى الدين وصولاً إلى المجتمع الحديث الذي يستند إلى العلم، والفكر العِرْقي الغربي هو فكر تطوري، إذ يرى أن الإنسان الأبيض هو آخر حلقات التطور وأعلاها، ولذا فله حقوق معينة، وقد تبلور الفكر التطوري العِرْقي في الأيديولوجيا النازية، التي تبنت تماماً فكرة وحدة العلوم وَطبَّقت القوانين الطبيعية بصرامة على الكافة، وحاولت الاستفادة من قوانين التطور من خلال قواعد الصحة النازية (إبادة المعوقين والمتخلفين عقلياً وأعضاء الأجناس الأخرى) ومن خلال محاولات تحسين النسل عن طريق التخطيط، وعقد زيجات أو تنظيم علاقات إخصاب تؤدي إلى إنجاب أطفال آريين أصحاء.

الصهيونية والتفرقة العنصرية:

الصهيونية لا تختلف من قريب أو من بعيد عن كثير من أيديولوجيات المستوطنين البيض النازيين، بل وكثير من الأيديولوجيات، ومع هذا فقد استخدموا ديباجات مسيحية لتسويغ كل أفعالهم، ومن ذلك إبادة الملايين، بل أسسوا كنيسة مسحية تستبعد السود ولا تسمح لهم بالانضمام لها، وهذا أيضا ما

فعله النازيون الذين كانوا يؤمنون بأيديولوجية حلولية وثنية تماماً، تحاول بعث التاريخ الألماني قبل دخول المسحية في ألمانيا، وقبل تغلغل أخلاق الضعفاء بين أعضاء الجماهير لهذه الإيديولوجية، دون إفزاعها بالإلحاد الكامن والوثنية المتضمنة، لكل هذا نجد أن الصيغة الصهيونية التي شاعت هي التي تدور في أطار الحلولية الكمونية العضوية، والتي تستخدم ديباجات دينية أو شبه دينية رغم أنها لا يربطها بالدين الإمبريالية[١].

---

(١) المسيري، تاريخ الفكر الصهيوني، ص٦٥-٦٦.

الفصل الرابع
الجماعات الوظيفية

المبحث الأول: الجماعات الوظيفية والدولة الوظيفية (إسرائيل نموذجاً).

- **مفهوم الجماعات الوظيفية.**
- **تعريف الجماعات الوظيفية.**

المبحث الثاني: أهم الأسباب التي أدت إلى ظهور الجماعات الوظيفية.

- **علاقة الجماعات الوظيفية بظهور العلمانية.**
- **أهم سمات الجماعات الوظيفية.**

المبحث الأول: الجماعات الوظيفية والدولة الوظيفية (إسرائيل نموذجا)

مفهوم الجماعات الوظيفية:

يحتل نموذج الجماعات الوظيفية لدى المسيري ركناً هاماً من أركان منظومته التفسيرية للحركة الصهيونية والجماعات اليهودية عبر التاريخ، ويتصف مفهوم الجماعة الوظيفية عند المسيري بأنه: نموذج تركيبي([1])، مكثف له مقدرة تفسيرية عالية تفوق القدرة التفسيرية، لكثير من النماذج التفسيرية، مثل مفهوم الطبقة – مفهوم الجماعة الوسيطة([2])، وله أهمية كبيرة في كتبه وأبحاثه، ويستحوذ على مساحة كبيرة من نماذجه التركيبية، وهو في الواقع أداة منهجية، أو نموذج معرفي([3])، بل يعتبر من أهم أركان نماذجه التفسيرية.

وهو يحاول عبر هذا المفهوم أن يضع الصهيونية والجماعات الوظيفية اليهودية، في إطار نزعة العلمنة الشاملة في الحضارة الغربية، وقد خلص المسيري من خلال دراساته، لملامح النموذج التفسيري

([1]) النموذج التركيبي: هو النموذج الذي لا يختزل الواقع وإنما يفسره على أساس مركب من العناصر المادية والمعنوية.

- المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، الموسوعة الموجزة، دار الشروق، ٢٠٠٦م، القاهرة، ط٢، ج١،ص٢٢.

" والنموذج المركب ينكر الواحدية السببية ولكنه لا يسقط في العبثية... وهو ينطلق من تركيبة الواقع الإنساني والواقع المادي، ومن ثم فإنه يطرح إمكانية المعرفة وأن الحقيقة يمكن الوصول إليها، ولكنها معرفة إنسانية ناقصة وحقيقة غير مطلقة؛ لأن المعرفة المطلقة تقع خارج نسق التاريخ الإنساني، وعند الإله وحده، فالكمال لله وحده، وهو العليم بكل شيء والقادر على كل شيء".

– راجع بتوسع: المسيري، دفاع عن الإنسان دراسات نظرية وتطبيقه في النماذج المركبة، ٢٠٠٦م، ص٣١٣–٣٢٠.

([2]) المسيري، عبد الوهاب، الجماعات الوظيفية ص١٢.

([3]) النموذج المعرفي: النموذج هو: بنية تصورية يجردها العقل البشري من كم هائل من العلاقات والتفاصيل والوقائع والأحداث، فيستبعد بعضها لعدم دلالتها (من وجهة نظر صاحب النموذج) ويستبقي البعض الآخر، ثم يرتبها ترتيباً خاصاً وينسقها تنسيقاً خاصاً بحيث تصبح مترابطة بشكل يماثل العلاقات الموجودة بالفعل بين عناصر الواقع... وكلمة (نموذج) قريبة من كلمة Them الإنجليزية، وهي تعني الفكرة المجردة والمحورية في أي عمل أدبي وهي التي تمنحه وحدته الأساسية وتربط بين عناصره المختلفة... والنموذج لا بد أن يكون له بعد معرفي، وبواسطة النموذج يتم الوصول إلى الصيغ الكلية والنهائية للوجود الإنساني (وتعبير الكلية يعني الشمول والعموم، وتدور النماذج المعرفية حول ثلاثة عناصر أساسية: الإله والطبيعة والإنسان) ويركز المسيري على الإنسان الموضوع الأساسي للعلوم الإنسانية، إضافة إلى تحديده موقفاً من العنصرين الآخرين، الإنسان والطبيعة... والنموذج المعرفي يتجاوز المضمون بل والشكل (بالمعنى السطحي لكلمة الشكل) ليصل إلى العلاقات الأساسية التي تربط بين العناصر المختلفة المكونة للظاهرة.

– انظر: المسيري، دفاع عن الإنسان، ص٢٩٨–٣٠٥.

هو النموذج الذي يحاول أن يصل إلى صيغ الوجود الإنساني الكلية، وكل النماذج المعرفية تدور حول ثلاثة عناصر أساسية (الإله والطبيعة والإنسان)... وكل خطأ سياسي مهما كان سطحياً يتأسس على نموذج معرفي، سواء كان هذا النموذج ظاهراً أو كامناً.

– انظر: المسيري، الموسوعة المختصرة، ١– ص٢٢. بتصرف.

بأن تبدى له من خلاله بشكل واضح، وأكبر مثال للتطبيق وهو: (الجماعات الوظيفية) التي أفرد لها ركناً هاماً في (نموذجه التفسيري)، حيث تنظر تلك الجماعات لوظيفتها بأنها ركن هام ومركز من مراكز الحلول([١]).

وينوه سعد البازعي في مقالة له بدور المسيري في التقدم والإبداع وإضافة الجديد لعلم الإجتماع فيقول: " استطاع المسيري أن يقدم لدارسي علم الاجتماع مفهوماً يساعد على تفسير دور جماعات، مثل: اليهود في كيانات مجتمعية ضخمة، ويفتح الحديث عن هذا المفهوم الدور الكبير الذي قام به المسيري في تطوير الدراسات اليهودية أو الدراسات المتصلة باليهود والصهيونية، وعلاقة هذه بالتشكيل الحضاري الغربي على مستويات مختلفة، ولعل هذا الجانب هو الأشهر بين أعمال المسيري، لاسيما موسوعته الكبيرة ودراساته العديدة للصهيونية وما يتصل بها([٢]).

وقد انطلق المسيري في تحليله لمفهوم الجماعات الوظيفية من خلال طرحه لفكرة النموذج كأداة تحليلية بديلاً عن الاتجاه السائد، والنزوع نحو الموضوعية المتلقية، وتوجهها نحو التراكم المعلوماتي وتصوير الواقع بصورة سلبية، فكانت فكرة (النموذج) كأداة تحليلية –كما أسلفت– وقد استخدم في الموسوعة ثلاثة نماذج مترابطة لتحليل الظواهر: اليهودية، والصهيونية، والإسرائيلية، وهي نموذج: الحلولية([٣])، ونموذج العلمانية الشاملة ونموذج الجماعات الوظيفية، وقد استخدمه بشكل أكبر تخصصاً([٤]).

تعريف الجماعات الوظيفية:

([١]) المقصود هنا: السيادة وخلق جو من الأهمية والدور الذي تقوم به تلك الجماعات.

([٢]) www.al-jazirah.com.sa/culture/09042007/almlf28.htm .

– انظر: الدكتور سعيد البازعي، المسيري وأشكلة المفاهيم.

([٣]) الحلولية: الحلولية الكمونية الواحدية: مذهب يقوم على أن الكون كله، وما فيه: (الإله والإنسان والطبيعة) وحدة واحدة فلا يوجد هذا العالم وعالم الآخرة ولا عالم المادة وعالم الروح، فعالم المادة هو ذاته عالم الروح، فالعالم مكون من جوهر واحد مكتف بذاته.

– الموسوعة الموجزة ١،ص٢٥.

ومن ثم فإن هذا المذهب ينكر وجود الحيز الإنساني المستقل، كما ينكر إمكانية الحرية والتجاوز وهو يصل إلى الذروة في وحدة الوجود ومذهب الحلول مذهب أحادي إختزالي، فهو يختزل الإنسان ويساويه بالكائنات الطبيعية، دفاع عن الإنسان، ص٣٥٧ ويرى الباحث أن هذا المذهب نابع من الرؤية المادية ومبادئ الفلسفات الإلحادية كالفلسفة الماركسية بشقيها: المادية الديالكتيكية (الجدلية) والمادية التاريخية، وتوج تلك المذاهب الفليسلوف الألماني فريديريك نيتشه المعروف بفلسفته العدمية، وهذه الفلسفات مخالفة للعقيدة الإسلامية وجميع العقائد التوحيدية.

([٤]) انظر: المسيري، رحلتي الفكرية، ص٥٨٥.

الجماعة الوظيفية مجموعات بشرية تستجلب من خارج المجتمع أو تجند من داخله ثم يوكل لها وظائف شتى لا يمكن لغالبية أعضاء المجتمع الاضطلاع بها لأسباب مختلفة، من بينها أن هذه الوظائف قد تكون مشينة كالربا والبغاء، أو متميزة كالقضاء والترجمة (أو ذات حساسية خاصة أو طابع أمني) حرس الملك– طبية– الشعراء– الجواسيس، ثم يعرف أعضاء هذه الجماعة في ضوء وظيفتهم الضيقة المحدودة لا في ضوء إنسانيتهم الرحبة المركبة، فكل جماعة وظيفية يهودية كانت مرتبطة قي نهاية الأمر بالمجتمع الذي تنتمي إليه، وتتفاعل معه وتستمد هويتها منه، ولكن الصهاينة يؤكدون مع هذا أن هناك وحدة أزلية تجمع اليهود ويخلصون من هذا إلى أن الدولة الوظيفية في فلسطين أمر حتمي ومنطقي([1]).

مفهوم الجماعة الوظيفية اليهودية:

ينطلق المسيري من خلال دراسته لتواريخ الجماعات اليهودية عبر التاريخ بمفهوم جديد مبتكر، ومغاير للمفاهيم السائدة التي كرستها الكتابات الأوروبية والصهيونية، وبعض من تأثر بها من المؤلفين والكتاب العرب، حيث خلص المسيري لمفهوم الجوهر الوجودي الذي تتذرع به الجماعات اليهودية عبر التاريخ، وهو مجموعة من الخصائص الثابتة في ظاهرة الجماعات اليهودية، التي يزعم أعضاؤها بأنها ظاهرة ثابتة لا تتغير ولا تتبدل ولا تتأثر بالمكان ولا بالزمان، وقد أصبح يطلق عليها (فكرة الجوهر اليهودي الخالص)، وهي فكرة كامنة وراء العديد من المفاهيم والمصطلحات والنماذج التفسيرية المستخدمة في دراسة الجماعات والعقائد اليهودية، مثل: التاريخ اليهودي، والشخصية اليهودية، والعبقرية اليهودية، والجريمة اليهودية، والشعب اليهودي، والعرق اليهودي والأثينية اليهودية.

فكل هذه المصطلحات تفترض وجود الجوهر الخالص الثابت الذي يجعل من يهودية اليهودي النقطة المرجعية الأساسية، "وبالتالي نفي وإنكار جميع المكونات الحضارية الأخرى، التي تفاعلت معها الجماعات اليهودية عبر التاريخ"([2])، وتميل معظم الدراسات التي تتناول أعضاء الجماعات اليهودية إلى النظر إليهم باعتبارهم كياناً واحداً متجانساً مستقلاً، له آلياته وحركياته وأنماط تطوره الخاصة به والمقصورة عليه، والتي يمكن فهمها من خلال إدراك ما يُسمى (الخصوصية اليهودية)، ومن خلال دراسة ما يُسمى بالتاريخ اليهودي، ولكن رؤية المسيري من خلال النماذج التي يطرحها مختلفة تماماً، حيث إن كثيراً من جوانب حياة أعضاء الجماعات اليهودية لا يمكن تفسيرها إلا من خلال دراسة سياقهم التاريخي والإنساني العام، ومقارنتهم بأعضاء الأقليات الدينية الأخرى([3]).

([1]) المسيري، الجماعات الوظيفية اليهودية نموذج تفسيري جديد، دار الشروق، القاهرة، ط٣، ٢٠٠٧، ص٥–٦. وراجع لنفس المؤلف: الموسوعة الموجزة لموسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، دار الشروق، القاهرة، ط٣،ج١،ص٢٨–٢٩.

([2]) انظر: المسيري، موسوعة اليهودية والصهيونية، ص١٣، وراجع: (العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة: ص٢٦٩) لنفس المؤلف.

([3]) المسيري، الموسوعة مصدر سابق ٢– ص٢٣٣.

المبحث الثاني: أهم الأسباب التي أدت إلى ظهور الجماعات الوظيفية:

يعزو المسيري أسباب عديدة لظهور الجماعات الوظيفية، من أهمها:

١. حاجة أعضاء النخبة الحاكمة إلى جماعة بشرية ليست لها قاعدة من القوة بسبب عزلتها عن الجماهير، ويمكن استخدامها لتنفيذ مصالحها دون أن تكون لهذه الجماعة المقدرة على المشاركة في السلطة بسبب افتقادها للقاعدة الجماهيرية، وهي لهذا السبب ستلتصق تماماً بالنخبة الحاكمة فستقوم على خدمتها بولاء أعمى، إذ أن بقاءها الجسدي ذاته منوط بمدى رضا النخبة الحاكمة، وعادة ما تكون قوات الحرس الملكي وأحياناً كل من يعمل داخل البلاط الملكي من المتعاقدين الغرباء، بل من الممكن أن يتم استجلاب جماعة وظيفية لضرب طبقة صاعدة...([١]).

٢. يتصف أعضاء الجماعة الوظيفية عادةً بأنهم: من حملة الفكر الحلولي والعلماني الشامل: (وهكذا تلتقي النماذج الثلاثة) فهم يتحولون إلى شعب مختار لا علاقة له بالآخر، بل يقوم بحوسلته، فالآخر ما هو إلا مصدر للربح والنفع لعضو الجماعة الوظيفية، وهذا من أسباب ازدواجية المعايير التي يتسم بها عضو الجماعة الوظيفية، فهو يحكم على جماعته بمعيار وعلى الآخر بمعيار آخر.

كما أن علاقته بأعضاء جماعته قوية للغاية، فهو يعتمد على الجماعة لبقائه واستمراره، بينما تتسم علاقته بأعضاء المجتمع المضيف بالبرود والتعاقدية، وتظل الجماعات الوظيفية قائمة، تضطلع بوظيفتيها إلى أن تظهر جماعات محلية قادرة على الاضطلاع بهذه الوظائف، فيتم الاستغناء عن الجماعة الوظيفية وتصفيتها، وتصبح وظائفها عادية يقوم بها أي عضو كفؤ في المجتمع، وهذا ما حدث للجماعة اليهودية في الغرب، إذ أصبحت جماعات وظيفية دون وظيفة، وهذا هو جوهر المسألة اليهودية الذي نشأ وتطور فيما بعد-حسب رؤية المسيري-([٢]).

وقد بيّن المسيري أن نموذج الجماعة الوظيفية بدأ في الظهور في موسوعته الصادرة عام ١٩٧٥م، وخرج من عالم التجارة إلى عالم النشاط الإنساني ككل، ووضع الغريب في المجتمعات الإنسانية، بل والطبيعة ذاتها، (أو الإنسانية المشتركة)-على حد تعبيره- ودراسات أعمال عالم الاجتماع الألماني (زيميلZimmmel) الذي كتب عن سوسيولوجيا الغريب.

وبطبيعة الحال قراءته لبعض أعمال ماركس وماكس فيبر وفرنر وسومبارت (Werner Sombart) حيث ركزوا في أعمالهم على إشكالية أصول الرأسمالية وعلاقتها باليهود واليهودية (رأسمالية اليهود المنبوذة كما يسميها فيبر)، كما ساعدته دراساته لبعض الأدبيات الخاصة بالجماعات الهامشية في علم الاجتماع الغربي([٣]).

([١]) المسيري، رحلتي الفكرية مصدر سابق، ص ٥٨٩.

([٢]) المصدر نفسه، ص٥٨٩- ٥٩٠.

([٣]) المصدر نفسه، ص ٥٩٦.

ويرتبط بمفهوم الجماعة الوظيفية: مفهوم الدولة الوظيفية، والدولة الوظيفية هي: الدولة التي تؤسس أويعاد صياغة توجهها، أو توجه نخبتها الحاكمة لتضطلع بوظيفة معنية، ويصبح جوهرها هو هذه الوظيفة وهي تشكل إعادة إنتاج لدور الجماعة الوظيفية في العصر الحديث([١]).

وبصدد جذور مفهوم الجماعة الوظيفية وما يتعلق به من جميع الجوانب مع إيضاح علاقته بالحضارة الغربية بالمفكرين الغربيين وقفت على مقالة هامة لباحث مغربي([٢]) أفدت منها حيث أنها تلقي الضوء على كنه هذا المفهوم ونشأته وجذوره وتطوره في أوروبا.

وقد وضح الباحث كيف اعتمد المسيري آلية تحليلية تتمثل في النموذج التفسيري الثالث، أي: نموذج الجماعات الوظيفة، وهو من المفاهيم التحليلية الرئيسية عند المسيري، ويعود الفضل في ظهوره وتبلوره بالدرجة الأولى إلى تجربته الحياتية، حيث أدرك وعاش الفرق بين التعاقد والتراحم، مما ساهم في تطوير هذا المفهوم: (الجماعة الوظيفية جماعة تعاقدية لا تدخل في علاقة تراحمية مع المجتمع) وقد قارن المسيري ولاحظ الفروق الواضحة بين البرجوازية الريفية والبرجوازية الحضرية (بورجوازية أهل القاهرة والإسكندرية) مما أوصله إلى نتيجة مفادها: أن موقع الإنسان الطبقي وحده لا يحدد موقفه، وأن هناك عناصر غير اقتصادية، مثل: الانتماء والثقافة تمتزج مع العناصر الاقتصادية، بحيث لا يمكن فصل الواحد منها عن الآخر([٣]).

وينُوه المسيري بالتأثير الكبير والمباشر لكتابات: كارل ماركس، وأبراهام ليون على تبلور فكرة الجماعة الوظيفية وسيادة العلاقات التعاقدية، فيقول: كان يمكن لكل هذه التجارب أن تظل مجرد تجارب شخصية، لولا قراءتي لكتاب (ماركس: المسألة اليهودية)، الذي يتحدث فيه عن سيادة العلاقات التعاقدية في المجتمع بحسبانه (تهويداً) للمجتمع.

وكذلك كتاب المفكر الماركسي (التروتسكي) أبراهام ليون (Abraham Leon)، الذي يتبدى أثره بشكل واضح في مدخل (التجارة ط في موسوعة ١٩٧٥ حيث طورت مفهومه للأمة– الطبقة) ويعد اشتغال اليهود بالتجارة سبباً في استمراريتهم، وفي احتفالهم بنوع من الاستقلال العنصري والقومي، فقد ذابت وانصهرت كل شعوب الإمبراطورية الرومانية إلا اليهود؛ لأنهم يقومون بوظيفة محددة واستمروا بها بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية([٤]).

([١]) المسيري، الموسوعة الموجزة ١–٢٩.

(٢) الباحث عبد الله إدالكوس في مقالٍ له بعنوان: " النماذج التفسيرية: دراسة في الأدوات التحليلية لعبد الوهاب المسيري (١) من ماكس فيبر إلى عبد الوهاب المسيري، بتاريخ ٠٣ يوليو ٢٠١١م، الأحد على موقع الملتقى الفكري للإبداع http://www.almultaka.net/ShowMaqal.php

(٣) المسيري، رحلتي الفكرية، ص٥٩٣–٥٩٤.

([٤]) المصدر نفسه، ص٥٩٣–٥٩٤.

مفهوم الجماعة الوظيفية مثله مثل مفهوم الطبقة الذي صاغه كارل ماركس، واعتمده كأداة تحليلية؛ فهو يؤكد على أهمية العناصر الاقتصادية، ولكنه يتعامل في ذات الوقت مع عوامل أخرى، مثل: المكان والثقافة، الرؤية، علاقة الأقلية بالأغلبية، النسق القيمي([1])، ولذلك يرى المسيري أن مفهوم الجماعات الوظيفية مفهوم قديم وجديد في الوقت نفسه؛ فهو قديم بحسبان أن كثيراً من المفكرين في الغرب قد وظفوه دون تسميته فكاتب مثل شكسبير قي تاجر البندقية، يصف شيالوك في ذكر العبارات تبين أن الكاتب الإنجليزي العظيم، قد أدرك بشكل فطري بعضا من ملامح الجماعة الوظيفية([2]).

"ويمكن القول إنه مفهوم قديم بحسبان أن هناك محاولات في علم الاجتماع الغربي لوصف بعض الجماعات الوظيفية من خلال مجموعة من المصطلحات، من بينها "الأقلية الوسيطة و(الشعوب التجارية الوسيطة) و(الوسطاء المهاجرون) و(الشعوب التجارية الهامشية)([3]).

ولكن مفهوم الجماعات الوسيطة المالية والتجارية يستبعد كثيرا من الظواهر التاريخية والثقافية، التي تتسم بها جماعات مختلفة، وفي حقب تاريخية متعددة، ولذلك فإن مفهوم الجماعات الوظيفية يربط بين هذه الظواهر، فهو يتسم بمقدرته على عدم الذوبان في فكرة القانون العام" الذي يسقط فيه مفهوم الطبقة، وكذلك عدم السقوط في خصوصية الظاهرة وتأيقنها، أي: تصبح الظاهرة كالأيقونة لا تشير إلا إلى ذاتها، ومن ثَمَّ فهو مفهوم تحليلي يظل مرتبطا بتموجات الواقع والمنحى الخاص للظاهرة، ولكنه مع هذا يربط بين الظواهر المختلفة"([4]).

وحاول المسيري أن يربط النموذج بسياق عام تكتف بداخله العديد من الحالات المتنوعة، والتي تختلف من حيث نوع الجماعة أو نوع المجتمع، بحيث يمكن أن تكون جماعة من جماعات المجتمع، أي: تتمتع بالعضوية الكاملة في المجتمع، ويمكن أن يكون العكس بمعنى أنها تمثل أقلية لا يعترف المجتمع لها بالعضوية الكاملة، وبالتالي لا تعد منتمية انتماءً كاملاً للحضارة، وبذلك يكون مفهوم الجماعات الوظيفية، مفهوم مركب ومكثف له قدرة عالية في التفسير تفوق بكثير النماذج التفسيرية الاختزالية كمفهوم الطبقة ومفهوم الجماعات الوسيطة.

ويقول المسيري: " إننا في محاولة نحت نموذج تحليلي جديد ومركب لم نذهب إلى التوراة والتلمود([5]) والبروتوكولات، وحارات الجيتو، ولا إلى بقعة جغرافية معينة أو لحظة تاريخية بعينها، ولم

([1]) المسيري، الجماعات الوظيفية، ص١٢، (مستفاد من مقالة عبد الله إدالكواس).

([2]) المصدر نفسه، ص١٢.

([3]) المسيري، دفاع عن الإنسان، ص١٢.

([4]) المصدر نفسه، ص١٤.

([5]) التلمود هو: " عمل ضخم وموسوعي يضم نتاج معارف وتقاليد وتجربة إسرائيل المعاشة، تم تدوينه في نهاية القرن الماضي عبر تطور تاريخي أدبي، تقوم اليهودية على تضافر قانونيين، وهما: التوراة المكتوبة، أسفارها الخمسة بشكل أساسي، أي: أسفار موسى الخمسة أو كتاب موسى المقدس، والقانون الشفهي– توراة الفم، كتاب اليهود بامتياز، وإن عشرات الملايين من اليهود

نستسلم لأي أطروحات أو مسلمات عامة (الصراع العربي الإسرائيلي إن هو إلا صراع طبقي أو اقتصادي، العنصر الاقتصادي هو الذي يحرك كلا من العرب واليهود، اليهود إن هم إلا برجوازيون صغار، إسرائيل إن هي إلا قاعدة الاستعمار الغربي، اليهود هم مصدر كل الشرور في كل زمن ومكان) بل درسنا كل جماعة يهودية في سياقها السياسي والاقتصادي والتاريخي والحضاري والديني والإنساني المتعين، حتى نفهم العناصر التي تنفرد بها عن غيرها، والعناصر المشتركة بينها وبين الجماعات اليهودية الأخرى"([1]).

ومن أبرز الخصائص التي يتميز بها مفهوم الجماعات الوظيفية، كونه نموذجا يمكن تطويعه وتطبيقه على كثير من المجتمعات الشرقية والغربية في الماضي والحاضر، بعكس مفهوم الطبقة، الذي لا يمكن تطبيقه إلا على المجتمعات الغربية التي تأثرت بالثورة الصناعية، حيث أفرزت هذه الأخيرة الطبقات الاجتماعية واشتدت الهوة بين الطبقة الفقيرة والطبقة الغنية.

ثم إن نموذج الجماعة الوظيفية لا يستبعد مفهوم (الطبيعة البشرية) الذي تمّ استبعاده في النماذج الاختزالية، فقد حاول المسيري أن يتجاوز هذه الأخيرة لا عن طريق رفضها، وإنما عن طريق مزجها وربطها الواحدة بالأخرى، كما ربط بينها وبين نماذج تفسيرية أخرى لظواهر أخرى، وجرد من كل هذا نموذجا تحليليا واحدا.

إن نموذج الجماعات الوظيفية يتسم في تصورنا بقدر أعلى من المرونة والشمول والتركيب من عائلة النماذج الجزئية التي أشرنا لها من قبل، وهو نموذج يتجاوز الأبعاد الاقتصادية والسياسية المباشرة، ليصل إلى الأبعاد الحضارية والمعرفية، كما أنه يغطي الأصول الاجتماعية والتاريخية والإثنية للظواهر موضع الدراسة، وسماتها البنيوية، ومسارها التاريخي ورؤية أعضائها للكون([2]).

ويحدد المسيري الإطار الذي تتحرك فيه الجماعة الوظيفية– باعتبارها جماعة توجد في مجتمع ما، أو دولة ما– من حيث علاقتها بالمجتمع الذي تعيش فيه بالاستناد إلى فكرة الوظيفية في مجال تحديد العلاقة بين الجماعة والمجتمع؛ حيث يرى المسيري أن الجماعات الوظيفية تربطها بالمجتمع علاقة من

الذين درسوا التلمود على مدى التاريخ لم يكونوا يعرفون نصوص الكتاب المقدس، ويعتبر التلمود تاريخياً مفتاح القبة في الثقافة اليهودية التي ترتبط وجوهها المتعددة بشكل أو بآخر بالتلمود.

– انظر: أدين شتانيسالتر، مدخل إلى التلمود، ترجمة د. فينيا بوتشسفيا الشيخ، بيروت: دار الفرقد للطباعة، ٢٠٠٦ م، ص٣٤٥

([1]) المسيري، دفاع عن الإنسان، ص٣٤١.

([2]) المسيري، دفاع عن الإنسان، ص ١٣.

نوع خاص، وتركز هذه العلاقة على وظيفة محددة يطلبها المجتمع من الجماعة، ويرتبط وجودها بمدى قيامها بهذه الوظيفة(١).

فهذه الوظيفة لا يمكن لأعضاء المجتمع أن يقوموا بها، أو غالباً ما يتم النفور منها، فيضطر المجتمع إلى "استجلاب عنصر بشري من الخارج لملء فجوة أو ثغرة قد تنشأ بين رغبات المجتمع وحاجاته من ناحية، ومقدرته على إشباع هذه الرغبات والوفاء بهذه الحاجات من ناحية أخرى"(٢)، وقد يكون ذلك بسبب حاجة أعضاء النخبة الحاكمة إلى جماعة بشرية لها من القوة، ويمكن استخدمها (الجماعة) دون أن تكون لها المقدرة على المشاركة في السلطة بسب افتقادها للقاعدة الجماهيرية"(٣).

وتتعدد الأسباب التي تؤدي إلى ظهور الجماعات الوظيفية بتعدد الجماعات ومن ضمن الأسباب الهامة نذكر "وصول المهاجرين، فالمهاجرون لا يمكنهم الانخراط في كل الحرف والنشاطات الاقتصادية، ولذا فعليهم اختيار حرف أخرى"(٤)، وغالبا ما تكون حاجة المجتمع المضيف إلى الحفاظ على تماسكه وصهره هي الدافع إلى استجلاب هذه الجماعات، " فتركز الحياد والدنس والتعاقد في جماعة بشرية هامشية، يعني أن بقية أعضاء المجتمع المضيف يمكنهم التمتع بالدفء والتراحم، وأن تركز التميز في مجموعة هامشية أخرى يعني خفض حدة التوتر الاجتماعي، وأن تركز الدنس في مجموعة ثالثة يعني أن المجتمع سيتمتع بطهره الأخلاقي"(٥).

من الواضح إذن أن السمات الأساسية لأعضاء الجماعات الوظيفية، متناسبة مع ما سبق ذكره من أسباب، فهي شخصيات متحوسلة، منعزلة ومغتربة لا جذور لها ولا ولاء، بحيث أنهم يدخلون في علاقات تعاقدية مادية مع المجتمع لا تراحم فيها. فهم مجرد مادة توظف، يقول المسيري: " أعضاء الجماعات الوظيفية، شخصيات متحوسلة" من كلمة (حوسل)، بمعنى تحول إلى وسيلة منعزلة مغتربة لا جذور لها ولا ولاء، ينظرون لأنفسهم باعتبارهم كيانا مستقلا، ولكنهم في الوقت نفسه ينظرون لأنفسهم في علاقتهم بالمجتمع المضيف باعتبارهم مادة توظف، وهم يدخلون في علاقات تعاقدية، مادية مع المجتمع لا تراحم فيها"(٦).

وتبرز سمات أخرى يتصف بها أعضاء الجماعات الوظيفية، كالانفصال عن المكان والزمان والإحساس بالهوية الوهمية، وغالبا ما يرتبط أعضاء الجماعات الوظيفية عاطفيا بوطن أصلي (صهيون،

---

(١) في عالم عبد الوهاب المسيري، ص١٧٢.

(٢) المسيري، الجماعات الوظيفية، ص ٢٣.

(٣) المصدر نفسه، ص٢٣.

(٤) المصدر نفسه، ص٢٥.

(٥) المسيري، الجماعات الوظيفية، ص ٢٥.

(٦) المصدرنفسه، ص٢٥.

الصين، القبيلة، العائلة) يصبح موضع ولائهم وحبهم وعاطفتهم المشبوبة، ويتصورون أنهم جزء من تاريخه وتراثه، فيتعمق شعورهم بالغربة نحو المجتمع المضيف ويعيشون فيه دون أن يكونوا منه ولكن الجماعة الوظيفية، والوظيفة ذاتها في واقع الأمر، موضع الولاء الفعلي والمباشر لعضو الجماعة الوظيفية، فهي أساس وجوده وهويته.

وهذا ما يعني ازدواجية المعايير في التعامل مع الذات والآخر حيث " يطور طرفا العلاقة" أعضاء الجماعات الوظيفية والمجتمع المضيف رؤية أخلاقية ثنائية، فما يسري على الواحد من قيم أخلاقية مطلقة لا يسري على الأخر، بحسبان أن الأخر في هذه العلاقة يقع خارج نطاق الحرمات والمطلقات الأخلاقية، وبحسبان الجماعة الوظيفية شعب مختار،ويحاول كل طرف تعظيم منفعته ولذته مستخدما الأخرى"[١].

علاقة الجماعات اليهودية بظهور العلمانية:

كان للجماعات الوظيفية دور كبير (كجماعة وسيطة) في علمنة المجتمع، فوسعوا نطاق القطاع الاقتصادي التبادلي، وكانوا عنصراً شديد الحركية في المجتمع الوسيط الذي يتسم بالسكون، وكانوا دائمي البحث عن زبائن جدد وسلع جديدة وأسواق جديدة، وكان لا يهمهم الإخلال بالمجتمع أو بقيمه، فهم يقفون خارج نطاق العقيدة المسيحية وقيمها، لايكنون لها أي احترام ولا يشعرون نحوها بأي ولاء، وينظرون إلى أعضاء المجتمع المضيف باعتبارهم شيئاً مباحاً، ولم يكن التاجر اليهودي، على سبيل المثال، يلتزم بفكرة الثمن العادل أو الأجر الكافي، وإنما كان يحمل رؤية صراعية تنافسية تناحرية غير تراحمية.

وهكذا لعب اليهود دوراً فعالاً وحاسماً في تقويض الأخلاقيات الدينية، وفي دفع عملية العلمنة إلى الأمام، وقد قامت الدول الغربية أيضاً بعلمنة اليهود بشراسة غير عادية في بداية القرن التاسع عشر، وبعدها تزايد دور الجماعات اليهودية كحملة للفكر العلماني وأدوات للعلمنة، ويلاحظ أنه بعد أن فرضت الدول المطلقة العلمنة قسراً على أعضاء الجماعات اليهودية، استبطنوا هم أنفسهم الرؤية العلمانية وحققوا درجة عالية من الاندماج، وأصبحوا أهم رواد العلمانية ومن أكثر الداعين لها حماسة وتطرفاً، وذلك لعدة أسباب:

١. تمت علمنة الجماعات اليهودية بسرعة وفجاجة غير عادية على عكس أعضاء الأغلبية في المجتمع، الأمر الذي جعلهم يتجاوزون بقية أعضاء المجتمع في معدلات العلمنة.

٢. تركز معظم أعضاء الجماعات اليهودية في المدن التي تعد دائماً مراكز للعلمنة.

---

[١] المسيري، دفاع عن الإنسان مصدر سابق، ص٣٤١.

٣. تبني الكثير من أعضاء الجماعات اليهودية للفكر العلماني؛ لأنهم يتصورون أنه سيساهم في جو ملائم من المساواة الكاملة بين أعضاء الأقلية وأعضاء الأغلبية، سواء في عالم الاقتصاد أو غيره([١]).

ويعلل المسيري أسباب علمانية الجماعية اليهودية فيقول: " يجب أن نؤكد أنهم لم يفعلوا ذلك رغبة منهم في تدمير العالم وإيذاء العباد– كما هو شائع كثيرا– بل تحركوا كجماعة في إطار منظومة اجتماعية غربية تتجاوز إرادتهم ورغباتهم وأهواءهم، لكن هذا لا يعني إعفاء الإنسان من المسئولية الخلقية عن أفعاله، إذ إنه يظل مسئولا، على المستوى الفردي، عما يقترفه من ذنوب وحسنات، لكن المسئولية الخلقية الفردية تختلف عن التفسير السوسيولوجي للظواهر.

وهناك كثير من أعضاء الجماعات اليهودية ممن تصدوا للعلمانية وحاولوا وقف زحفها، ومن المعروف أن أعضاء الجماعات اليهودية اضطلعوا بدور الجماعات الوظيفية الوسيطة في المجتمع الغربي، وهو ما ولد لديهم نزعة حلولية خلقت لديهم استعدادا كامناً للعلمنة، ويمكننا أن نضيف هنا أن اضطلاعهم بهذا الدور جعلهم واحدا من أهم عناصر العلمنة المباشرة في المجتمع الغربي، والعلمنة في جانب من جوانبها، تطبيق القيم العلمية والكمية الواحدية على مجالات الحياة كافة، وضمن ذلك الإنسان نفسه، حتى ينتهي الأمر بتحييد العالم تماما وترشيده وتحويله إلى حالة السوق والمصنع، وقد لعب اليهود كجماعة وظيفية وسيطة، دوراً مهما في علمنة المجتمع، فقد وسعوا نطاق القطاع الاقتصادي التبادلي، وكانوا عنصراً شديد الحركية في المجتمع الوسيط الذي يتسم بالسكون([٢]).

أهم أنواع الجماعات الوظيفية:

٥. **الجماعات الوظيفية المالية:** ويطلق عليها عادة في المصطلح الغربي (الجماعات الوسيطة) وهي جماعات يقوم أعضاؤها بالتجارة وأعمال الربا وجمع الضرائب، مثل الأرمن في الدولة العثمانية أو بعض مناطق أوروبا، واليونانيين في مصر أيام الإمبراطورية الهلينية.

٦. **الجماعات الوظيفية القتالية:** المماليك والانكشارية والساموراي والجنود السويسريون.

٧. **الجماعات الوظيفية الاستيطانية:** وهي جماعات بشرية توطنها الإمبراطوريات في مناطق نائية أو إستراتيجية، بهدف تعميرها أو التحكم فيها أو قمع سكانها، ويمكن القول أن الاستعمار الغربي هو تعبير عن نفس الظاهرة، فهو استعمار قام بتحويل الفائض البشري الغربي إلى جماعات وظيفية قتالية استيطانية، يتم توطينها في بعض الأماكن ذات الأهمية الإستراتيجية في آسيا وإفريقيا لتقوم بالدفاع عن المصالح الغربية.

---

(١) المسيري، الموسوعة، ج٣، ص٣٢-٣٤.

(٢) المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة: ١، ص٣٠٩.

٨. **الجماعات الوظيفية الحرفية والمهنية:** المتميزة التي يتطلب العمل فيها مهارة خاصة مثل الطب، وقطع الماس وصنع التحف والاتجار فيها، ومن ذلك أيضا الجماعات الوظيفية التي يعمل أعضاؤها في وظائف يرى المجتمع بسب أو لآخر أنها مشينة، مثل نزح المجاري ودباغة الجلود، وجمع القمامة، والبغاء... الخ.

وقد يكون من المفيد ملاحظة أن جماعة وظيفية ما قد تضطلع في وقت واحد بوظيفة مالية واستيطانية، أو مالية وقتالية، أو مالية واستيطانية، كما يمكن أن تتحول وظيفتها من مالية إلى قتالية، وتجدر الإشارة إلى أن مفهوم الجماعات الوظيفية الذي طوره المسيري ارتبط أساسا بدراسة الجماعات اليهودية في العالم الغربي، ووضع الأقليات المماثلة في الحضارات الأخرى، أي: أن دراسة الحالة هنا أخذت شكل دراسة أعضاء الجماعات الإثنية، وما يحدث لليهود يحدث لكل أعضاء الأقليات والجماعات الوظيفية الأخرى، أي أن اليهودي يظهر بوصفه الإنسان عضو الأقلية الدينية أو الإثنية أو الوظيفية.

٩. **الجماعات الوظيفية اليهودية:** سبق أن عرفنا الجماعات الوظيفية على أنها مجموعات بشرية تستجلبها المجتمعات الإنسانية من خارجها في معظم الأحيان، أو تجندها من بين أعضاء المجتمع أنفسهم أومن بين الأقليات الإثنية والدينية، وفي هذا الإطار يمكن أن نفهم تاريخ الجماعات اليهودية.

يقول المسيري: " مع حلول العصور الوسطى في الغرب، ابتداءً من القرن التاسع الميلادي على وجه الخصوص، تسارعت عملية تحويل اليهود في العالم الغربي إلى جماعات وظيفية، حيث ملأ اليهود الفراغات بين طبقة النبلاء وطبقة الفلاحين، وأصبحوا أقنان بلاط، أي: جماعة وظيفية مالية تابعة للبلاط الملكي تضطلع بدور التجارة والربا وجمع الضرائب"([1]).

ويرجع المسيري أسباب تحول الجماعات اليهودية إلى جماعات وظيفية عبر التاريخ إلى أمور كثيرة نوجزها فيما يلي:

١. كون العبرانيين منذ ظهورهم في التاريخ، بدوا رحلا تجندهم المجتمعات المختلفة للاضطلاع ببعض الوظائف التي يأنف أعضاء الأغلبية عن القيام بها.

٢. هجرة العبرانيين إلى بابل وآشور بسبب ضعف المملكة العبرانية، فتحولوا إلى جماعات بشرية غريبة يمكن تجنيدها، كمرتزقة أو مستوطنين، حيث بدأت بعض الجماعات اليهودية تتحول إلى جماعات استيطانية وقتالية وتجارية، وقد تعمق هذا الاتجاه، سبب وجود كثير من الجماعات اليهودية في الشرق الأوسط وفي حوض البحر المتوسط، وهي منطقة سيطرت عليها العديد من الإمبراطوريات الواحدة تلو الأخرى.

٣. كانت فكرة الوطن الأصلي، مركز اهتمام أعضاء الجماعات اليهودية الديني، تساعد على إضعاف علاقتهم بوطنهم الجديد، وكان أعضاء الجماعات اليهودية يدورون في إطار فكرة الهوية اليهودية الإثنية

([1]) المسيري، الموسوعة ٣٦١،١.

الدينية الواحدة. ففكرة الوطن تضمن تماسكهم وعزلتهم وتجردهم اللازم بوظائفهم المختلفة، وقد دعم تدوين التلمود هذه الازدواجية: الاستقلالية الإثنية النفسية، والتكيف والاندماج الفعلي من ناحية أخرى.

٤. طبيعة المجتمع الإقطاعي، حيث إن النشاطيْن الأساسييْن هما القتال والزراعة، وأدى ذلك إلى ترك النشاطات المالية والتجارية وبعض الحرف، وقد قامت الجماعات اليهودية بسد هذه الثغرة، وقد كان أعضاء الجماعات اليهودية يشكلون الأقلية الوحيدة في الغرب تقريبا، لذا كان عليهم الاضطلاع بكثير من الوظائف المشينة والمتميزة المالية والحرفية والمهنية، وساهمت عمليات الطرد المختلفة في تدعيم هواياتهم كجماعات وظيفية، إذ أنها لم تضرب بجذورها في أية رقعة جغرافية.

من الواضح إذن، أن الجماعات اليهودية كانت لها أدوار هامة في سد الثغرات التي عرفتها الإمبراطوريات التي تعاقبت عليها، وكانت " توظف توظيفا شبه كامل وتكتسب هويتها على أساس الوظيفة التي توكل لها، وتجدر الإشارة إلى أن هذا التوظيف لا يأخذ في الغالب صبغة مباشرة، ولكن يتحقق بشكل تدريجي خصوصا إذا تعلق الأمر بالوظائف المهنية والحرفية، ويصنف عبد الوهاب المسيري الجماعات الوظيفية اليهودية إلى أربعة، وهي: (الجماعات الوظيفية اليهودية المالية)، الإقراض والربا، والمماليك المالية "([١]).

ومن الفترات التي تم تجاهلها أو تهميشها في كتاب ما يسمى بالتاريخ اليهودي هي تاريخ الجماعة اليهودية في بولندا، وهو أمر أقل ما يوصف به أنه شاذ، فيهود بولندا: أهم جماعة يهودية في العالم ابتداء من القرن السادس عشر([٢])، وهناك ثمة نظرية لدى المسيري مفادها: " إلى أن كل يهود العالم الغربي من من أصل بولندي، باعتبار أن العناصر اليهودية المحلية في فرنسا وانجلترا وغيرها من الدول تم استيعابها"([٣])، ويتوارث أعضاء الجماعات الوظيفية الخبرات في مجال تخصصهم الوظيفي عبرالأجيال"([٤]).

ولقد ظهرت دولة إسرائيل باعتبارها دولة استيطانية قتالية تعمل للدفاع عن المصالح الاقتصادية والإستراتيجية للعالم الغربي، ويقوم هو بالدفاع عنها بالمقابل، أي: أنها دولة تعاقدية مع الغرب، وكل هذا يجعلنا نعيد النظر في دور أعضاء الجماعات الوظيفية كمرتزقة أو مادة استيطانية أو جامعي ضرائب أو كتجار أو مرابين أو ملتزمي أراض([٥])، ويذهب المفكرون الصهاينة إلى أن حل المسألة اليهودية داخل التشكيل الحضاري الغربي مسألة المستحيلة، ولذا طرحت الصهيونية باعتبارها العقيدة التي تحاول أن تحقق لليهود من خلال التشكيل الإمبريالي الغربي، وأفشلوا في تحقيقه من خلال التشكيل الحضاري

([١]) المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة ١، ص٩.

([٢]) المصدر نفسه ١، ص٩.

([٣]) المسيري، الجماعات الوظيفية، ص٩.

([٤]) المسيري، الموسوعة المختصرة ١، ٢٨.

([٥]) المسيري، الجماعات الوظيفية، ص١٤.

الغربي... الدولة الصهيونية رغم حداثة شكلها إن هي إلا إعادة إنتاج لواحد من أكثر أشكال التنظيم الاجتماعي تخلفاً وكموناً وتوتراً في الحضارة الغربية([1]).

أثر الثورة الصناعية على تشكل مفهوم وتكوين الأقليات اليهودية

ظهور الثورة الصناعية وانتشارها ومظاهرها:

يبرز المسيري أهمية الثورة الصناعية ومدى تأثيرها على التاريخ الغربي، وكيف أحدثت انقلاباً كبيراً وتركت أعظم الأثر في يهود العالم الغربي، وكيف كانت حدثاً ضخماً أدى إلى إحداث انقلاب في طرق حياتهم ورؤيتهم للكون في القرن التاسع عشر، أي: بعد حدوث الانقلاب بفترة وجيزة، لكن هذا الانقلاب لم يحدث لهم بصفتهم يهوداً، وإنما بصفتهم أقلية توجد داخل التشكيل الحضاري الغربي، حيث إن هذا الانقلاب قد حدث في طرق الرؤيا لأعضاء الأغلبية أيضاً، وللأقليات الموجودة داخل المجتمعات الغربية.

وفي الوقت نفسه، لم يتأثر يهود العالم العربي بالثورة الصناعية بنفس الدرجة وفي التوقيت نفسه؛ لأن التشكيل الحضاري العربي كان بمنأى عنها في بداية الأمر، لكن بعد قرن من الزمان، بدأ هذا التشكيل يتأثر هو الآخر بالثورة الصناعية، وبالتالي بدأ يمتد أثره إلى معظم المجتمعات العربية بأغلبيتها وأقلياتها، ويمكن القول بأن معدل تأثر اليهود بالثورة الصناعية مسألة مرتبطة بكونهم أعضاء في مجتمع ما، فعند تأثر هذا المجتمع بالثورة الصناعية؛ فإن أعضاء الجماعات اليهودية يتأثرون بها بالمقدار ذاته، ولذا فالإطار المرجعي للدراسة لا يمكن أن يكون التاريخ اليهودي الوهمي.

ولو جعل الباحث هذا التاريخ مرجعيته لعجز عن تفسير كثير من عناصر عدم التجانس والتفاوت في هذا التاريخ([2])، وقد تصل بالباحث الذي يريد تبرير الحالة من ليّ أعناق النصوص ليبرر سبب تأثر يهود لندن بالثورة الصناعية فور حدوثها، بينما لم يتأثر بها بعض يهود أثيوبيا حتى الآن([3]).

ومهما يكن من أمر، فإن الثورة الصناعية قد أثرت على مصير الجماعات اليهودية في العالم، وقد كانت من أهم الأسباب التي أدت إلى تطور وانتقال الجماعات اليهودية من جماعات لا تمثل أكثر من أقلية تتحكم في رؤوس الأموال إلى جماعات أدت دوراً آخر أكثر أهمية بالنسبة للغرب وبالنسبة للحركة الصهيونية، فقد أدت عمليات التحديث وظهور الرأسمالية الرشيدة إلى تدهور أعضاء الجماعات

([1]) المصدر نفسه، ص٤٨٨.

([2]) راجع بهذا الصدد كتاب: المسيري: (التجانس اليهودي والشخصية اليهودية) وقد أجاد في عرضه وتحليله الأستاذ الدكتور إبراهيم عوضين في مجلة الأزهر، صفر سنة ١٤٢٧هـ، ص٢٤٦-٢٥٣.

([3]) المسيري، رحلتي الفكرية، ص ٦٠٧-٨٠٨.

الوظيفية اليهودية في الغرب بسبب فقدانهم دورهم، وهو ما يسمى: (المسألة اليهودية) ولكن التحديث نفسه وظهور الرأسمالية هما اللذان أديا إلى حل المسألة.

ولم تستبعد المثل القومية في هذه المجتمعات أعضاء الجماعات اليهودية، وإنما فتحت الأبواب والفرص أمامهم فحققوا الحراك الاجتماعي الذي يحتاجون إليه، وكان اليهود الذين استقروا في هذه البلاد ولديهم كثير من الكفاءات المطلوبة والاتصالات الدولية المهمة، كما كانوا متقدمين من الناحية الحضارية ([١])، فالجماعات اليهودية عادةً يخضعون للحركيات المختلفة للمجتمعات التي ينتمون إليها([٢]).

([١]) انظر: المسيري، الموسوعة ٣، ص٦٢-٦٣.

([٢]) المسيري، الموسوعة ٢، ٢٣٣.

الفصل الخامس

رؤية المسيري لنهاية المشروع الصهيوني ومصير الدولة الوظيفية

مفهوم الدولة الوظيفية وطبيعتها ومدى ارتباطها بالدولة الحاضنة وطبيعة العلاقة بين الدولة الوظيفية والدول الاستعمارية.

- **المبحث الأول: رؤية المسيري لنهاية المشروع الصهيوني.**
- **المبحث الثاني: مستقبل إسرائيل وهل ستنهار من الداخل.**
- **المبحث الثالث: مصير إسرائيل والحركة الصهيونية.**
- **المبحث الرابع: العلامات العشر لنهاية المشروع الصهيوني.**

مفهوم الدولة الوظيفية وطبيعتها ومدى ارتباطها بالدولة الحاضنة وطبيعة العلاقة بين الدولة الوظيفية والدول الاستعمارية

الدولة الصهيونية الوظيفية:

يحتل مفهوم الدولة الصهيونية الوظيفية قيمة تفسيرية عالية في رؤية المسيري، ويعزز هذا المفهوم الإخفاق الكبير الذي وقع فيه كثيراً من الباحثين والدارسين، ويعزو السبب في ذلك؛ لأنهم: تصوروا أنها دولة مثل كل الدول الأخرى خاضعة للقوانين نفسها، بينما هي في واقع الأمر خاضعة لقوانين الجماعات الوظيفية([١])، فقد ظهرت دولة إسرائيل باعتبارها دولة استيطانية قتالية تعمل للدفاع عن المصالح الاقتصادية والإستراتيجية للعالم الغربي، ويقوم هو بالمقابل بالدفاع عنها، أي: أنها دولة وظيفية تعاقدية مع الغرب، وهي تدين بالولاء لراعيها الإمبريالي، تدافع عن مصالحة نظير أن يدافع هو عن بقائها وأمنها ويضمن لمستوطنيها مستوى معيشيا مرتفعا، وعلاقة الدولة الوظيفية بالإمبريالية علاقة نفعية، فالراعي الإمبريالي يدعمها طالما لعبت دورها الاستيطاني وأدت وظيفتها القتالية.

وتعد الدولة الصهيونية إعادة إنتاج لمفهوم الجماعة الوظيفية في العصر الحديث وفي الشرق العربي على هيئة دولة وظيفية، فعائد الدولة الوظيفية الأساسي عائد إستراتيجي، والسلعة أو الخدمة الأساسية الشاملة التي تنتجها هي القتال: القتال مقابل المال، أي: أنها وظيفة مملوكية بالدرجة الأولى([٢]).

أسباب وتداعيات وجود الدولة الصهيونية الوظيفية:

يذهب المفكرون الصهاينة إلى أن حل المسألة اليهودية داخل التشكيل الحضاري الغربي مسألة مستحيلة، ولذا طرحت الصهيونية باعتبارها العقيدة التي حاولت أن تحقق لليهود من خلال التشكيل الإمبريالي الغربي ما فشلوا في تحقيقه، والدولة الوظيفية رغم حداثة شكلها إن هي إلا إعادة إنتاج لواحد من أكثر أشكال التنظيم الاجتماعي، تخلفاً وكموناً وتوتراً في الحضارة الغربية([٣]).

ويتساءل المسيري لماذا تم تجنيد أعضاء الجماعات اليهودية لتأسيس الدولة الصهيونية الوظيفية دون غيرهم من الأقليات؟

السبب هو:

([١]) المسيري، الجماعات الوظيفية، مصدر سابق ص٤٩٠.

([٢]) المسيري، رحلتي الفكرية، مصدر سابق ص٥٩١.

([٣]) المسيري، الجماعات الوظيفية، ص٤٨٨.

أ. الحاجة الماسة داخل التشكيل الحضاري والسياسي، جيب استيطاني قتالي مملوكي([1])، يشكل قاعدة للاستعمار الغربي في فلسطين، وبخاصة مع توقع سقوط الدولة العثمانية التي كانت تقع فلسطين في مكان يبلغ الغاية في الأهمية من الناحية الإستراتيجية.

ب. النزوع الصهيوني نحو نقل اليهود إلى فلسطين، نزوع متأصل في الحضارة الغربية، إذ أن هذه الحضارة كانت تنظر لليهود باعتبارهم وسيلة لاغاية وباعتبارهم شعباً عضوياً، لا ينتمي للحضارة الغربية.

ج. كان اليهود شعباً عضوياً، حسب التصور الغربي مرتبطين بشكلٍ عنصري بفلسطين، وكانت كل دولة تصدر وعودها البلفورية([2]).

وقد أدرك الفكر الصهيوني بين اليهود (بشكل جنيني) وضع الجماعات اليهودية كجماعات وظيفية، فأشار هرتزل وبنسكر إلى اليهود كأشباح وطفيليين، ووصفهم (نوردو وهتلر من بعده) بأنهم مثل البكتيريا، وحديث هرتزل عن اليهود باعتبارهم أقلية أزلية، وكذلك حديث بورخوف عن (الهرم الإنتاجي المقلوب) هو في صميمه حديث عن الجماعات الوظيفية دون استخدام المصطلح بطبيعة الحال([3])، كان ظهور هرتزل الذي طور الخطاب الصهيوني المراوغ، العقد الصامت بين الحضارة الغربية والحركة الصهيونية بشأن يهود العالم([4])، فقد ظل تاريخ الحركة الصهيونية متعثراً قبل ظهور هرتزل، وظلت الصهيونية فكرة غير قادرة على التحقق لأسباب عديدة، من أهمها: أن دعاة الفكر الصهيوني كانوا من الصهاينة غير اليهود، أو من أعداء اليهود، الأمر الذي جعل أعضاء المادة البشرية المستهدفة أي:

([1]) مصطلح الدولة المملوكية: مصطلح له قيمة تفسيرية تصنيفية عالية على المستويين التاريخي والبنيوي... كل ما أنجزه المشروع الصهيوني هو تجنيد المماليك المالية، تم نقلهم بمعونة الدول الغربية إلى الشرق العربي حيث تحولوا إلى مماليك قتالية داخل إطار الدولة الوظيفية، أصبحت الوظيفية المالية إما ثانوية أو غير مباشرة فهي دولة وظيفية قتالية يمكن أن نسميها دولة مملوكية، ويمكننا أن نجد جوانب مملوكية عديدة للدولة الصهيونية، فعسكرة المجتمع الصهيوني ليست إلا تعبيراً عن هذه الظاهرة.

كما أن الأموال الطائلة التي تصب فيه هي تعبير آخر عن الظاهرة نفسها، والإسرائيليون يعرفون جيداً أن هذه الأموال تدفع لهم لا حباً في التراث اليهودي أو لاهتمام العالم الغربي بهم، وهو العالم الذي نبذهم على أية حال وإنما نظراً لاضطلاعهم بوظيفية محددة، وعزلة التجمع الصهيوني في المنطقة العربية، وعلاقة العداء بينه وبين كل التجمعات المحيطة به، وإحساسه بالغربة وإصراره عليها في الوقت نفسه ومركب الشعب المختار، وتمييع البناء الاجتماعي والطبقي في المستوطن الصهيوني كل هذه السمات تجمع بين الدولة الصهيونية والجماعات الوظيفية ومنها المماليك.

- انظر: المسيري، الجماعات الوظيفية، ص٥٣٨-٥٣٩.

وهنا يرى الباحث أنه يوجد خطا في استعمال لفظ: (مملوكي) من حيث الوظيفية، لم يكن المماليك تتصف بهذه الصفات التي كانت تتصف بها الجماعات الوظيفية اليهودية، صحيح أنهم استجلبوا من خارج المنطقة العربية، ولكن الفارق بينهم وبين الجماعات اليهودية هو: أن المماليك انصهروا وذابوا في بوتقة الشعوب الإسلامية والعربية، وقادوا الأمة إلى الحضارة والإبداع، وواصلوا مهمة التحرير وصد الهجمات الخطيرة التي تعرض لها العالم العربي والإسلامي طوال عدة قرون، وهناك من الباحثين من يعتبر: أن العصر المملوكي هو من أهم عصور التاريخ الإسلامي المفصلية.

([2]) المسيري، رحلتي الفكرية، ص٤٨٦.

([3]) المسيري، الموسوعة ٦-٣٨.

([4]) المسيري، رحلتي الفكرية، ص٤٨٩.

اليهود يرفضون الدعوة إلى استيطان فلسطين، كما أنه لم يكن هناك أطر تنظيمية تضم كل الجماعات اليهودية ([1]).

وقد قام هرتزل بكل هذه الإشكاليات فوضع العقد الصامت بين الحضارة الغربية والحركة الصهيونية، استناداً للصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة التي نتجت من صميم هذه الحضارة ومن تاريخها الفكري والاقتصادي والسياسي، وأسس المنظمة الصهيونية التي طرحت نفسها كإطار تنظيمي يمكن من خلاله توقيع العقد مع الحضارة الغربية، وفرض الصيغة الصهيونية الشاملة، كما طور هرتزل الخطاب المراوغ الذي جعل بالإمكان إرضاء مختلف قطاعات يهود العالم الغربي ([2]).

هرتزل واضع العقد الصامت، لم يكن مفكراً من الطراز الأول ومنظراً وقادراً على التجريد، وإن كان صحفياً ذكياً سطحياً قليل الثقافة، وخبرته السياسية محدودة، فإن توجهه كان برجماتياً عملياً، ومع هذا فإن كتاباته تضم مادة هذا العقد الصهيوني الصامت، كما تضم كتابات من لحقه مواد تكميلية العقد([3])، وقد أشار هرتزل في المؤتمر الصهيوني الأول ١٨٩٧م، إلى ضرورة التفاهم التام مع الوحدات السياسية المعنية ليتم التعاون بين الشعب اليهودي برمته مقابل ما يعطى له([4]).

أهم وظائف الدولة اليهودية على الإطلاق:

ومن أهم الوظائف المناطة بالدولة الوظيفية، هي: الوظيفة القتالية لا التجارية أو المالية، فعائد الدولة الوظيفية الأساسي عائد استراتيجي، والسلعة أو الخدمة الأساسية الشاملة التي تنتجها هي القتال: القتال مقابل المال، أي: أنها وظيفية مملوكية بالدرجة الأولى، وفيما عدا ذلك فإنها ديباجات اعتذاريه وتفاصيل فرعية([5]).

تتسم الدولة الصهيونية الوظيفية بكل سمات الجماعة الوظيفية، وأول هذه الصفات هي التعاقدية والنفعية والحياد.

١. **الوظيفية القتالية والعائد الإستراتيجي:**

من أهم وظائف الدولة الصهيونية الوظيفية، أنها: تقوم بالأعمال المشينة التي لا تستطيع الدول الغربية الاضطلاع بها، نظراً لكونها دولاً (ليبرالية) و(ديمقراطية) تود الحفاظ على صورتها المشرقة أمام الرأي العام العالمي وأمام جماهيرها بقدر المستطاع، فتكل إلى الدولة الصهيونية مثل هذه الأعمال، ومن هذه الوظائف تزويد ديكتاتوريات أمريكيا اللاتينية بالسلاح، والتعاون مع النظام العنصري في جنوب

([1]) المسيري، الموسوعة ٦-٣٨.

([2]) المصدرنفسه، ٦-٣٨.

([3]) المصدر نفسه، ٦-٣٨.

([4]) المصدر نفسه، ٦-٣٨.

(٥) الجماعات الوظيفية، ص٤٩٢.

أفريقيا (سابقا) في كثير من المجالات، ومنها السلاح النووي، والقيام ببعض أعمال المخابرات والتجسس، كما تقوم الدولة الصهيونية بتوفير الجو الملائم والتسهيلات اللازمة للترفيه عن الجنود الأمريكيين.

ويبدو أن الدولة الصهيونية الآن أصبحت مصدراً لكثير من المرتزقة في العالم، كما يبدو أنها بدأت في تصدير البغايا لبلدان غربية، مثل (أمستردام وألمانيا) فرانكفورت، وقد تنبه أصدقاء الصهيونية وأعداؤها على السواء إلى طبيعة هذه العلاقة وطبيعة هذه الوظيفة منذ البداية، فتم الدفاع عن المشروع الصهيوني والترويج له من هذا المنظور، كما تم الهجوم عليه وشجبه من هذا المنطلق.

فقد صرح (MAX NORDO)(ما كس نوردو)([١]) في خطاب له في لندن في (١٦ يونيه ١٩٢٠م) بأنه يرى أن الدولة الصهيونية ستكون بلداً تحت وصاية بريطانيا العظمى، وأن اليهود سيقفون حراساً على طول الطريق الذي تحف به المخاطر، ويمتد عبر الشرقين الأدنى والأوسط حتى حدود الهند، وكان حاييم وايزمان كثير الإلحاح في تأكيد أهمية الجيب الاستيطاني الصهيوني الإستراتيجية (لا الاقتصادية) فهذا الجيب سيشكل حسب رأيه: خط دفاع أول لإنجلترا ولا سيما فيما يتعلق بقناة السويس.

وفي خطاب كتبه زانجويل في (٣ أكتوبر ١٩١٤) بيّن أن من البديهي أن إنجلترا في حاجة إلى فلسطين لحماية مصالحها، وبذلك تكون الصهيونية قد طرحت نفسها منذ البداية للقيام بالوظيفية القتالية الاستيطانية، فشعار الدولة اليهودية كان يعني في واقع الأمر أن اليهود ينوون التستر وراء القومية وأنهم سيقدمون أنفسهم باعتبار أنهم (مجال نفوذ) استراتيجي لأية قوة كبرى تدفع الثمن، وستقدم الدولة الصهيونية شيئاً مختلفاً ومغايراً وثميناً دوراً إستراتيجياً يؤمن سيطرة الغرب على العالم، وهو دور سيكون له دون شك مردود اقتصادي، ولكنه غير مباشر([٢]).

٢. الجدوى الاقتصادية للدولة الوظيفية:

يقوم أعضاء الجماعات الوظيفية بوظيفة في جوهرها استغلال الجماهير لصالح النخبة الحاكمة، فتقوم الجماعة بتحصيل الضرائب من الجماهير، أو امتصاص فائض القيمة منها من خلال الإقراض بالربا أو التخصص في بيع سلع معينة مثل: الملح والخمور يحتكرها الحاكم لصالح حسابه.

ويحقق أعضاء الجماعة اليهودية بهذه الطريقة أرباحاً عالية، ومن ثم يقومون بدفع ضرائب باهظة للحاكم، ولذا فقد كانت معظم الأرباح تصب مرة أخرى في خزانته، أي: أن أعضاء الجماعة الوظيفية اليهودية كانوا في واقع الأمر من أهم مصادر الربح للنخب الحاكمة في الغرب في العصور الوسطى([٣]).

([١]) ماكس نوردو: ماكس نوردو (١٨٤٨– ١٩٢٣) مفكر يهودي الماني وزعيم صهيوني سياسي (٢٤٥– ٢٤٨) المسيري، الموسوعة، ٦، ص٢٤٥–٢٤٨.

(٢) انظر: المسيري، الجماعات الوظيفية، مصدر سابق ص٤٩٢–٤٩٣.

(٣) المسيري، الجماعات الوظيفية مصدر سابق، ص٤٩٣.

لا تقوم الدولة الوظيفية الصهيونية مثل الجماعات الوظيفية اليهودية، بتحصيل الضرائب مباشرة، ولكنها مع هذا تحقق ريعاً عالياً للدولة الراعية؛ لأنها تقوم بضرب تلك النظم القومية العربية التي تحاول رفع سعر المواد الخام أو حتى التحكم في بيعها وفي أسعارها، أو التي تختط طريقاً تنموياً أو تتبنى سياسة داخلية وخارجية تهدد المصالح الغربية بالخطر، أما الضريبة التي يدفعها أعضاء الدولة الوظيفية الصهيونية فهي: حالة الحرب الدائمة التي يعيشونها بسبب الدور الذي يضطلعون به [١].

وقد أدرك الصهاينة جوهر الوظيفية المناطة بهم، والتي أوجدهم الغرب من أجلها، وأدركوا ما يحققونه من ربح لراعيهم من خلال أدائهم مهام وظيفتهم زادت فرص استمرار الدعم وفرص البقاء، ومن هنا كان تأكيدهم المستمر وإلحاحهم الدائم على الجدوى الاقتصادية للوظيفية، التي يؤديها التجمع الصهيوني وعلى التجمع الصهيوني، وعلى مقدار النفع الذي سيعود على الراعي والممول (الإمبريالي)، تماماً مثلما يفعل أي شخص رشيد مع أنه سلعة تباع وتشترى.

لذلك كان زعماء الصهاينة يؤكدون الواحد تلو الآخر" أن تمويل مثل هذا المشروع الاستيطاني مسألة مربحة للدولة التي ستستمر فيه، وقد أدرك هرتزل بمكره ودهائه أن ثورة الفلاحين المصريين ستجعل مصر مكلفة جداً كقاعدة عسكرية بالنسبة لإنجلترا، ولذا فقد أشار إلى المشروع الصهيوني بتكاليفه الزهيدة شيء مغر، واستخدم وايزمان الصورة المجازية التجارية التعاقدية نفسها حين كتب لتشرشل قائلاً: " إن السياسة الصهيونية في فلسطين ليست على الإطلاق تبديداً للموارد، وإنما هي التأمين الضروري الذي نعطيه لك بسعر أرخص من أن يحلم به أي فرد آخر"[٢].

وقد لخص سبير كل الموضوعات والصور المجازية السابقة، فقال: إن الزعماء الإسرائيليين مضطرون دائماً لأن يذكروا القيادة الأمريكية في واشنطن بمقدار تكلفة وجود الجيش الأمريكي في غرب أوروبا بتلك الهبات الممنوحة لإسرائيل، وقد بيّن سبير أن الجيش الإسرائيلي ليس خدمة حربية كافية وحسب، وإنما هو أيضاً خدمة رخيصة، بل إنها أرخص من أي خيار عسكري آخر محتمل للولايات المتحدة الأمريكية في المنطقة، الأمر الذي يدل على نبوءات الزعماء الصهاينة وحساباتهم، بشأن الجيب الصهيوني الوظيفية كانت تتسم بالدقة، وأن السلعة الصهيونية مربحة، ولا شك أن العقد النفعي الذي وقع بين الحضارة الغربية والمنظمة الصهيونية بشأن يهود العالم لا يزال نفاذاً الآن وإن عائده لا يزال مريضاً[٣].

---

(١) المصدر السابق، ص٤٩٤.

(٢) المصدر نفسه، ص٤٩٤.

(٣) المصدر نفسه، ص٤٩٥-٤٩٦.

٣. التعاقدية بين الذات والآخر:

إن اليهود لا يصدقون أن أي شخص يمكن أن يتصرف مدفوعاً باقتناع أخلاقي([١])، الرؤية الصهيونية التعاقدية التي تضع لكل شيء سعراً مهما سمت مرتبته، تفترض أن فلسطين هي الأخرى سلعة رائجة لا يود أحد شراءها سوى المعتوهين من اليهود... بل إن هرتزل نفسه على ما يبدو كان يحاول الحصول على فلسطين بالمجان مثل أي سمسار غشاش من أعضاء الجماعات الوظيفية المالية، الذين تفوقوا في الغش التجاري، فقد ذهب هرتزل إلى السلطان عبد الحميد الثاني خاوي الوفاض دوّن في مذكراته: " أنه لو عرضت عليه فلسطين نظير سعر مخفض لشعر بالحرج؛ لأنه لا يحمل معه كل المبلغ، إن كل ما يريده من السلطان هو وعد ببيع فلسطين له، وهذا الوعد سيكون بمنزلة السلة التي يستخدمها المتسولون لجمع التبرعات"([٢]).

٤. حوسلة الدولة الوظيفية:

الدولة الوظيفية هي دولة تتم حوسلتها لصالح الدول الراعية الإمبريالية، ولكن يبدو أن الحوسلة([٣]) في حالة الحركة الصهيونية لن تتوقف عند الدولة الوظيفية، بل ستستمر لتشمل كل المادة البشرية اليهودية أينما كانت([٤]).

ويلاحظ أن كل الكتاب السابقين ينظرون إلى إسرائيل باعتبارها: " رقعة أو مسافة أو مكاناً تابعاً أوبلداً تحت الوصاية، وهم يعتبرون المستوطنين الصهاينة حراساً وخدمة عسكرية جاهزة: جماعة من المماليك أو المرتزقة على أهبة الاستعداد دائماً، والمملوك أداة ووسيلة وليس إرادة وقيمة، إسرائيل كلب حراسة رأسه في واشنطن وذيله في القدس، هي كلب حراسة قوي لكنه يحتاج إلى حماية"([٥]).

([١]) المصدر نفسه، ص٤٩٦.

(٢) الحَوْسَلة: اختصار لعبارة (تحويل كذا إلى وسيلة)، والعلمنة الشاملة والترشيد المادي يرميان إلى تحويل الطبيعة والإنسان إلى وسيلة، أي: حوسلتهما.

- المسيري، الجماعات الوظيفية /٤٩٨.

(٣) هذه اللفظة المنحوتة (حوسل) اختصارا لعبارة: (تحويل الشيء إلى وسيلة)، (بالإنجليزية: إنسترومنتاليزيشن Instrumentalization)، والنحت هو اشتقاق كلمة من والمنحوت منه، وقد أجازت المجامع اللغوية في الوطن العربي النحت عندما تلجئ الضرورة إليه، كلمتين أو أكثر على أن يكون هناك تناسب في اللفظ والمعنى بين المنحوت له وقد اضطر المسيري لنحت كلمة (حوسلة) لدواعي الإيجاز اللغوي؛ ذلك لأن عبارة: (تحويل كذا إلى وسيلة) عبارة طويلة ولا يمكن توليد مصطلحات منها، و(حوسل) فعل متعد بمعنى حول الشيء أو الإنسان إلى وسيلة، ومنها (الحوسلة) على غرار (بسمل) من (بسم الله الرحمن الرحيم)، و(حوقل) من (لا حول ولا قوة إلا بالله).

- الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ:٢٥٢.

([٤]) المسيري، الجماعات الوظيفية: ٤٩٩.

([٥]) المصدرنفسه، ص٥٠٢.

التحالف الإستراتيجي الأمريكي الاسرائيلي:

" كانت أوروبا القاعدة المركزية للنشاط الصهيوني، وكانت بريطانيا العظمى التي تقود عملية إنشاء الدولة الصهيونية في فلسطين"([1]).

القدرة الدفاعية:

يمكن استخدام القدرة العسكرية الإسرائيلية لحماية قوة تدخل أمريكية في الشرق الأوسط، وخصوصاً سلاح الجو الإسرائيلي الذي يسيطر على المجال الجوي، وأنشطة البحث والتطوير الإسرائيلية نفسها مفيدة للولايات المتحدة الأمريكية بسبب التكامل الوثيق بين المخترعين الإسرائيليين والشركات الأمريكية، وحسب مقولة جورج كنعان رئيس استخبارات سلاح الجو الأمريكي سابقاً: " إن مساهم إسرائيل تساوي إلف دولار لكل دولار قدمناه لها"([2]).

" يمكن القول بأن الدولة الصهيونية هي: إعادة إنتاج لنمط الجماعة الوظيفية القتالية، والاستيطانية، والتجارية، والجاسوسية، والمشروع الصهيوني الاستيطاني، الذي يهدف إلى تأسيس دولة وظيفية تجمع بعض يهود العالم، وتقوم على خدمة المصالح الغربية في المنطقة مشروع يتم تنفيذه برعاية الدول الغربية ودعمها السياسي والاقتصادي، فقد حصلت الحركة الصهيونية على العون السياسي والمادي منذ نشأتها في أواخر القرن التاسع عشر"([3])، الواقع أن أي باحث في الاقتصاد الإسرائيلي لا بد أن يلاحظ محورية الدور الذي تلعبه المعونات الخارجية، وتدفقات البشر ورؤوس الأموال على إسرائيل بشكل لا مثيل له في أية دولة من دول العالم، سواء من حيث حجمها ودرجة اعتماد الاقتصاد الإسرائيلي عليها، أو من حيث درجة تسيسها وارتباطها بطبيعة المشروع الصهيوني([4]).

سمات الدولة الوظيفية:

١. **العجز:**

يتسم أعضاء الجماعات الوظيفية، وخصوصاً تلك التي تضطلع بوظيفية قتالية بالعزلة، وهي لا تملك إرادة مستقلة، والدولة الصهيونية إعادة إنتاج لهذا النمط، ولذا فهي رغم قوتها وبطشها لا تزال عاجزة في علاقتها بالدول الكبرى وبخاصة الدولة الراعية([5]).

([1]) المصدر نفسه، ص٥٠٢.

([2]) المصدر السابق، ص٥٠٦.

([3]) المصدر نفسه، ص٥٠٦.

([4]) المصدرنفسه، ص٥٠٧.

([5]) المصدر نفسه، ص٥١٩.

٢. الحاجة للدولة الراعية:

لابد أن يتبع الجماعة الوظيفية راعياً يحميها ويكفل لها أمنها ومستواها المعيشي المتميز، نظير أن تقوم هي على خدمته ورعاية مصالحه ضد أعدائه([1]).

٣. دعم الدولة الراعية للدولة الوظيفية:

لابد للدولة الوظيفية التي تعمل لحساب دولة كبرى أن تتلقى الدعم والحضانة– بل والضمان لجميع أفرادها وبالذات العنصر الفاعل فيها– وهو العنصر الأهم بالنسبة للدولة الراعية، وهو الجيش (القوة الضاربة)،(الذراع العسكري)،(الورقة الرابحة)،(الرهان المفتوح)، حيث تراهن الدول الكبرى الراعية على الدولة الوظيفية التي تعمل لحسابها وذلك حتى تبقى، وتتمكن من في أدائها وظيفتها بكفاءة، تماماً كما كان ملوك وأباطرة أوروبا يرعون الجماعات الوظيفية([2]).

٤. افتقاد السيادة:

الاستقلال النسبي للدولة الوظيفية: " الاستعمار الصهيوني لا يشكل جزءاً عضوياً لا يتجزأ، وإنما هو مجرد آلة في الغرب"([3]).

٥. العزلة والغربة:

العزلة هي سبب ونتيجة في الوقت نفسه لوضع أعضاء الجماعات اليهودية، إذ أن المرتزقة المقاتل الذي ينكل بالجماهير يستخدم أداة لقمعها لابد أن يكون معزولاً عنها([4]).

٦. الانفصال عن المكان والزمان والإحساس بالهوية الوهمية:

وهذا ما حدث للدولة الوظيفية في الشرق الأوسط ولكنها ليست فيه، هذه الدولة الصهيونية تصر على يهوديتها وعلى عزلتها كدولة يهودية، فهذه اليهودية هي أساس وظيفتها وحلوليتها هي أساس إحلاليتها، ولكن من المعروف أن الدولة الصهيونية ليست هوية يهودية، وإنما لها عدة هويات متداخلة مستمدة من المجتمعات التي يعيش فيها أعضاء الجماعات اليهودية قبل استقرارهم في فلسطين، كما أن

([1]) المصدر نفسه، ص٥١٩.

([2]) المصدر نفسه، ص٥٢١.

([3]) المصدر نفسه، ص٥٢٧.

(٤) المصدر نفسه، ص٥٣١.

هذه الدولة خاضعة لعملية أمركة واسعة وعلى جميع المستويات، باعتبارها دولة تابعة تعيش في الشرق، واحة للديمقراطية الغربية، ونظراً لارتباط الهوية بالوظيفية فهي تغير الهوية مع تغير الوظيفية([1]).

٧. **ازدواج المعايير والحكم بمقياسين (الأنا المقدس ضد الآخر المباح):**

يتضح هذا بشكل جلي في الفكر الصهيوني الحاد بين اليهود وغير اليهود([2]).

٨. **الحركية:**

والمقدرة على الانتقال من مكان إلى آخر ومن راعٍ لآخر.

٩. **التمركز حول الذات والتمركز حول الموضوع:**

رؤية حلولية عضوية مماثلة لرؤية الجماعة الوظيفية للكون([3]).

---

(١) المصدر نفسه، ص٥٣٣.

(٢) الجماعات الوظيفية، ص٥٣٦.

(٣) المصدر نفسه، ص٥٣٧.

الفصل السادس

رؤية المسيري لنهاية المشروع الصهيوني ومصير الدولة الوظيفية.

المبحث الأول: مفهوم المسيري ورؤيته حول الدولة الوظيفية وأزمة الصهيونية.

المبحث الثاني: أزمة الصهيونية وقانون الجيوب الاستيطانية.

المبحث الثالث: مصير إسرائيل والحركة الصهيونية.

- **كابوس التآكل.**
- **فرضية الزوال.**

المبحث الرابع: مصير دولة إسرائيل وتيار ما بعد الصهيونية.

المبحث الخامس: العلامات العشر لسقوط المشروع الصهيوني.

المبحث الأول

مفهوم المسيري ورؤيته حول الدولة الوظيفية

إن الدول لها أعمار وآجال كالبشر، فكما أن هناك حالة الإرهاص قبل الولادة، فكذلك الدول، لا بد أن تمر في عدة مراحل– ولادة ونشأة وشباب وكهولة ومن ثم شيخوخة– والتاريخ البشري حلقة أو مجموعة حلقات متناهية زماناً ومكاناً منفصلة بعضها عن بعض، تمثل كل حلقة منها دورة حضارية من يوم نشوئها عند ابتداء الحلقة إلى يوم وفاتها الحتمية عند احتمال وانغلاق الحلقة، فكل حضارة إذن عبارة عن حلقة لها بداية ونهاية، حلقة متناهية تمر بأطوار أربعة: التكوين، والولادة، والجمود، والانحلال والاضمحلال.

فالحضارات وفقاً لهذا النمط من التأويل تشبه الكائنات الحية، فهي تولد وتموت، ومن أبرز رواد هذه المدرسة: **شبنجلر** (١٨٨٠–١٩٣٦م) (Spengler) صاحب كتاب (أفول الغرب)، **أرنولد توينبي**Tooynby (Arnonld)، والأستاذ **تيجارت** (Teggart) من جامعة كاليفورنيا في توليفة تطور التاريخ History (The Process) الذي ألّفه عام ١٩١٨م، ونظرية التاريخ (Thecory of Hisstory)، وأيضاً سوروكين (Soroken) في كتابة (الحركة الاجتماعية والثقافية) والذي نشر عام ١٩٣١ وعام ١٩٤١، كذلك فان بياردي شارد (١٨٨١–١٩٥٥م) الذي كان كاهناً مسيحياً، وفي نفس الوقت عالم أنترولوجي تبين بعض خطوات الانفلات نحو الغد([١]).

وقد كتب عدة مفكرين وفلاسفة وباحثين أبحاثاً وكتباً هامة حول مستقبل الأمم والشعوب والحضارات، وعلى رأسهم (أرنولد توينبي) في كتابه: (مختصر دراسة التاريخ، وتاريخ البشرية)، و(أسوفالد شبنجلر) في كتاب: (أفول الغرب)– كما أسلفنا– أو (سقوط الحضارة الغربية)([٢])، و(كولن ولسون) في كتابه (سقوط الحضارة).

وقبل هؤلاء جميعاً العلامة المفكر الكبير والفقيه العربي المسلم: (عبد الرحمن بن خلدون) في مقدمته الشهيرة، فهو صاحب نظرية (أعمار الدول)، وهي نظرية سباقة سبق بها كل مفكري الغرب وفلاسفتهم، ووضع تصوراً في مقدمته، وضع فلسفة للتاريخ، وهي بلا مراء أعظم عمل من نوعه ابتدعه

(١) الأسطل، كمال، مستقبل إسرائيل بين الاستئصال والتذويب، القاهرة، ١٩٧٠، دار الموقف العربي، ص٢٠٥– ٢٠٦.

(٢) نشر أزوفالد شبنجلر الألماني سنة ١٩١٨م كتابه: سقوط الحضارة الغربية أو أفول الغرب، ويرى شبنجلر أن التاريخ يتألف من وحدات ثقافية مستقلة بذاتها، وأن كل ثقافة كالنبتة لها دورة حيث تزدهر هذه الثقافة وتنمو ثم يصيبها الانحلال، ثم تندثر، وقد قرأ توينبي كتاب اشبنجلر عام ١٩٢٠م، وقد تناول في دراسته ثماني ثقافات أو حضارات، وانتهى في تحليله إلى أن الحضارة الغربية محكوم عليها بالاندثار، أن حضارات الشرق ستحل محلها.

– انظر: حطاب، صدقي عبد الله، أرنولد توينبي، مجلة عالم الفكر، الكويت، وزارة الإعلام، مج٥، ص٢٩٧.

عقل في أي مكان أو زمان(١)، و(توينبي) نفسه له نظرية هامة حول الحضارات(٢) ونشأتها وبقائها واندثارها(٣) دونها في كتابه المشار إليه آنفاً، كما أن لهذا المفكر الكبير عدة آراء حول الصهيونية وقيام دولة إسرائيل، ففي رأيه: أن الاستعمار الإسرائيلي منذ إنشاء دولة إسرائيل هو أحد أسوأ حالتين في جميع تاريخ الاستعمار في العصر الحديث، ويزيد من شدة سواد الصورة تاريخياً، أن الصهاينة من أوروبا الشرقية يزاولون الاستعمار في فلسطين على شكل طرد السكان العرب المواطنين، وسلبهم مملكاتهم في الوقت الذي ترك فيه الأوربيون الغربيون حكمهم المؤقت للشعوب غير الأوروبية.

والصورة الثانية من الاستعمار تمت في الولايات المتحدة ما بين عامي ١٨٢٠م و١٨٣٨م عندما سلبت أراضي السكان الأصليين لخمس ولايات، وبمساندة الجيش الأمريكي في القرن التاسع عشر، وجريمة، والاستعمار الإسرائيلي الذي ينفذ الآن في وقت كتابة هذه السطور عام ١٩٦٩م، هو جريمة ومفارقة تاريخية أخلاقية(٤).

ومن هذا المنطلق يواجه المشروع الصهيوني أزمة حقيقة حتى أن عبارة أزمة الصهيونية أصبحت مصطلحاً أساسياً في الخطاب السياسي، ولا تخلو صحيفة إسرائيلية من عبارات مثل: " صهيونية بدون روح وانحسار الصهيونية الواحد تلو الآخر منذ بداية الحركة الصهيونية، وقد أدت الأزمة إلى انفراط العقد الاجتماعي.

ومن العناصر التي تقوّض الأيديولوجية الصهيونية إدراك المستوطنين أن يهود العالم، الذين كان يُشار إليهم بأنهم شعب بلا أرض، ثبت أنهم ليسوا شعباً، وإنما جماعات متفرقة لكل منها خطابها الحضاري الذي تستمده من المجتمع الذي تعيش بين ظهرانيه، كما أن غالبيتهم الساحقة متمسكة بوطنها الذي تعيش فيه، وأنهم ليسوا من الصهاينة الاستيطانيين، بل ينتمون إلى الصهاينة التوطينيين، الذين يرسلون غيرهم للاستيطان في فلسطين بينما ينعمون هم بالحياة المريحة الآمنة في الولايات المتحدة أو أوروبا.

---

(١) يذكر توينبي ابن خلدون في مواضع كثيرة من كتابه " دراسة التاريخ " ويفرد له في المجلد الثالث سبع صفحات (٣٢١-٣٢٧) وفي المجلد العاشر أربع صفحات (٨٤-٨٧) حطاب، صدقي عبد الله، أرنولد توينبي، مجلة عالم الفكر، الكويت، وزارة الإعلام، مج ٥،ع١، ص٣٩٢.

(٢) يرى توينبي أن الحضارة تنشأ عندما يواجه شعب تحدياً فيستجيب لهذا التحدي بقوة أكثر من التحدي نفسه، ومن شروط هذا التحدي أن لا يكون مفرطاً في قوته وإلا فقد يؤدي إلى الموت، وألا يكون مفرطاً في ضعفه، وإلا فإنه لن نستخلص الاستجابة الفعالة، وهكذا يطرح توينبي قانون الوسط الذهبي في مبدأ التحدي والاستجابة الفعالة.

- المصدر السابق، ص٣٠١.

(٣) يردد توينبي في أكثر من موضع من كتبه أن طريق الحضارة الغربية سيؤدي بها إلى التهلكة ما لم ترجع إلى الله نادمة وتائبة.

- المصدر السابق، ص٣٠٢.

(٤) حطاب، صدقي عبد الله، أرنولد توينبي، مجلة عالم الفكر، الكويت، وزارة الإعلام، مج٥،ع١، (ص٣٠٤-٣٠٥).

ولم تعد الدولة الصهيونية منذ أواسط السبعينيات، أو على وجه التحديد منذ عام ١٩٧٤م مركز استقطاب هام ليهود العالم، معني هذا أن الدولة الصهيونية بدأت تخسر من رأسي مالها البشري واليهودي، وإذا كان عدم هجرة العدد الكافي من اليهود إلى إسرائيل دليلاً على أن أهداف الحركة الصهيونية لم تتحقق كما قال **شافير ستولمان** فكيف يكون الأمر، وقد بدأت الدولة الصهيونية تتحول لمركز من مراكز تصدير اليهود وليس استقطابهم؟!.

لقد بات واضحاً أن الصهيونية، بعد أن استنفدت وسائلها غير المشروعة، بل والقدرة على تحريض ودفع جماهير اليهود نحو فلسطين، لم تعد تستطيع أن تستجلب بالوسائل العادية للحض والإغراء، إلا أعداداً يسيرة جدا من المهاجرين([١]).

والتحدي الحقيقي الذي تواجهه الصهيونية اليوم هو استمرارية مماثلة في الهجرة الوافدة وبأعداد كبيرة، لكن إخفاقها في استجلاب جماهير اليهود بأعداد تذكر، نتيجة اتجاه هذه الجماعات نحو الاستقرار والاندماج في مجتمعهم، وعدم رغبتها في اقتناعها بالهجرة إلى إسرائيل من جهة، وتزايد عدد النازحين عنها بالمقارنة مع عدد المهاجرين إليها من جهة أخرى، يضع الصهيونية في مأزق حقيقي ويكشف إفلاسها([٢]).

وقد " أدى إنشاء دولة إسرائيل وتحول الأقلية اليهودية إلى أغلبية مسيطرة سنة ١٩٤٨م، إلى إعطاء دفعة قوية للمشروع الصهيوني وهدفه النهائي في جمع الشتات، ويمكن القول أن ما أعلن لدى قيام دولة إسرائيل من أن الدولة الجديدة تفتح أبوابها للهجرة اليهودية يعكس الأهمية القصوى التي تحتلها هذه القضية في بناء الدولة القومية العبرية، ولهذا الغرض تم سن قانون العودة في العام ١٩٥٠م، وهو من أهم القوانين ولا سيما أنه وثيق الصلة بالطبيعة اليهودية الصهيونية للدولة الإسرائيلية، إذ تمّ بهدف تأمين وتكريس هذه الطبيعة "([٣]).

أزمة الصهيونية:

إن المقصود من هذا المصطلح هو: المشاكل التي تواجهها الصهيونية كعقيدة تستند إليها الدولة الصهيونية، وادعائها الشرعية على أساسها، ومن خلالها تؤسس علاقتها بيهود العالم ([٤])، وأسباب هذه

---

(٢) الصهيونية عجزت عن بناء مجتمع طبيعي وسوي، فظل الكيان الذي أنشأ في فلسطين في صراعات وحروب متواصلة مع جيرانه العرب، وصراعات داخلية نابعة من الخلفيات الاجتماعية والثقافية لليهود القادمين من كل مكان في العالم، فيعيش الإسرائيلي في صراع دائم مع ذاته وانقساماتها الأيديولوجية.

– انظر: الناشف إسماعيل، النفي في كتابة إسرائيل، أبحاث حول النظام والمجتمع والدولة في إسرائيل، مدار المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية، رام الله ،ط١، ص١١٧.

([٢]) الدجاني، هشام، اليهودية والصهيونية، دمشق: دار الحقائق، ص٤٦-٤٧.

(١) الحاج، ماجد، الشتات الروسي في إسرائيل، ص٦٧، رام الله، ٢٠٠٨، مركز مدار.

(٤) المسيري، موسوعة اليهودية والصهيونية، ج٧، ص٢٧٧.

الأزمة بنيوية، أي: لصيقة ببنية هذا الاستيطان ولم يحلها بل زادها تفاقماً، وإن ظلت في حالة كمون إلى أن بدت بشكل واضح عام ١٩٦٧م، وينبه المسيري إلى أن عناصر الأزمة كبيرة ومتشابكة، وقد أدت الأزمة إلى انفراط العقد الصهيوني أو على الأقل تآكله، فقد كان اتفاق على بعض المقولات الأساسية، مثل اليهود شعب واحد يضم الدينين واللادينين والإشكناز والسفارد وغيرهم.

وقد فشلت الصهيونية في تعزيز المكون اليهودي كأساس لهذا الشعب، وأزمة الصهيونية رغم بنيويتها، تزداد حدة وانفراجاً حسب الظروف التاريخية، ولأن طبيعة الأزمة بنيوية فلا يمكن حلها إلا عن طريق تغيير البنية نفسها، أي: العلاقات التي أسست في الواقع، وصهيونية الدولة أو يهوديتها المزعومة هي أساس عنصريتها، ومن ثم فلا سبيل لحل الأزمة إلا عن طريق نزع الصبغة الصهيونية عن الدولة الصهيونية ([١]).

تعود الأزمة الصهيونية إلى عدة أسباب بنيوية تتصرف إلى صميم المشروع الصهيوني الاستيطاني الإحلالي([٢])، ولكن ثمة سمات تتسم بها بنية الأيديولوجية الصهيونية نفسها ساعدت على تفاقم الأزمة، وهي:

١. الصهيونية لم تنبع من دوافع أعضاء الجماعات اليهودية في العالم، وإنما إلى بنية الأيديولوجية نفسها وأصولها الحضارية والفكرية.

٢. الطبيعة الاختزالية للفكر الصهيوني وتجاهله لمعطيات الواقع وإنكاره للتاريخ العربي في فلسطين، كما يتضح في إنكار الجغرافيا، ففلسطين تصبح إسرائيل، وهي بلد لا حدود لها، إذ أن حدودها توجد داخل مفهوم أرض إسرائيل (إرتس إسرائيل) بمعناه الديني.

---

(١) المصدر نفسه ،ج٧، ٢٧٨

(٢) " إحلالية الاستعمار الصهيوني معناها : قيام الاستعمار بالتخلص من السكان الأصليين، إما عن طريق الإبادة حتى يفرغ الأرض منهم ويحل محلهم الأمر بالنسبة لإسرائيل لا يختلف عن جنوب أفريقيا، فأصبح = تحقيق فائض القيمة واستغلال السكان الأصليين أحد الأهداف السياسية، فالهدف من الصهيونية هو إنشاء دولة وظيفية قتالية تستوعب الفائض البشري اليهودي وتقوم بحماية المصالح الغربية، وحتى تحتفظ هذه الدولة بكفاءتها القتالية، لا بد أن تظل هذه الدولة، بمعزل عن الجماهير العربية التي ستحارب ضدها، ولذلك كان طرد العرب من نطاق الدولة الصهيونية ضرورياً حتى تظل يهودية خالصة، فيهودية يهودية الدولة مرتبطة بإحلاليتها وإخلاء فلسطين من كل سكانها أو معظمهم هو أحد ثوابت الفكر الصهيوني، وهو أمر منطقي ومفهوم إذ لو تم الاستيلاء على الأرض مع بقاء سكانها عليها لأصبح من المستحيل تأسيس الدولة اليهودية وثمة عناصر خاصة بالاستعمار الاستيطاني ألإحلالي الصهيوني تضمن استمرار آليات الاحتكاك والتوتر بينه وبين السكان الأصليين وسكان المنطقة ككل، فمعظم التجارب الإحلالية الأخرى حلت مشكلتها السكانية (أي وجود سكان أصليين) بعدة طرق: التهجير والإبادة أو التزاوج مع عناصر السكان الأصليين، أو بمركب من هذه العناصر، ولكن التجربة الاستيطانية الصهيونية تختلف عن معظم التجارب الإحلالية الأخرى ".

- انظر: المسيري، موسوعة اليهودية والصهيونية، ج٧، ص٧٣-٧٤.

٣. تبعية الصهيونية وارتباطها العضوي بالحضارة الغربية، حيث تمّ نقل أعضاء هذه الجماعات ككتلة بشرية مستقلة توطن في وسط العالم العربي عن طريق القوة العسكرية، فهي صيغة لا علاقة لها بالواقع الغربي الذي زرعت فيه.

٤. العقيدة الصهيونية أيديولوجية فاشية، نسق عضوي مغلق يخلع القداسة على الأرض (أرض الميعاد) والشعب المختار وينكر الآخر، الصراع مع الأغيار والعقلية الجيتوية، هذه الأيديولوجيات تكسب حاملها قوة ومناعة وصلابة، ولكنها في الوقت نفسه تتسم بالجمود والانغلاق، ومن ثم فكثير من التناقضات الكامنة داخل الأيديولوجية أو في واقعها حينما تتبدى في الواقع، تظهر بشكل عنيف إن لم يكن فجائياً ([١]).

وأزمة الصهيونية متشابكة تتداخل فيها الأسباب والنتائج الأيديولوجية والواقع، ومع هذه الضرورات وأهم أوجه وأشكال الأزمة هي:

- إشكالية الديني والعلماني.
- أزمة الهوية.
- الأزمة السكانية والاستيطانية.
- أزمة القوة العسكرية.
- تفكك الأيديولوجية الصهيونية من خلال تصاعد النزعات الاستهلاكية ،والعلمنة والأمركة([٢])، والعولمة والخصخصة ([٣]).

ويحاول المسيري أن يلقي الضوء على الأزمة التي تحيط بالحركة الصهيونية في الوقت الراهن وما تواجهه من أزمة عميقة في الوقت الراهن لعدة أسباب، من بينها:

١. انصراف يهود العالم عن الصهيونية، فالصهيونية لا تعني لهم الكثير، فهم يفضلون الاندماج في مجتمعاتهم أو الهجرة إلى الولايات المتحدة.

([١]) عبد الوهاب المسيري، تاريخ الفكر الصهيوني جذوره ومساره وأزمته ٥٧١-٥٧٢، القاهرة : دار الشروق، ٢٠١٠م ،ص ١٤.

([٢]) الأمركة تعني: " تآكل الجذور وتساقط الحدود الأمر الذي يصعد السعار الاستهلاكي، وبالنسبة للأمركة فعلاقة إسرائيل بالولايات المتحدة علاقة خاصة وعميقة، فكلاهما مجتمع استيطاني مبني على محو تاريخ الآخر وإبادته وطرده، وكلاهما يستند إلى أسطورة الاستيطان الغربية (صهيون الجديدة) إلى جانب العلاقة الحضارية شبه الدينية، توجد العلاقة السياسية العملية، وهي أن الولايات المتحدة هي الراعي الإمبريالي للدولة الصهيونية الوظيفية التي تدعمه وتموله وتضمن بقاءه واستمراره، وهي تضم أكبر تجمع يهودي في العالم، وهي من أهم أسباب الأمركة، إلى جانب الاتجاه العام في كل مجتمعات العالم نحو الأمركة مع تصاعد معدلات العلمنة وتفشي النسبية الأخلاقية ".

- المسيري، موسوعة اليهودية والصهيونية، ٧، ص٢٩٧.

([٣]) الخصخصة تعني: " أن نقطة البدء هي الفرد وليس المجتمع، وأن المشروع الفردي يسبق المشروع القومي، ومثل هذا الموقف لا بد أن يزيد حدة السعار الاستهلاكي . وللخصخصة أعمق الأثر في التجمع الصهيوني، باعتباره تجمعاً استيطانيا لا بد أن ينظم نفسه تنظيماً جماعياً ليضمن لنفسه البقاء والاستمرار أمام مقاومة أصحاب الأراضي".

- المسيري، الموسوعة، ج٧، ص٥٧٣.

٢. تدهور صورة المستوطن الصهيوني إعلامياً بعد الانتفاضة الفلسطينية الأولى سنة ١٩٨٧م، وأصبحت الدولة تسبب لهم الحرج الشديد، ولم تعد من الممكن الدفاع عنها نتيجة لذلك أصبحت المادة البشرية المستهدفة ترفض الهجرة، الأمر الذي يسبب مشكلة سكانية استيطانية للمستوطن الصهيوني، ويلاحظ تزايد حركات رفض الصهيونية والتملص منها وعدم الاكتراث بها بين يهود العالم.
٣. خضوع الأيديولوجيا الصهيونية لقانون نهاية عصر الأيديولوجيات وما بعد الحداثة، وبدأت أجيال تنظر إلى الصهيونية بكثير من السخرية.

المبحث الثاني

أزمة الصهيونية وقانون الجيوب الاستيطانية

من الممكن أن تتضح أهداف الاستعمار الصهيوني واهتماماته الأساسية تماماً من وضوح الروابط القوية بين الاستعمار الصهيوني وبين المشروع الاستعماري في جنوب إفريقيا، والعلاقة العضوية بين مسيرة وبدايات المشروعين الاستعماريين([١]).

الجيوب الاستيطانية أينما كانت وإن اختلف غارسوها سواء في أسيا أو جنوب أفريقيا عن طريق الاستعمار الغربي فمصيرها واحد، وقد قام الاستعمار الغربي بزرع كثير من المستوطنين في جيوب استيطانية لاستيعاب الفائض البشري في القارة الأوروبية، حتى تكون قواعد للدفاع عن المصالح الغربية في آسيا وأفريقيا([٢]).

وينتمي الجيب الصهيوني الاستيطاني لهذا النمط من الجيوب، فقد أسس ليستوعب الفائض البشري اليهودي ولحل المسألة اليهودية، وفي الوقت نفسه عليه أن يقوم بحماية المصالح الغربية نظير الدعم العسكري والسياسي والمالي الذي يقدمه له الغرب، وقد رسخت العسكرية الصهيونية في وجدان الإسرائيليين فكرة أن إسرائيل دولة صغيرة تدافع عن نفسها ضد هجمات جيرانها العرب، بل إن الأيديولوجية الصهيونية تجعل اليهود شعباً مختاراً (بالمعنى الديني والعلماني).

وتخلع القداسة على كل ممتلكات الدولة، وبخاصة حدودها، كما تخلع القداسة على الجيش حتى وصف بأنه القداسة بعينها، وقد وصف بن جوريون الجيش بأنه خير مفسر للتوراة، فمفسر التوراة هو وحده القادر على تعريف حدود إسرائيل، ومن ثم اكتسبت الخدمة قداسة خاصة ([٣])، ولكن ما حدث في الفترة الأخيرة وحسب رصد الصحف والإعلام المرئي والمسموع، أصبح الوضع مغايراً لما هو معهود من قبل، " فقد لوحظ مؤخراً انصراف الشباب من المستوطنين الصهاينة عن الخدمة العسكرية، بل الفرار منها، فقد أشار إسحق مردخاي (أحد وزراء الدفاع السابقين) إلى أنه طرأ انخفاض حاد على مستوى الاندفاع والرغبة القتالية في صفوف الشباب الإسرائيلي"([٤]).

ويعزو المسيري أسباب الفرار من العسكرية إلى عدة أسباب أهمها:

---

(١) المسيري، إسرائيل وجنوب أفريقيا –نضج رابطة، بحث ضمن كتاب: إسرائيل وجنوب إفريقيا، ص٨٧، مصدر سبق ذكره.

(٢) المسيري، انهيار إسرائيل من الداخل، ٢٠٠٢، القاهرة، دار المعارف، ط١، ص١٥٧.

(٣) المصدر نفسه، ص١٥٧.

(٤) المصدر نفسه، ص١٥٨.

١ . سقوط نظرية الأمن الإسرائيلية.

٢. سقوط الإيديولوجية الصهيونية وتصاعد معدلات العلمنة والاستهلاكية والأمركة، وقد أدرك المستوطنون الصهاينة أن ذاكرة العرب حية، وأن ذراع الدولة الصهيونية الاستيطانية العسكرية القوية لا يمكن أن تضعهم في برج حصين، ولا أن تقدم لهم الحماية طوال الوقت.

٣. أدرك كثير من الشباب الإسرائيلي أن الدولة الصهيونية ليست في حالة دفاع عن النفس كما يقولون وإنما هي دولة عدوانية، وقد قمعت القوات الإسرائيلية الغازية المدنيين إبان ١٩٨٧م في انتفاضة الأقصى، وهو أمر يصعب تفسيره أو تبريره أو تصويره على أنه دفاع عن النفس، إلى جانب أن استخدام القوات العسكرية النظامية في ضرب المدنيين يفقدها كثيراً من احترامها لنفسها وانضباطها.

٤. زيادة معدلات العلمنة والعولمة والسعار الاستهلاكي، حيث يعمل هذا الجو على انخفاض روح القتال في صفوف الشباب الإسرائيلي؛ لأن الكثير منهم اعتقد أنهم وصولوا لمرحلة الراحة والبعض الآخر يرى أنه يجب ألا يساهم في الدفاع عن إسرائيل([١])، ومن المفارقات التي تستحق التسجيل والملاحظة، أن هذا الجيل الجديد الذي يفر من الخدمة العسكرية ولا يكترث بها– هو جيل أكثر عسكرية– كما يقول أفنيري شاليط– أستاذ العلوم السياسية بالجامعة العبرية– وقد ولد أعضاء هذا الجيل فيما يسمى (أرض إسرائيل)([٢]).

وهذا من أهم المؤثرات التي طبعتها تآكل الإيديولوجية الصهيونية، وهذا البعد هو من أهم الأبعاد، فلم يعد الشباب الإسرائيلي يأخذ الإيديولوجية الصهيونية على محمل الجد، والجدير بالذكر أن عدد هؤلاء آخذ في الازدياد نظراً لازدياد عدد المهاجرين إلى إسرائيل– وبخاصة من روسيا– فدافع الهجرة عند هؤلاء دافع اقتصادي محض لا تشوبه أية شوائب أو ادعاءات أو مثاليات صهيونية... حيث إن الفشل الأيديولوجي وتآكل الأيديولوجية يولد ما يسمى (أزمة الإنسان المعنى)، وعادة ما تؤدي أزمة المعنى إلى إحساس بالعدمية يحاول الإنسان التغلب عليه من خلال الاستغراق في عنصر مادي بشكل كامل (شرب المخدرات – الإباحية– الاستهلاك)، يبحث الإنسان من خلاله عن قدر من الثبات والتوازن إن لم يكن من اليقين.

لكن ما يحدث هو العكس إذ لا بد من تهدئتها، وبذلك يزداد تآكل الأيديولوجية وتقويضها ومن ثم ينكفئ المستوطن على نفسه ويبحث عن بقائه الشخصي وعن خلاصه من خلال التوجه الحاد نحو اللذة، وهذا مما أدى إلى تآكل مفهوم الاستيطان والدعوة إلى خوض الحروب مع الجيران العرب وهذه الدعوة لا تجد لها الآن آي مجيب، وحسب رؤية المسري: " هذه الظواهر موجودة في كل المجتمعات ولكن أثرها السلبي أعمق في التجمع الصهيوني؛ لأنه مجتمع يستند عقده الاجتماعي إلى أيديولوجية تشكل الهوية عصبها وعمودها الفقري"([٣]).

([1]) المسيري، انهيار إسرائيل من الداخل، ص١٦٣–١٦٦ – بتصرف.

([2]) المصدر نفسه، ص١٦٨.

([3]) المصدر نفسه، ص١٧٢.

وكان لذلك الأثر الأكبر في إحداث التراجع والخلل على الأوضاع الداخلية والخارجية للكيان الاستيطاني، لم تعد الدولة الصهيونية منذ أواسط السبعينيات، أو على وجه التحديد منذ عام ١٩٧٤م مركز استقطاب هام ليهود العالم، فمنذ ذلك العام بدأت أرقام الهجرة الوافدة تتناقص سنة بعد أخرى حتى وصلت في العام ١٩٨١م إلى أدنى حد لها منذ ولادة هذه الدولة، ولم يقف الأمر عند حد تناقص معدلات الهجرة الوافدة فحسب، بل رافق ذلك تزايد في معدلات الهجرة المغادرة (النزوح عن إسرائيل).

وسجل هذا التزايد في معدلات الهجرة المغادرة ارتفاعا ملحوظاً وثابتاً منذ العام ١٩٧٩م بل إن انقلاباً ملفتاً للنظر حدث في السنتين (١٩٨٠– ١٩٨م) في ميزان الهجرتين الوافدة والمغادرة، حيث بلغت نسبة الثانية إلى الأولى (١٥٠%) في العام ١٩٨٠م، و(٣٠٠%) في العام ١٩٨١م، مما يعني أن الدولة الصهيونية خسرت ٩ آلاف يهودي في العام ١٩٨٠م، و٢٤ ألف يهودي في العام ١٩٨١م ([١]).

معنى هذا أن الدولة الصهيونية بدأت تخسر من رأسي مالها البشري واليهودي، وإذا كان عدم هجرة العدد الكافي من اليهود إلى إسرائيل دليلاً على أن أهداف الحركة الصهيونية لم تتحقق– كما قال شافير ستولمان– فكيف يكون الأمر، وقد بدأت الدولة الصهيونية تتحول لمركز من مراكز (تصدير اليهود) وليس استقطابهم ؟!.

ولعل هذا يذكرنا بما قاله غولدمان حول إخفاق الصهيونية في تجميع يهود العالم، أو معظمهم في إسرائيل، يقول غولدمان: " يرتكز طموح الصهيونية في إيجاد حل نهائي للقضية الصهيونية... إلى مسلمتين لم يكن لأية منهما أساس في الواقع، فالأيديولوجية الصهيونية تعتبر من الثابت أن الأكثرية الساحقة، إن لم يكن مجموع الشعب اليهودي، سيشد الرحال ويهاجر إلى الدولة اليهودية، بهذا يصار إلى حل القضية الأبدية لتشتيت اليهود.

أما بالنسبة لليهود القاطنين خارج الدولة اليهودية فهم إما أن يتمثلوا ويذوبوا، كما هو الحال الآن، وإما أن يرتبطوا بشكل حميم بالوطن اليهودي، إن تينك المسلمتين مليئتين بالسذاجة، ولا تتحسبان للنتائج المعقدة التي يجرها خلق دولة يهودية في فلسطين([٢])، لقد بات واضحاً أن الصهيونية، بعد أن استنفدت وسائلها غير المشروعة، بل والقدرة على تحريض ودفع جماهير اليهود نحو فلسطين.

لم تعد تستطيع أن تستجلب بالوسائل العادية للحض والإغراء، إلا أعدادا يسيرة جدا من المهاجرين، والتحدي الحقيقي الذي تواجهه الصهيونية اليوم هو إن استمرارية مماثلة في الهجرة الوافدة وبأعداد كبيرة، لكن إخفاقها في استجلاب جماهير اليهود بأعداد تذكر، نتيجة اتجاه هذه الجماهير نحو الاستقرار والاندماج في مجتمعها، وعدم رغبتها في اقتناعها بالهجرة إلى إسرائيل من جهة، وتزايد عدد النازحين عنها

([١]) المصدر السابق، ص١٧٢.

(٢) الدجاني، هشام، اليهودية والصهيونية، ١٩٧٥، بيروت: دار الحقائق، ط١، ص ٣٨–٤٠ بتصرف.

بالمقارنة مع عدد المهاجرين إليها من جهة أخرى، يضعها– الصهيونية– في مأزق حقيقي ويكشف إفلاسها(1).

تقول البروفيسورة (كونستانس هيليارد)(2) حول وجهات نظرها في مستقبل إسرائيل:" لدَيْنا فرصةٌ جديدة للتَّركيز حول مستقبل إسرائيل، وخصوصًا حول دورها في الوضع العام، في هذه النُّقطة تتكلَّم البروفيسورة (كونستانس هيليارد) حول وجهات نظرها ومستقبل إسرائيل ولقد ناقشت الكثير في كتابها المُثير "هل لإسرائيل مستقبل (Does Israel Have Future؟) الكتاب الذي يركز على مستقبل الدَّولة اليهوديَّة، وناقشَت فيه أهمّ ما يشغل الإسرائيليِّين منذ ١٩٤٨.

وصرحت بدقة أكثر قائلة: أكثر من نصف الإسرائيليِّين اليهود يَمْتلكون– أَو قدَّموا– طلبات لجوازات السَّفر إلى بلاد أخرى؛ لأنَّهم في أعماقهم يَعرفون أنَّ بلادهم وصلَتْ لنهاية مَسْدودة إستراتيجيًّا، فإسرائيل اعتقدَتْ أنَّها يمكن أَن تأخذ العالَم العربي إلى الاستسلامِ بفضل القوَّة العسكرية الساحقة التي يُلوِّحون بامتلاكها بمساعدة أمريكا، لكن هذه الإستراتيجيَّة لم تأخذ في الحسبان تلك الإمكانيَّات التي نراها حاليا، تلك المرحلة التي تعتمد على الأمَّة اليهوديَّة_في ١٩٤٨م اعتقد مُؤسِّسو الدولة اليهوديَّة بأنَّهم كانوا يخْلقون كيانًا سياسيًّا يمكن أَن يَحمي اليهود إلى الأبد، لكن بدلاً من أَن يُصبح ملجأً آمنًا لليهود كما حلم الصهاينة الأوائل بإسرائيل؛ اكتشفوا_ في الحقيقة _ أنه قد تمّ نقل الحلم إلى أكثر الأماكن خطورة على الأرض، وأكثرها اشتعالا.

والسؤال الذي يطرحه المسيري هو: هل ستنهار إسرائيل من الداخل؟ ثم يجيب عليه بالإحصائيات والرصد الرسمي من داخل الإعلام الإسرائيلي، حيث يرصد الدكتور المسيري هواجس الإسرائيليين بصدد مصير دولتهم وما تم التصريح به في عدة صحف ومجلات أورد منها: إن مجلة نيوزويك (٢إبريل ٢٠٠٢م) صدرت وقد حمل غلافها صورة نجمة إسرائيل، وفى داخلها السؤال التالى: مستقبل إسرائيل: كيف سيتسنى لها البقاء؟.

وقد زادت المجلة الأمور إيضاحاً حين قالت: هل ستبقى الدولة اليهودية على قيد الحياة؟ وبأي ثمن؟ وبأية هوية؟، ولكن ما يهمنا في هذا السياق ما قاله الكاتب الإسرائيلي **عاموس أيلون** الذي أكد: أنه في حالة يأس لأنه يخشى أن يكون الأمر قد فات، ثم أضاف: لقد قلت لكم مجرد نصف ما أخشاه (النصف الثاني أن الوقت قد فات بالفعل).

ويتكرر الحديث عن نهاية إسرائيل في مقال آيتان هابر بعنوان:(ليلة سعيدة أيها اليأس...والكآبة تكتنف إسرائيل)(يديعوت أحرونوت ١١نوفمبر ٢٠٠١م)، يشير الكاتب إلى أن الجيش الأمريكي كان مسلحاً بأحدث المعدات العسكرية، ومع هذا يتذكر الجميع صورة المروحيات الأمريكية تحوم فوق مقر السفارة فى

---

(١) المرجع نفسه، ص٤٦-٤٧ بتصرف.

(٢) كونستانس هيليارد: أستاذُ التَّاريخ في جامعة شمال تكساس، تَخصَّصت في الشرق الأوسط وإفريقيا، حاصلة على الدكتوراه من جامعة هارفارد، وأجرت بحثًا في غرب إفريقيا ومصر، كما قامت كمستعربة بترجمة مخطوطات كثيرة من التقاليد الأدبيَّة في القرن السادس عشر.

سايجون عاصمة فيتنام الجنوبية، محاولة إنقاذ الأمريكيين وعملائهم المحليين في ظل حالة من الهلع والخوف حتى الموت.

إن الطائرة المروحية هي رمز الهزيمة والاستسلام والهروب الجبان في الوقت المناسب، ثم يستمر الكاتب نفسه في تفصيل الموقف: إن جيش الحفاة في فيتنام الشمالية قد هزم المسلحين بأحدث الوسائل القتالية، ويكمن السر في أن الروح هي التي دفعت المقاتلين وقادتهم إلى الانتصار، الروح تعنى المعنويات والتصميم والوعي بعدالة النهج والإحساس بعدم وجود خيار آخر، وهو ما تفتقده إسرائيل التي يكتنفها اليأس، أما أبراهام بورج فيقول في مقال له (يديعوت أحرونوت، ٢٩ أغسطس ٢٠٠٣م) إن نهاية المشروع الصهيوني على عتبات أبوابنا.

وهناك فرصة حقيقية لأن يكون جيلنا آخر جيل صهيوني، قد تظل هناك دولة يهودية، ولكنها ستكون شيئا مختلفاً، غريبة وقبيحة... فدولة تفتقد للعدالة لا يمكن أن يُكتب لها البقاء إن بنية الصهيونية التحتية آخذة في التداعي... تماماً مثل دار مناسبات رخيصة في القدس، حيث يستمر بعض المجانين في الرقص في الطابق العلوي بينما تتهاوى الأعمدة في الطابق الأرضي، ثم أطل الموضوع برأسه مجدداً في مقال ليرون لندن (يديعوت أحرونوت ٢٧ نوفمبر ٢٠٠٣) بعنوان: (عقارب الساعة تقترب من الصفر لدولة إسرائيل)، وجاء فيه في مؤتمر المناعة الاجتماعية الذي عُقد هذا الأسبوع، عُلم أن معدلاً كبيراً جداً من الإسرائيليين يشكون فيما إذا كانت الدولة ستبقى بعد ٣٠ سنة، وهذه المعطيات المقلقة تدل على أن عقارب الساعة تقترب من الساعة ١٢، (أي لحظة النهاية) وهذا هو السبب في كثرة الخطط السياسية التي تولد خارج الرحم العاقر للسلطة"([1]).

مستقبل إسرائيل وهل ستنهار إسرائيل من الداخل؟

هل ستنهار إسرائيل من الداخل من تلقاء نفسها بسبب أزمتها وتناقضاتها الداخلية الحادة؟ كثيرا ما يطرح هذا السؤال، وللإجابة على هذا السؤال سنذكر بعض الإحصاءات ذات الدلالة الاجتماعية الخاصة بالتجمع الصهيوني، والتي تبين معدلات التآكل الداخلي، من المعروف أن مؤسسة الكيبوتس كانت هي العمود الفقري للتجمع الصهيوني، فمعظم أعضاء النخبة السياسية الحاكمة بل والثقافية كانوا من خريجيها حتى عام ١٩٧٧م، ولكن الكيبوتس تعرض لكثير من الأزمات وتغير طابعها العام، بل فقد شيئًا من طابعه الجماعي العسكري، وقد نشرت جريدة يديعوت أحرونوت(٢ يناير، ٢٠٠٠م) ما يلي:

أعلنت أمس هيئة مكافحة المخدرات أن تعاطي المخدرات الخفيفة في مزارع الكيبوتس قد تضاعف خلال خمس سنوات حيث قام (٢٣.٥%) من أبناء الكيبوتس ممن تراوحت أعمارهن بين (١٨– ٣٠) سنة بتعاطي مخدرات خفيفة خلال عام ١٩٩٨م مقابل (١١.٤%) تعاطوا الحشيش والماريجوانا خلال

([1]) سيد أحمد، د.رفعت (Email:yafafr@hotmail.com)، نهاية إسرائيل...(قراءة فى أزهار من حديقة المسيري المنسية على موقع الويب التالي: http://www.facebook.com/group.php?gid=177305179592

عامي(١٩٩٢– ١٩٩٣م)، وكان البحث قد أجري في ٢٢ كيبوتسًا، وشمل ٦٦٢ فردًا بناء على طلب من هيئة مكافحة المخدرات.

وماذا عن المجتمع الإسرائيلي ككل؟ أشارت معطيات جديدة نشرت في تل أبيب إلى تفاقم ظاهرتي معاقرة الخمر وتعاطي المخدرات بين صفوف تلاميذ المدارس الإسرائيليين. وذكرت صحيفة معاريف (٥ يونيو ٢٠٠٠م) أن استطلاعًا خاصًّا أجرته وزارة العمل والرفاه الاجتماعية الإسرائيلية لحسابها مؤخرًا، أظهر أن (٣٧%) من تلاميذ صفوف العاشر في المدارس الإسرائيلية معتادون على تناول الخمر، وأن (٨%) من التلاميذ المعتادين على الشرب أبلغوا أنهم يستهلكون مرارًا في المساء الواحد ست كؤوس من الخمر.

من جهة أخرى يتضح من معطيات صادرة عن "مجلس سلامة الطفل في إسرائيل" أن ارتفاعًا بنسبة (٣٠%) قد سجل خلال عام ١٩٩٩م على عدد الشبان الإسرائيليين القاصرين الذين وجهت إليهم تهمة الاتجار بالمخدرات، حيث قدم في عام ١٩٩٨م ما مجموعه ٤١٧ لائحة اتهام ضد شبان ضُبطوا يمارسون تجارة المخدرات، وحيازتها لغير أغراض الاستهلاك الذاتي، وقد ارتفع عدد لوائح الاتهام المماثلة الموجهة في عام ١٩٩٩م إلى ٥٥٦ لائحة اتهام.

والحياة العائلية في التجمع الصهيوني في حالة تآكل، فقد ذكرت جريدة معاريف (٢٥ يناير ٢٠٠٠م) أن من بين كل(٣) حالات زواج يكون مصير حالة منها الطلاق، وقد طرأت زيادة بنسبة (١٥%) في عدد حالات الطلاق بإسرائيل منذ عام ١٩٩٠م، واستمرت هذه الزيادة أيضًا خلال السنة الميلادية الماضية، حيث سجلت زيادة بنسبة (١%) في عدد حالات الطلاق (نحو ٨٦٠٤حالات)، وتتصدر منطقة تل أبيب (قائمة الطرق) حيث وقعت (٣٠١٦) حالة طلاق عام ١٩٩٩م بزيادة قدرها (٢١%) مقابل ١٩٩٨م.

وقد ذكر ملحق هآرتس في(٩ مايو ٢٠٠٠م) أن عدد السيدات اللاتي أنجبن خارج إطار الزواج ارتفع من واحد لكل مائة حالة إنجاب في السبعينيات إلى (٨،١) لكل مائة حالة إنجاب في عام (١٩٩٤م) وفي نفس الشهر أشارت جريدة يديعوت أحرونوت إلى أنه قد طرأت زيادة بنسبة (٥٠%) في عدد حالات الاعتداء الجنسي على الأطفال داخل الأسرة، كما طرأت زيادة بنسبة ٢٥% في عدد حالات الجرائم الجنسية التي يتعرض لها الصغار خارج نطاق الأسرة في عام ١٩٩٩م.

والتآكل الأسري عادة ما يؤدي إلى تزايد معدلات العنف بين الأطفال والشباب، وبالفعل ذكرت جريدة يديعوت أحرونوت (٢٤ مايو ١٩٩٩) أن الإحصاءات تشير إلى معدلات عالية من العنف في كل المجالات وجميع المراحل السنية وكل شرائح السكان، وكشف كثير من التلاميذ عن تعرضهم للعنف اللفظي والبدني، ويعتبر العنف البدني هو الأكثر ذيوعًا بين تلاميذ المدارس الابتدائية، بينما يقل معدله

مع اقترابهم لسن البلوغ. واكتشف الباحثون أن الاعتداءات البدنية البسيطة هي الأكثر انتشارًا، وإن كان معدل السلوك المتطرف ليس هينًا.

وأضافت الصحيفة أن أكثر من (٥٠%) من تلاميذ الصفوف من السادس إلى العاشر كانوا مشتركين في العنف بصورة ما، وأكثر من (٦٠%) من التلاميذ اشتركوا في أعمال بلطجة تجاه زملاء لهم أو كانوا ضحايا لأعمال عنف. واشترك حوالي (١٥%:٢٠%) في مستويات أكثر خطورة من العنف، وأصيب حوالي(١٤%) خلال مشاجرات وكانوا في حاجة إلى علاج طبي.

وفي محاولة تفسير ظاهرة العنف نشر مقال في جريدة هاتسوفيه (٧ إبريل ٢٠٠٠م) بعنوان: (فناء مدرسة أم ساحة قتال؟) يبين أن العنف بين الشباب لم يأتِ من فراغ، بل إنه تغذى من العنف ذي المستوى المرتفع في مجتمع البالغين، وبصفة خاصة من اللامبالاة تجاه مظاهر العنف في السلوك الإسرائيلي.

ثم نأتي أخيرًا للشذوذ الجنسي، ورغم أن اليهودية الحاخامية التقليدية تحرّمه، فإن معظم المذاهب الدينية اليهودية المعاصرة مثل اليهودية الإصلاحية والمحافظة، قد تقبّلته وقنّنت له، بل أنشأت مدارس دينية خاصة لتخريج الحاخامات الشواذ جنسيًّا، وقد أبرم حاخام إصلاحي عقد زواج بين رجلين أمام حائط المبكى عام ١٩٩٨م، وكان يُعَدّ انتصارًا لحرية الرأي.

والشذوذ الجنسي أصبح مقبولاً في المجتمع الإسرائيلي، فعلى سبيل المثال: بينيك الذي يلبس دبلة الزواج الآن، سيتزوج من صديقه العام المقبل، يقول **بينيك** (كما جاء في ملحق صحيفة هآرتس١٤ إبريل ٢٠٠٠م) وضع الشواذ جنسيًّا في إسرائيل الآن أفضل من الناحية القانونية والتشريعية، وهو من أفضل الأوضاع على مستوى العالم. نحن متساوون تقريبًا مع الدول المتقدمة في العالم مثل: الدانمرك، وهولندا، فلا يوجد في إسرائيل قانون يمنع أن تكون شاذًا جنسيًّا، ولا يوجد قانون يمنع اللواط، بالعكس هناك قانون المساواة في فرص العمل تقوم المحاكم بدراسته ويروع أصحاب الأعمال عن التمييز ضد الشواذ، في كل مرة يحاولون التمييز ضدنا تصدر المحاكم حكمها لصالحنا.

وبالإضافة إلى ذلك نحن في طريقنا نحو إصدار قوانين التبني التي تسمح للشواذ بتبني الأطفال، وهو يعتقد بأن الشواذ وحلفاءهم من أعضاء منظمات حقوق الإنسان سينجحون خلال عشر سنوات في أن يكون التشريع الإسرائيلي عادلاً تمامًا، بما في ذلك الاعتراف بالزواج بين الشواذ، والآن بعد أن ذكرنا هذه الأرقام والإحصاءات يمكننا أن نطرح السؤال الذي طرحناه في بداية المقال، هل هذا يعني أن المجتمع الإسرائيلي سينهار من الداخل، كما يمني البعض نفسه؟ الإجابة على هذا ستكون بالنفي القاطع للأسباب التالية:

١. مقومات حياة التجمع الصهيوني لا تنبع من داخله وإنما من خارجه، فهو مدعوم ماليًّا وعسكريًّا وسياسيًّا من الولايات المتحدة، والعالم الغربي والجماعات اليهودية فيه؛ ولذا فهو لا يمكن أن ينهار من الداخل!
٢. يتسم المجتمع الإسرائيلي بالشفافية، وبالتالي حينما تتضح ظواهر سلبية فإنه يقوم بدراستها والتصدي لها أو التكيف معها.
٣. توجد مؤسسات ديمقراطية وعلمية يمكن لكل قطاعات السكان في التجمع الصهيوني أن يقدموا الحلول من خلالها.
٤. ثبت أن كثيرًا من المجتمعات يمكنها أن تعيش في حالة أزمة عشرات بل مئات السنين، طالما أنه لا يتحداها أحد من الخارج.

وأعتقد أن الحاسوب (الكمبيوتر) يساهم في هذه العملية؛ إذ يمكن للإنسان المتفسخ بشريًّا أن يستمر في العمل من خلاله، وأن يطلق الصواريخ التي تصيب أهدافها بدقة بالغة حتى لو كان شاذًّا جنسيًّا أو تعاطَى الخمور والمخدرات في الليلة السابقة. إن القضاء على الجيب الاستيطاني لا يمكن أن يتم إلا من خلال الجهاد اليومي المستمر ضده، وما نذكره من عوامل تآكل في التجمع الصهيوني هي عوامل يمكن توظيفها لصالح الفلسطينيين، كما أنها تبين لنا حدود العدو وأنه ليس قوة ضخمة لا تُقهر، لكنها في حد ذاتها لا يمكنها أن تُودي به أو أن تؤدي إلى انهياره .

يجب ألا تخدعنا الأرقام الصماء وألا نتصور أنها الحقيقة، فالأرقام مجرد حقائق، والحقيقة غير الحقائق، فهي ثمرة اجتهاد إنساني، وليس مجرد تلقٍّ ببغائي، واجتهادنا في قراءة الحقائق يؤكد أن الجهاد ضد العدو ضرورة.

وفي الختام يحدد المسيري عشر علامات لسقوط المشروع الصهيوني وانهيار دولة إسرائيل.

المبحث الثالث

مصير إسرائيل والحركة الصهيونية

" إن جميع الحقائق تؤكد أن الوقت يعمل ضد الوجود الإسرائيلي في المنطقة العربية، خاصة إذا أدركنا من حقائق التاريخ بأن جميع الغزوات الوافدة للمنطقة العربية كان مصيرها الفشل ابتداءً منذ بدايتها وحتى ذوبانها في المنطقة، فإسرائيل لن تخرج عن هذه المتغيرات التي تحدد مستقبل الكيانات الوافدة المصطنعة في القارة العربية"([١]).

لعل من أهم ما صدر أخيراً في دولة الكيان هو الكتاب الذي نحن بصدده، حيث يشخص من عمق الداخل ما يعانيه هذا الكيان من فجوات قد تؤدي في النهاية إلى مصيره المحتوم، وتكمن أهميته في أن مؤلفَيه هما إسرائيليان آكاديميان، يطرح المؤلفان جملة من التساؤلات المتعلقة بالدرجة الأولى بعنوان الكتاب([٢])، وهو مستقبل إسرائيل، ومنها: إلى متى ستبقى إسرائيل قادرة على استيعاب المخاطر الكامنة أمامها، والتي تشكل تهديداً وجودياً على بقائها في الشرق الأوسط؟ وهل سيصمد الإسرائيليون على العيش في هذه المنطقة دون الحاجة لتوقيع اتفاق سلام قابل للبقاء والاستمرارية، مع جميع جيرانها العرب؟([٣]).

وهما بذلك يحملان الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة مسؤولية انتشار مظاهر الكراهية والعداء والإخفاقات الدبلوماسية مع عدد من دول المنطقة العربية والإسلامية، مما يجعل من الوصول إلى اتفاق سلام يضمن لإسرائيل بقاءها أمراً متأخراً جداً، إن لم يكن قد ذهب إلى غير رجعة.

يتناول المؤلفان في صفحات الكتاب ما سمياه تغير (جيو- استراتيجي) في الصورة الإقليمية والمشهد العالمي، لم يكن حين قامت دولة إسرائيل قبل أكثر من (٦٤)عاماً، وذلك في استبعاد واضح منهما، قد يجلب عليهما انتقادات صهيونية ويهودية عديدة، تتعلق بالشعارات الدينية الخاصة بأرض الميعاد، وهما بذلك يجريان مسحاً ميدانياً علمانياً للتطورات الحاصلة في منطقة الشرق الأوسط منذ عدة سنوات، وكلها ذات صلة مباشرة بمدى قدرة إسرائيل على البقاء فيها، بل إنهما يطرحان فرضية غياب إسرائيل، واختفائها عن خارطة المنطقة، كسيناريو بات قابلاً للتطبيق، ربما أقرب من أي وقت مضى!

([١]) الأسطل، كمال، مستقبل إسرائيل بين الاستئصال والتذويب، القاهرة، ١٩٨٠م.

([٢]) كتاب: الشكوك المحيطة بمستقبل إسرائيل، المؤلفان: أوليفيا بوركوفيتش، وريشار لاوف، تل أبيب2011م مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات،–12/12/2011 للكتب والدراسات، عدد الصفحات: ٢٧٢ صفحة، عرض: عدنان أبو عامر.

([٣]) أدرك منظرو الحركة الصهيونية والناشطون فيها هذه الحقيقة، وتحدثوا بمنتهي الصراحة عن طبيعة مشروعهم، والعوامل التي تضمن له النجاح والبقاء، وكذلك العوامل التي تؤدي إلي إفشاله. فهو ينجح إذا استطاع أن يفرض اليأس في نفوس الفلسطينيين والعرب عامة من إمكانية مقاومته، ويفشل إذا لم يستطع ذلك. وفي هذا المقال نستعرض موقف واحد من أخطر قادة الحركة الصهيونية، والذي سارت الحركة ووليدتها إسرائيل وفق المنهج الذي وضعه.

- راجع مقال د.أنيس القاسم بعنوان: شروط فشل المشروع الصهيوني من منظور واضعيه... نشر في جريدة القدس العربي التي تصدر في لندن بتاريخ ٢٠٠٨/٣/١٩م.

كابوس التآكل:

يحفل الكتاب بما يسميها سيناريوهات تنتظر مستقبل إسرائيل، تستند في معظمها إلى ما وصلت إليه مراكز أبحاث إسرائيلية وأخرى غربية موالية لإسرائيل، مكلفة من حكوماتها وإداراتها السياسية، معتبراً أن العقدين القادمين يحملان لإسرائيل ما أطلقا عليه (كابوساً)، حافلاً بالأخطار المحدقة، كونه مركب من مجموعة عناصر، كالجاليات اليهودية والقوة الاقتصادية والسياسية، ومكانة إسرائيل، وقوة جيشها، وهو ما يجعلها تتعرض لأخطار مختلفة ومحددة.

ويحاول المؤلفان أن يفصِّلا في بعض مظاهر مستقبل إسرائيل الغامض في المنطقة العربية، من خلال تعرض الكتل السكانية اليهودية في أنحاء العالم لهجمات "كارثية" متواصلة، مما سيقلص الكتلة الديموغرافية اليهودية في العالم، وتدهور فظيع يتعلق بمسألة الهوية اليهودية، وانخفاض أعداد الأطفال الحاصلين على تعليم ديني يهودي، وتعاظم التعاون المتوقع بين الدول الإسلامية المعادية التي تمتلك قدرات تكنولوجية، مما سيؤدي لامتلاك ثلاث دول منها على الأقل لقنبلة نووية، بشكل يزيد من خطر القضاء تماماً على كتل سكانية يهودية بكاملها، فضلاً عن تراجع تأثير الطوائف اليهودية على مستوى العالم، لا سيما في الولايات المتحدة.

وبالرغم من أن المجال لا يسمح باستعراض كافة الظواهر التي تشكل قلقاً لمؤلفي الكتاب، وتعتبر بنظرهما شواهد كافية للخوف على مستقبل إسرائيل، لكن تحولها إلى دولة (خاوية) نتيجة تزايد معدلات الهجرة العكسية، وهروب العقول البشرية الجيدة منها، سيؤدي إلى تراجع مستواها العلمي والتكنولوجي، إلى جانب تزايد قضايا الفساد، وقلة الخبرة في القيادات اليهودية الحاكمة، بعد أزمة يعاني منها النظام السياسي الإسرائيلي منذ سنوات تعرف بـ"غياب جيل التأسيس.

فرضية الزوال([1]):

يستدرك المؤلفان بالقول: في ضوء الطبيعة الدينية لإسرائيل، يصعب التنبؤ بمستقبلها السياسي من خلال أدوات التحليل العلمي المستقبلي وأساليبه، التي تسمح بتقديم صورة حقيقية لحدود وآفاق المستقبل المتوقّع، الأمر الذي يجعل وضع تقدير موقف حول مكانة إسرائيل في المنطقة، مسألة تتَّسم بالغموض، وتستعصي على التحليل العلمي، ومن ثم يصعب تشكيلها، أو تخطيطها، أو التحكّم في تطورها، لكن المؤلفان يحاولان من خلال الكتاب، الذي أحدث ضجة في الأوساط الأكاديمية والبحثية الإسرائيلية، أن يضعا جملة من المعايير السياسية التي تسمح بالتنبؤ بتحقق الفرضية المرعبة الخاصة بزوال إسرائيل على المدى البعيد، ووضع تساؤلات حول مستقبلها على المدى القريب، ومنها: قوة الاتجاهات العلمانية

([1]) الزوال أو التعجيل بالنهاية، حيث اتهم الحاخامات الصهيونية بأنها تسعى إلى التعجيل بالنهاية لمشيئة الإله، والصهيونية نفسها واعية بأن موقفها من العودة مختلف عن الموقف التقليدي، الذي انتقده بن غوريون ووصفه بالسلبية والإتكالية.

– المسيري، الموسوعة المختصرة، ج١، ص٧٢.

داخلها، وعمليات الهجرة المضادة خارجها، واختلال الكمّ السكاني لصالح العرب، والانحلال الاجتماعي، والأوضاع الاقتصادية، وكل ذلك على المستوى الداخلي.

أما على المستوى الإقليمي، فقد أشار المؤلفان إلى مجموعة من المتغيرات: كافتقاد إسرائيل لمساندة بعض الدول كتركيا، وإيران، وتغيّر بعض القيادات العربية، وتنامي مشاعر العداء ضدّ السلوك الإسرائيلي، والتغيرات في الساحة العربية، والتكتلات السياسية والاقتصادية التي تجسّد الاتجاه نحو التجانس الإقليمي.

الكتاب الذي بين أيدينا ليس الأول من نوعه الذي يتناول هذه القضية الحساسة، والمعضلة التي باتت تؤرق صناع القرار في إسرائيل وخارجها، فقد صدرت وثائق سياسية ومذكرات بحثية وأوراق عمل لمناقشتها، بل شهدت الساحتان: السياسية والأكاديمية في إسرائيل عقد مؤتمرات وأيام دراسية في السنوات الأخيرة للبحث في المآلات التي تنتظر إسرائيل في المنطقة.

ومع ذلك فإن الكتاب الذي بين أيدينا، والصادر لتوه في إسرائيل، يكتسب أهميته الجادة من كون مؤلفيه مهتمان بالصراع العربي الإسرائيلي، وقد عملا خلال السنوات السابقة فيما بات يسمى (الدراسات الاستشرافية) في الجامعات الأوروبية والأمريكية، ويحاضران فيها منذ عقود، فالمؤلف الأول باركوفيتش حاصل على شهادة الدكتوراه من الجامعة الكاثوليكية في مدينة لوبان البلجيكية، وعمل خلال العشر سنوات الماضية محرراً رئيسياً للدورية السنوية المعروفة باسم (Regards)، وتركز أبحاثه ودراساته الأخيرة في الصراع الفلسطيني الإسرائيلي، ومآلاته المستقبلية، فيما يعتبر المؤلف الثاني لاوف من خريج الجامعات الأمريكية والأوروبية، وعمل فترة طويلة في معهد كارنيغي لأبحاث السلام والصراعات الدولية([١]).

ومن أهم الأسباب التي تعجل في عملية الزوال والتآكل كلاهما مع بعضهما البعض بشكلٍ متلازم هو: غوغائية و عدم واقعية الفكر الصهيوني، لأنه فكر معادٍ للتاريخ، ولذلك حينما يقرأ الصهاينة التاريخ فإنهم يحولونه إلى أسطورة بسيطة تختزل الواقع تماماً، وتحوله إلى مجموعة من التفاصيل المتناثرة، وبدلاً من أن يكون أساساً للحوار مع الذات ومع الآخرين، ويتحول التاريخ إلى مجرد تفاصيل تخدم تجهيزات الإنسان وأهواءه، ولعل قراءة الصهاينة لتاريخ فلسطين على أنها أرض جرداء خالية من السكان تنتظر ساكنيها الأصليين من اليهود، وهو أكبر مثل على ذلك([٢]).

([١]) انظر: كتاب: الشكوك المحيطة بمستقبل إسرائيل، للمؤلفان: بوركوفيتش، وريشار لاوف، تل أبيب: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، عرض عدنان أبو عامر، ص٢٧٢.

([٢]) المسيري، دفاع عن الإنسان، ص٦٩.

ويقول مؤلف كتاب سقوط إسرائيل:" إذا كانت إسرائيل ليست مسئولة بالكامل عن الاختفاء السريع للشعب اليهودي، فإنها بالكاد تقدم سببا للاعتقاد بغير ذلك... إن جيلا جديدا من اليهود يبحث عن الاعتزاز والفخر بوطنه إسرائيل، ولا يجد بديلا من ذلك إلا الجريمة والفساد والطمع"([١]).

مؤلف هذا الكتاب ويفخر كونه يهودياً وإسرائيلياً، ومن أجل إسرائيل فقد خاطر بحياته في المعارك سابقا، ومستعد لأن يفعل ذلك من جديد، ولكن ليست لديه الرغبة في مشاهدة سقوط إسرائيل، وكل القيم المطلوبة لاستمرار أمة مستقرة عادلة ومزدهرة مطبوعة ومعروفة في التقاليد اليهودية، لقد تاه حكام إسرائيل عن عظمة ميراثهم وهم يجرون البلاد بتهور نحو النكبة والكارثة، وإذا لم يستفيق هؤلاء المتمسكون بالسلاح، وينتبهوا إلى المأساة التي يرتكبونها بتضليل شعبهم، ويعمدوا إلى إجراءات ملائمة لاستدراك تلك المأساة، فستسقط البلاد بالتأكيد.

وما هو مؤكد أن الرب يرعى إسرائيل وهذه المرة لن توجد قوة في السماء سوف تخلق مجددا، أمة يهودية ذات كرامة مرة أخرى([٢])، ولا يكتفي الصهاينة بتسوية تاريخ فلسطين والفلسطينيين فحسب، وإنما يقومون أيضاً بتسوية تواريخ الجماعات اليهودية في العالم، والصهاينة في هذا متسقون مع أنفسهم إلى أقصى درجة، فتصور أن الأرض الخاوية تنتظر عودة سكانها الذين غادروها منذ عدة آلاف من السنين، وأن هؤلاء السكان في حالة شوق دائم وانتظار مستمر ورغبة عارمة في العودة.

وهاهي الدولة الصهيونية قد أسست منذ ما يزيد على نصف قرن وغالبية الشعب اليهودي لا يزال يرفض بإصرار العودة لمواطنيها، مما يضطر الحركة القومية اليهودية، أي: الصهيونية إلى رشوة أعضاء الشعب اليهودي للعودة، بل وتضطر أحياناً إلى إرهابهم حتى يعودوا، والواقع أن طريقة معالجة الصهيونية لواقعة ماساداه ([٣]) هو مثل كلاسيكي لتشويه التاريخ وتسخيره لخدمة الرؤية الذاتية([٤]).

وينبه **باري شيمش** مؤلف كتاب: سقوط إسرائيل بقوله: " إذا كانت إسرائيل ليست مؤولة بالكامل عن الاختفاء السريع للشعب اليهودي فإنها بالكاد تقدم سبباً للاعتقاد بغير ذلك، إن جيلاً جديداً من اليهود يبحث عن الاعتزاز والفخر بوطنه: إسرائيل، ولا يجد بديلاً من ذلك إلا الجريمة والفساد والطمع"([٥]).

([١]) شيمش، باري، سقوط إسرائيل، ترجمة محمد العابد، مراجعة : علي رمان ، عمان، ص٣٩٤، الأهلية للنشر والتوزيع.

([٢]) المرجع السابق، ص٣٩٤.

([٣]) ماساداه: " أسطورة ليست في أهمية أكذوبة " أرض بلا شعب لشعب بلا أرض " ولكنها ذات فعالية على مستويين: بعث الخوف في قلوب العرب، وتعبئة الشباب الإسرائيلي، وتذهب الأسطورة إلى أن اتجاهاً شمشونياً فيما يسمى: الشخصية اليهودية أو الإسرائيلية، وهو أنه إن حوصر اليهود فإنهم يؤثرون الانتحار على الاستسلام وأنهم يقولون " عليَّ وعلى أعدائي " ويدمرون العالم بأسره، هذه هي الرؤية الصهيونية لواقعة ماسادا، وهي رواية تحتوي على حقائق تاريخية كثيرة، ولكنها حذفت حقائق تاريخية أخرى في غاية الأهمية، حتى تؤكد ما يسمى: " الشخصية اليهودية " إلا أن أية قراءة لكتب التاريخ ستقوض الرواية الصهيونية تماماً ".

- المسيري، في الخطاب والمصطلح الصهيوني، ص(٧٠-٧١).

([٤]) المصدر نفسه، ص١٦٠.

([٥]) المصدر نفسه، ص٣٩٤.

وعلى الرغم من فخر مؤلف الكتاب– سقوط إسرائيل – يفخر بكونه يهوديا وإسرائيليا، ومن أجل إسرائيل فقد خاطر بحياته في المعارك سابقاً، ومستعد لأن يفعل ذلك من جديد، ولكن ليست لديه الرغبة في مشاهدة سقوط إسرائيل، وكل القيم المطلوبة لاستمرار أمة مستقرة عادلة ومزدهرة مطبوعة ومعروفة في التقاليد اليهودية، لقد تاه حكام إسرائيل عن عظمة ميراثهم وهم يجرون البلاد بتهور نحو النكبة والكارثة، وإذا لم يستفق هؤلاء المتمسكون بالسلاح وينتبهوا إلى المأساة التي يرتكبونها بتضليل شعبهم، ويعمدوا إلى إجراءات ملائمة لاستدراك تلك المأساة، فستسقط البلاد بالتأكيد، وما هو مؤكد أن الرب يرعى إسرائيل وهذه المرة لن توجد قوة في السماء سوف تخلق مجدداً أمة يهودية ذات كرامة مرة أخرى([١]).

ومما يعزز نهاية المشروع الصهيوني والدولة الوظيفية، وفي المقابل نمو المشروع التحرري والمضاد لوجود المشروع الصهيوني هو بقاء الفلسطينيين في أرضهم، متحدين لأبشع استعمار إحلالي في التاريخ، وقد راهن كبار القادة الصهاينة على هذه القضية بل ربطوها بمصير مشروعهم الاستيطاني، وقد حلل ذلك فلادمير جابوتنسكي([٢])، الزعيم الصهيوني الذي ورث تفكيرَه حزبُ الليكود وشارون ونتنياهو، بل والمؤسسة والأحزاب الصهيونية بكاملها وعلى اختلاف مشاربها بعد قيام إسرائيل.

وجاء هذا التحليل في مقال نشره في برلين في ٤ تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩٢٣م، بعنوان الجدار الحديدي: نحن والعرب([٣])، وجهه بشكل خاص لقادة من الحركة الصهيونية، فند فيه ادعاءهم بأنهم يستطيعون إغراء الفلسطينيين للموافقة على المشروع الصهيوني بمنافع مادية لهم، زعموا بأنها ستترتب على المشروع الصهيوني.

والجدار الحديدي هو ذلك النهج الذي يجب أن تسير عليه الحركة الصهيونية لحماية مشروعها، وهو نهج طرحه في مقاله، انطلاقا من اعترافه بأن المشروع الصهيوني مشروع استعماري استيطاني، ومن أنه، نتيجة لطبيعته هذه، سيُواجَهُ بمقاومة من الشعب الفلسطيني والشعوب العربية، وأن هذه المقاومة ستيس وكما أصاب جابوتنسكي في تشخيص طبيعة المشروع الصهيوني، فإنه أصاب أيضا في تشخيص ما يؤدي إلي حمايته أو إفشاله، أما الحماية وهي الجدار الحديدي، فتأتي من ضمان التفوق الدائم في القوة التي لا يستطيع العرب قهرها، ويكون ذلك:

([١]) المصدر نفسه، ص٣٩٤.

([٢]) انظر بصدد مقالة الجدار الحديدي لجابوتنسكي مقالة بعنوان: زئيف جابوتنسكي والقضية الفلسطينية: قراءة في مكونات الفكر الصهيوني اليميني، بقلم : محمد أبو بكرة، باحث وآكاديمي فلسطيني مقيم في القدس، المقال مترجم عن العبرية، مجلة قضايا إسرائيلية تصدر عن المركز الفلسطيني للدراسات مدار، مدير التحرير هنيدة غانم، ص٣٧–٣٨.

([٣]) أنظر مقال جابوتنسكي في The Iron Wall: We and the Arabs in 51 Documents: Zionist :
(2002) p. 32، (ed).: Lenni Brenner،Collaboration with the Nazis

أولاً– التحالف باستمرار مع دولة عظمى قادرة على فرض إرادتها وحماية المشروع الصهيوني.

وثانيا– بناء القوة الذاتية التي يكون في مقدورها مواجهة المقاومة المنتظرة، وسارت الحركة الصهيونية في هذا النهج، فتحالفت مع بريطانيا أولاً، وفي أثناء الحرب العالمية الثانية حرصت علي إبقاء علاقاتها وتعاونها قائمين مع ألمانيا النازية، بالرغم من اضطهادها لليهود، ثم نقلت تحالفها الأساسي إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وها هي الآن تسعي لإقامة تحالف مع القوتين العالميتين القادمتين، الهند والصين([1]).

رأي الباحث: يمكن القول أن الإطار الدولي يعمل لغير مصلحة إسرائيل، كما أن الإطار الإقليمي يعمل ضدها أيضاً، كما أن الإطار الداخلي يعمل ضد إسرائيل، حيث تعاني من مشاكل داخلية، ولن تؤدي وظيفة للقوى العظمى– وعلى رأسها الولايات المتحدة الدولة الحاضنة– والمشروع الصهيوني المتمثل بالكيان القائم لن يستطيع الاستمرار في الوجود كقوة دولية، كذلك فإن مصير إسرائيل ومصير المنطقة يتوقف على خلق الإرادة الذاتية وظهور المقاومة، وبروز القوى الجديدة على الساحة الدولية([2]).

([1]) القاسم، أنيس، شروط سقوط المشروع الصهيوني، جريدة القدس الدولية، ٢٠٠٨/٤/١٢م.

([2]) راجع ما كتبه الدكتور كمال الأسطل في دراسته القيمة : مستقبل إسرائيل بين الاستئصال والتذويب، ص٢٨٧ وقارن بما أورده المسيري في الموسوعة وكتبه الأخرى .

المبحث الرابع

مصير دولة إسرائيل وتيار ما بعد الصهيونية

ثمة عدة أطروحات من قبل أكاديميين ومؤرخين إسرائيليين مفادها: أن الحركة الصهيونية قد أوشكت على نهايتها، ولا مفر من تجاوزها إن لم يكن الانقلاب عليها، وكان على رأس هؤلاء الأكاديميون والباحثون والمؤرخون الجدد هو البريفسور أبراهام بورج، حيث تم طرح المفكرون والأكاديميون الإسرائيليون أكثر من حلقة دراسيةسنة ٢٠٠٠م، في محاولة الاستشراف الأقصى لما بعد الصهيونية، باعتبار أن الصهيونية قد أوشكت على نهايتها ولا مفر من تجاوزها، إن لم يكن الانقلاب عليها، ومن المفارقات العجيبة أن يعقد المؤتمر الصهيوني الأول في ذات المبنى (شتات كازينو) الذي عقد فيه المؤتمر الأول سنة ١٨٩٧م بمشاركة (١٧٠٠) من الشخصيات اليهودية العالمية، وقد لفت أنظار المراقبين المشاهد التالية:

١. الحراسة والإجراءات الأمنية الكثيفة التي فرضتها الحكومة السويسرية لحماية المؤتمرين، حيث شارك بضعة آلاف في حراسة مكان المؤتمر والطرق المؤدية إليه إضافة لطائرات الهليوكبتر.
٢. عدم مشاركة أي شخصية رسمية مثل: رئيس الدولة السابق (عيزر وايزمان) ورئيس الحكومة (بنيامين نتنياهو).
٣. عدم تغطية المؤتمر من قبل الصحافة وتعمد التعتيم الإعلامي.
٤. عدم توجيهه الدعوة إلى أي من أقارب (تيودور هرتزل) مؤسس الحركة الصهيونية بحضور المؤتمر الذي أسسه هو، كما لاحظ ذلك مراسل صحيفة يديعوت أحرونوت.
٥. إن الخطاب الذي ألقاه أبراهام بورج– رئيس المنظمة– حظي بتصفيق وترحيب غالبية أعضاء المؤتمر، واحتج أعضاء الوفد الإسرائيلي وخرجوا من القاعة وهم يقولون: إن بورغ حضر إلى مدينة بال ليس ليثني على ميراث هرتزل، بل ليواريه التراب([١]).

اعترف بورج إن إسرائيل تواجه أزمة متفاقمة تتمثل في قنابل موقوتة اجتماعية وقومية، خلفها وراءهم الآباء المؤسسون للدولة، بما فيها العلاقة بين المؤسسة الدينية، والدولة والعلاقة بين إسرائيل واليهود الذين يسكنون في الخارج، والعلاقات بين إسرائيل والدول العربية([٢]).

([١]) انظر: كتاب: مائة عام على المشروع الصهيوني– أزمة الفكر ومأزق الدولة، مجموعة من المؤلفين، مراجعة وإعداد: محمد المقداد، أبو ظبي، مركز الدراسات العربية والدولية، ص١٣٧–١٣٨.

([٢]) المصدر نفسه، ص١٣٩.

تمت الدعوة إلى ما بعد الصهيونية ونشرت أبحاث وعقدت بشأنها منذ سنوات عديدة، ويلاحظ أن مثقفي ما بعد الصهيونية، أو المؤرخين الجدد، أوعلماء الاجتماع الجدد ليسوا أول من تحدى الرواية الصهيونية لماضي إسرائيل وحاضرها، وأن بعضهم يكتسب ثقة أكبر بالنسبة إلى المستقبل عندما يتصور إقامة دولة إسرائيلية بدلاً من دولة يهودية ؛ دولة لجميع مواطنيها([1]).

وعقدت في تل أبيب في تشرين الأول/أكتوبر سنة ١٩٩٥م ندوة شارك فيها عدد من كبار الكتاب والمثقفين الإسرائيليين خصصت للبحث في الصهيونية، وما بعد الصهيونية، وعكست الحوارات التي دارت فيها شكوكاً وإدانات كبيرة للصهيونية، وهي فشل الصهيونية في إيجاد مكان آمن لليهود، فإسرائيل هي المكان الأقل أمانا، وقد أكدت نتائج تلك الندوة بأن الصهيونية اليوم تمر في أكثر فترة مكثفة من أزماتها فالصهيونية ،فشلت في تطبيق الأهداف التي وضعتها نصب أعينها([2]).

([1]) المصدر نفسه، ص١٤٠.

([2]) المصدر نفسه، بتصرف، ص١٤٣.

المبحث الخامس

العلامات العشر لسقوط المشروع الصهيوني

حدد المسيري عشر علامات تؤشر على أن زوال (إسرائيل) بات وشيكاً ونفى المسيري أن يكون لهذا التوقع علاقة بالتشاؤم أو التفاؤل، مشددا على أنه يقرأ معطيات وحقائق يستقيها من الكتب والصحف الإسرائيلية.

والعلامات العشر التي حددها المسيري هي([1]):

تآكل المنظومة المجتمعية للدولة العبرية، والفشل في تغيير السياسات الحاكمة، وزيادة عدد النازحين لخارج إسرائيل، وانهيار نظرية الإجماع الوطني، وفشل تحديد ماهية الدولة اليهودية، بالإضافة إلى عدم اليقين من المستقبل، والعزوف عن الحياة العسكرية، وعدم القضاء على السكان الأصليين، وتحول إسرائيل إلى عبء على الإستراتجية الأمريكية، نهاية باستمرار المقاومة الفلسطينية.

ويرى المسيري أن تآكل المنظومة المجتمعية لإسرائيل هو أحد أهم أوجه انهيار إسرائيل، وذلك بعدما فشل مصطلح (الصهر) الذي حدده ديفيد بن غوريون مؤسس الدولة العبرية؛ لصهر المجتمع الإسرائيلي بأكمله في منظومة واحدة، موحدة القومية بعيدا عن الهويات المتعددة التي جاء بها اليهود من مختلف بلدانا لعالم.

وأضاف: هذا المفهوم فشل في إيجاد هوية قومية موحدة لليهود القادمين إلى إسرائيل، وهناك مشكلة دمج عرب(٤٨) والأقليات داخل المجتمع الإسرائيلي، والتي مازالت تمثل عائقا، كما وقع المجتمع الإسرائيلي في مجموعة من الاستقطابات والصراعات الفكرية والعرقية.

وفيما يتعلق بتغير السياسات الحاكمة، قال المسيري إن هذا الفشل أدى إلى تزايد حالة القلق داخل إسرائيل من قبل المفكرين والمثقفين، والذي وصل إلى درجة الهاجس من حدوث انهيار الداخل الحزبي، وظهور تمرد عام في إسرائيل أو حتى شيوع حالة من التذمر في مؤسسات الجيش والاستخبارات على غرار ما جرى في الستينيات بين صفوف الموساد، في ظل تعثر خطوات تطوير النظام السياسي القائم.

أما العلامة الثالثة التي حددها المسيري فهي (النزوح من إسرائيل)، مشيراً إلى أن السجلات الإسرائيلية تؤكد نزوح مليون إسرائيلي لخارج إسرائيل من إجمالي (٦) ملايين قدموا إليها،

([1]) المسيري، العلامات العشر لسقوط المشروع الصهيوني، موقع إسلام أون لاين ISLAMONLINE.NET موقع إسلام أون لاين.

وأضاف: شهد العام الماضي وحده خروج أكثر من (١٨) ألف إسرائيلي، في حين تدنت مستويات الهجرة لإسرائيل إلى أقل معدلاتها منذ ٢٠ عاما.

وأرجع المسيري السبب وراء النزوح إلى حالة عدم اليقين من مستقبل إسرائيل، مشيرا إلى أن المجتمع الإسرائيلي مصطنع وبالتالي سيظل شعوره بعدم الانتماء إلى المنطقة قائم، ولفت إلى أن ما يؤكد ذلك قول الرئيس الإسرائيلي شيمون بريز عندما سأله أحد الصحفيين قبل أيام هل ستبقي إسرائيل (٦٠) عاما أخرى؟ فرد عليه: اسألني هل ستبقي ١٠ سنوات قادمة؟!

ومن بين العلامات أيضاً: انهيار نظرية الإجماع الوطني، نظرا لاتساع الهوة القائمة بين العلمانيين والمتدينين، والتي أدت إلى حالة من العداء المستمر بين الأحزاب الدينية الشرقية والغربية والوسطية، ولفت المسيري إلى أن إسرائيل فشلت حتى الآن في تحديد ماهية الدولة اليهودية، مشيرا إلى أن الحاخامات اليهود يؤكدون أن الإعلان عن الدولة اليهودية هو علامة انهيارها وفقا لمعتقدات الديانة اليهودية. وأضاف المسيري أن علامات انهيار الدولة العبرية تتعاظم خلال السنوات الماضية، ومن بينها ما تؤكده وسائل الإعلام والكتابات الإسرائيلية عن عزوف الشباب عن المشاركة في الحياة العسكرية، ورؤية شباب الدولة ورجالاتها عدم وجود مبرر لاستمرار الاحتلال لأراضي الغير، ولفت إلى أن الشباب الإسرائيلي بات يتساءل: هل هذه الحروب التي تخوضها الدولة خيار أم احتلال؟.

ومن بين العلامات التي شدد عليها المسيري: فشل الإسرائيليين في القضاء على السكان الفلسطينيين الأصليين، مشيرا إلى أن الوضع الديموغرافي في صالح الفلسطينيين وليس الإسرائيليين، وأضاف أن الجيوب الاستيطانية في العالم تنقسم إلى قسمين، الأول من نجح منها في القضاء على السكان الأصليين، مثل الولايات المتحدة وأستراليا، فيما لم ينجح القسم الثاني الذي تنتمي له إسرائيل في ذلك، و أردف: هذا ما اكتشفه بن غوريون مبكرا عندما قال: نحن الآن لا نجابه مجموعة من الإرهابيين، وإنما نجابه ثورة قومية، لقد صهرنا أرضهم ولن يسكتوا على ذلك وإذا قضينا على جيل فسيظهر آخر. أما العلامة العاشرة والأخيرة التي لفت إليها المسيري فهي أن: إسرائيل قائمة على الدعم الخارجي، وخاصة الدعم الأمريكي، والبعض يتحدث الآن عن أن إسرائيل بدأت تمثل عبئا على الإستراتيجية الأمريكية في المنطقة.

وأوضح أن الطبيعة الوظيفية لإسرائيل تعني أن القوى الاستعمارية اصطنعتها وأنشأتها للقيام بوظائف ومهام تترفع عن القيام بها مباشرة... فهي مشروع استعماري لا علاقة له باليهودية، وإذا انتهي هذا الهدف انتهت إسرائيل.

وأعرب المسيري عن أن استمرار المقاومة الفلسطينية ستؤدي لنهاية الدولة الإسرائيلية، مضيفا أن: هذا ما يؤكده قول أحد قادة إسرائيل: نحن غير قادرين على رصد صواريخ القسام بسبب صناعتها البدائية، ونحن على استعداد لأن نعطيهم صواريخ (أسكت) المتطورة ونأخذ صورايخ القسام، وأشار إلى أن إسرائيل تعاني

من غياب عمق الانتصارات، قائلا: إنه على الرغم من امتلاك إسرائيل لآلة عسكرية ضخمة حققت من خلالها العديد من الانتصارات، فإن الانتصارات العسكرية التي لا تترجم إلى انتصارات تصبح عقيمة.

النتائج والتوصيات

خلص الباحث من خلال دراسته على مجموعة من النتائج الهامة والتوصيات، ليتم من خلالها الشروع في خطوات عملية لمواصلة رسالة المسيري، فكانت نتائج الدراسة النحو التالي:

١. ساهمت الدراسة في تعديل النظرية الإستراتيجية نحو العدو الصهيوني المتمثل لدولة (إسرائيل) وقدمت منهاجاً جديداً في معرفته.

٢. وضحت الدراسة مدى قيمة وأهمية مؤلفات وكتابات المسيري، ودورها في تغيير الرؤية السائدة حول اليهود والحركة الصهيونية.

٣. كان من أهم النتائج التي خلصت إليها الدراسة هي أنها أزالت اللبس والخلط بين عدة مفاهيم تحاول الحركة الصهيونية وقادة الحركة الصهيونية.

٤. كشف الباحث في هذه الدراسة عن أهم النتائج التي توصل إليها المسيري من خلال الحركة الصهيونية المتمثلة في دولة إسرائيل.

٥. بين الباحث في دراسته أهم ما توصل إليه المسيري من أفكار حول نهاية المشروع الصهيوني موضحاً العلامات العشر لإرهاصات نهاية المشروع الصهيوني.

٦. بينت الدراسة جميع المستجدات التي حدثت في تاريخ الحركة الصهيونية وداخل مجتمع الكيان الصهيوني، والتغيرات التي طرأت ومدى الاستفادة منها في إعادة إدارة الصراع بكافة المستويات.

٧. قدمت الدراسة مجمل التطورات الأخيرة التي أدت إلى بوادر تفكك المجتمع الإسرائيلي وبدايات انهيار المشروع الصهيوني.

٨. طرحت الدراسة أهم النتائج التي قدمتها المؤسسات العلمية والبحثية في شؤون الصراع العربي الإسرائيلي.

أما التوصيات فهي:

١. إنشاء معاهد متخصصة في اليهودية والصهيونية وتاريخ إسرائيل، وذلك من خلال:

أ. توجيه أنظار الدارسين والباحثين إلى إعادة قراءة ودراسة التجربة الإسرائيلية.

ت. تركيز الجهود نحو دراسات متنوعة عن اليهودية وفرقها والصهيونية والأحزاب التي انبثقت عنها.

٢. إعادة تقييم لمجمل الأبحاث والدارسات والرسائل العلمية التي كتبت عن الصهيونية وتاريخها، وكل ما يتعلق بالكيان الذي مثلته ومازالت تمثله (إسرائيل).

٣. عقد ندوات ومؤتمرات وحلقات بحث لمواصلة دراسات وأبحاث المسيري ورؤيته ومنظومته الفكرية التي جاء بها عن الحركة الصهيونية وكل ما يتعلق بها.

٤. إكمال ومواصلة مشروع المسيري بتوجيه الباحثين وطلبة الدراسات العليا للتوجه نحو دراسة كتب ومؤلفات المسيري والاستفادة منها.

٥. إنشاء معهد متخصص في مدينة غزة يحمل اسم الدكتور عبد الوهاب المسيري، يتم من خلاله رصد ورفد كل ما يتعلق بدولة الكيان الصهيوني، والتطورات الأخيرة التي حدثت بداخله، والإفادة من آخر النتائج والمستجدات التي وقف عليها المسيري محللاً ودارساً ومتنبأً بمستقبل ومصير دولة الكيان الغاصب، وكيفية زوال هذا الكيان.

٦. إجراء دراسات معمقة وجادة عن الأحزاب والفرق اليهودية في أوروبا وأمريكا وبقية البلدان الأخرى وربطها بواقع الحركة الصهيونية المعاصرة.

٧. دراسة وتقييم للأعمال التي أصدرها اليهود باللغات الأوروبية منذ صدور الموسوعة اليهودية باللغات الأوروبية السائدة، وأهمها: الموسوعة التي صدرت باللغة (اليديشية) وهي اللغة الألمانية المعدلة لليهود الإشكناز حتى صدور الموسوعات اليهودية المختلفة باللغة العبرية، حيث أصدرت الجماعات اليهودية في العالم منذ القرن التاسع عشر وحتى القرن العشرين سبع موسوعات، ولم يكن لديهم أي كيان يمثلهم، فقد كانوا يعيشون إرهاصات فترة الشتات.

٨. إنشاء مواقع متخصصة على الشبكة العنكبوتية تتواصل مع إطروحات المسيري وتكمل مشاريعه التي أخذها على عاتقه.

٩. إصدار قواميس ومعاجم وموسوعات علمية تعرف وتوضح تاريخ اليهود والحركة الصهيونية وقادة إسرائيل على مدار التاريخ.

١٠. إنشاء مراكز للترجمة، تكثف جهودها ومهامها على ترجمة وتعريب كل ما يتصل بالحركة الصهيونية قديماً وحديثاً، وإصدار نشرات وأوراق بحثية وتعميمها ليستفيد منها الجميع مع محاولة تبسيطها.

قائمة المصادر والمراجع

أولا– المراجع العربية:

أ. الكتب العربية:

١. الأسطل، كمال: مستقبل إسرائيل بين الاستئصال والتذويب، دار الموقف العربي، القاهرة، ١٩٨٠م.

٢. بوركوفيتش، أوليفيا، وريشار لاوف: الشكوك المحيطة بمستقبل إسرائيل، مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، ٢٠١١/١٢/١٢ للكتب والدراسات، تل أبيب، ٢٠١١/٢١م.

٣. جريس، صبري: تاريخ الصهيونية، مركز الأبحاث، ١، بيروت، ط١.

٤. الحاج، ماجد: الشتات الروسي في إسرائيل، مركز مدار، رام الله، ٢٠٠م.

٥. حمد، محمد عاشور، فايد: حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في العهد الأيوبي، دار الاعتصام، القاهرة، ط١، ١٩٧٧م.

٦. الدجاني، هشام: اليهودية والصهيونية، دار الحقائق، دمشق– بيروت، ط١، ١٩٧٥م.

٧. شرف، محمد ياسر: فلسفة الوحدة المطلقة عند ابن سبعين، دار الرشيد، بغداد، ط١.

٨. عاشور، عبد الفتاح: الحركة الصليبية صفحة مشرقة من تاريخ الجهاد الإسلامي في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ج١، ط٥ ،١٩٩٣م.

٩. قاسم، عبده قاسم: رؤية إسرائيل للحروب الصليبية، دار الموقف العربي، القاهرة، ١٩٨٣م.

١٠. كامل، عبد العزيز بن مصطفى: قبل الكارثة نذير ونفير، مؤسسة صلاح السليم، الرياض،١٤٢١هـ.

١١. مجموعة من المؤلفين: مائة عام على المشروع الصهيوني، أزمة الفكر ومأزق الدولة، مركز الدراسات العربية والدولية اليهود أنثروبولوجيا– أبو ظبي، القاهرة، دار الهلال، ط٢، ١٩٩٦م.

١٢. المسيري، عبد الوهاب: الجماعات الوظيفية اليهودية نموذج تفسيري جديد، دار الشروق، دار الشروق، ط٣، ٢٠٠٧م.

١٣. المسيري، عبد الوهاب: اللغة بين التوحيد ووحدة الوجود، دار الشرورق، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٢ م

١٤. المسيري،عبد الوهاب: الموسوعة الموجزة لموسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، دار الشروق، القاهرة، ج١، ط٣.

١٥. المسيري، عبد الوهاب: انهيار إسرائيل من الداخل، دار المعارف، القاهرة، ط١، ٢٠٠٢م.

١٦. المسيري، عبد الوهاب: تاريخ الفكر الصهيوني جذوره ومساره وأزمته، دار الشروق، القاهرة، ط ١، ٢٠١٠م.

١٧. المسيري، عبد الوهاب: دفاع عن الإنسان دراسات نظرية وتطبيقه في النماذج المركبة، دار الشروق، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٦م.

١٨. المسيري، عبد الوهاب: رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمر، سيرة غير ذاتية غير موضوعية، دار الشروق، القاهرة، ط٣، ٢٠٠٨م.

١٩. المسيري، عبد الوهاب:في الخطاب والمصطلح الصهيوني، دار الشروق، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٥م.

٢٠. المسيري، عبد الوهاب، وآخرون: إسرائيل وجنوب أفريقيا، (د.م) وزارة الإعلام، الهيئة العامة للاستعلامات.

٢١. المسيري، عبد الوهاب: الأيديولوجية الصهيونية: دراسة حالة في علم اجتماع المعرفة (جزءان) المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، عالم المعرفة، الكويت ١٩٨١م، طبعة ثانية في جزء واحد ١٩٨٨).

٢٢. المسيلي، محسن: العلمانية فلسفة موت الإنسان، تونس، ط١، ١٩٨٦م.

٢٣. مكارم، سامي: الحلاج في ما وراء المعنى والخط واللون، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، ط١، ١٩٨٩م.

٢٤. الناشف، إسماعيل: النفي في كتابة إسرائيل، أبحاث حول النظام والمجتمع والدولة في إسرائيل، مدار المركز الفلسطيني للدرسات الإسرائيلية، رام الله، ط١.

ب. الموسوعات والمعاجم:

٢٥. رمزي، محمد: القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى ١٩٤٥م، القسم الثاني (البلاد الحالية)، الجزء الثاني: مديريات الغربية والمنوفية والبحيرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م.

٢٦. الزركلي، خير الدين: الأعلام، قاموس تراجم، ج٦، دارالعلم للملايين.

٢٧. صليبا، جميل: المعجم الفلسفي بالالفاظ العربية والفرنسية والإنكليزية واللاتينية، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ط ١، ١٩٧٨م.

٢٨. المسيري، عبد الوهاب: موسوعة اليهود واليهودية الصهيونية، القاهرة، دار الشروق، ط١، ١٩٩٩م.

٢٩. منصور، جوني: معجم الأعلام والمصطلحات الصهيونية والإسرائيلية، المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية (مدار) ط١، ٢٠٠٩م.

ث. الرسائل العلمية:

٣٠. حجاج، أحمد شعبان علي: الصور الحداثية بين زيجمونت باومان وعبد الوهاب المسيري، دراسة مقارنة، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القاهرة، ٢٠٠٨ م.

٣١. **قيمة الإنسان بين المرجعية الكامنة والمرجعية المتجاوزة،** لطالب ماجستير لم يكتب اسمه أرسلها إلى بعض الأصدقاء، وقد اتسمت بالطابع الفكري الفلسفي، وهي جيدة وفيها إضافات كثيرة جداً في فكر المسيري نحو الحداثة والعلمانية والمناهج الإنسانية، كما أنها تضيف الكثير للفكر الإسلامي المعاصر.

٣٢. عبد الحميد محمد، عمرو نور الدين: **بناء منهاجية جديدة لتحليل الظاهرة السياسية:** عبر العطاء الفكري للمسيري، رسالة ماجستير غير منشورة في قسم العلوم السياسية، جامعة حلوان، سنة ٢٠١٢م.

ج. الدوريات العربية:

٣٣. جعفر، هشام: فقه التحيز أعلى مراحل التحرر المعرفي، بحث ضمن كتاب: في عالم عبد الوهاب المسيري، حوار نقدي حضاري ٢، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٤م.

٣٤. حمودة، عمرو كمال: المسيري وتفكيك بنية الفكر الصهيوني، في عالم عبد الوهاب المسيري.

٣٥. درويش، إبراهيم: قصة تشكل مفكر عربي كبير المسيري في سيرة غير ذاتية غير موضوعية، بحث ضمن كتاب: في عالم المسيري.

٣٦. رايلي، كافين: مفكر عربي في سياق عالمي المدخل إلى فكر المسيري، بحث في كتاب: في عالم عبد الوهاب المسيري.

٣٧. عبد الفضيل، محمود: عبد الوهاب المسيري المثقف العضوي النموذجي، جريدة البديل، بتاريخ ٧-٧-٢٠٠٧م.

٣٨. العوا، محمد سليم: الدأب الواعي، مقالة من كتاب: في عالم عبد الوهاب المسيري حوار نقدي حضاري، دار الشروق، القاهرة، ج٢، ط١،٢٠٠٤ م.

٣٩. مورو، محمد: الريادة الفكرية والإنسانية، مقالة في كتاب في عالم المسيري.

د. المقالات:

٤٠. توينبي، أرنولد: صدقي عبد الله حطاب: مجلة عالم الفكر، وزارة الإعلام، الكويت، مج٥.

٤١. جابوتنسكي، زئيف: ترجمة عن العبرية: محمد أبو بكرة: مقال بعنوان: قراءة في مكونات الفكر الصهيوني اليميني، مجلة قضايا إسرائيلية، تصدر عن المركز الفلسطيني للدراسات، مدار.

٤٢. صالحية، محمد عيسى: الصليبيات والصهيونيات، مجلة العربي، عدد ٤٨٩، مايو ٢٠٠٠م.

٤٣. عوضين، إبراهيم: التجانس اليهودي والشخصية اليهودية، مجلة الأزهر، صفر سنة ١٤٢٧هـ.

٤٤. القاسم، أنيس: شروط فشل المشروع الصهيوني من منظور واضعيه، نشر في جريدة القدس العربي التي تصدر في لندن، بتاريخ ٢٠٠٨/٣/١٩.

هـ. مقابلات ولقاءات ومحاضرات:

٤٥. مازن النجار: في حديثه عن المسيري، ندوة المسيري سنة ٢٠٠٧م الذي عقدتها إذاعة القدس بالتعاون مع الجزيرة مباشر.

ثانيا– مراجع أجنبية مترجمة:

٤٦. روز، جون: ترجمة: قاسم عبده قاسم: أساطير الصهيونية، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م.
٤٧. الشارترى، فوشيه: ترجمة: زياد العسلي: تاريخ الحملة إلى القدس، دار الشروق، عمان، ط١ ، ١٩٩٠م.
٤٨. شتانيسالتر، أدين: ترجمة: فينيا بوتشسفيا الشيخ، مدخل إلى التلمود، دار الفرقد للطباعة، بيروت، ٢٠٠٦م.
٤٩. شيمش، باري: ترجمة: محمد العابد: سقوط إسرائيل باري شيمش، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان.
٥٠. لالاند، أندرية: تعريب: خليل أحمد خليل: موسوعة لالاند الفلسفية، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.
٥١. هارفي، دافيد، ترجمة: محمد شيا: ما بعد الحداثة، رحلة في أصول التعبير الثقافي، المنظمة العربية للثقافة والتربية والعلوم، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م.

ثالثا– المواقع الاكتورونية:

٥٢. إدالكوس، عبد الله: عبد الوهاب المسيري: النماذج التفسيرية، دراسة في الأدوات التحليلية، من ماكس فيبر إلى عبد الوهاب المسيري، بتاريخ ٠٣ يوليو ٢٠١١م، الأحد على موقع الملتقى الفكري للإبداع.
٥٣. إسلام أون لاين: ISLAMONLINE.NET.
٥٤. البازعي، سعد: المسيري وأشكلة المفاهيم، مقالة على موقع:
www.al .jazirah.com.sa/culture/09042007/almlf28.htm
٥٥. جمعة، محمود: مقالة بعنوان: المسيري محطات أكاديمية ومواقف سياسية، أرشيف الجزيرة نت.
٥٦. الحسن، بلال: غياب المسيري، الرجل الذي حاصر الفكر الصهيوني بالكلمات، مقالة في جريدة الشرق الأوسط، الأحد رجب ١٤٢٩هـ، يوليو ٢٠٠٨ العدد ١٠٨١٣، عن موقع الجريدة على الويب www.aawsat.com leader.asp
٥٧. رؤوف، هبة: المشروع الفكري للدكتور عبد الوهاب المسيري رحلة البحث عن المعنى والدفاع عن الإنسان. على موقع: Posted on August 08th، 2009 محاضرات in 2009
www.heba-ezzat.com/2009/08/08

٥٨. زيدان، يوسف: الحلولية في موسوعة المسيري، موقع يوسف زيدان للتراث والمخطوطات: *www.ziedan.com*.

٥٩. سيد أحمد، رفعت: نهاية إسرائيل قراءة فى أزهار من حديقة المسيرى المنسية

على موقع الويب التالي :http://www.facebook.com/group.php?gid=177305179592

٦٠. مازن النجار: مقتطفات للدكتور المسيري على صفحات موقع الجزيرة نت. WWW.JAZERANET.COM .

٦١. المسيري، عبد الوهاب: صهيونية دفتر الشيكات، المقال أعده المرحوم قبل وفاته على موقع الجزيرة نت: www.hljazeera.net المعرفة وجهات نظر.

٦٢. 1999-1993.2000 Zionism Microsoft® Encarta® Encyclopedia Corporation Microsoft.

63. ShowMaqal.ph / http://www.almultaka.net .

٦٣. موسوعة الويبيكيديا: www.wikpedia.org .

٦٤. موقع الجزيرة نت .WWW.JAZERANET.COM .

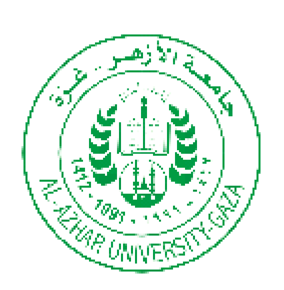
٦٥. موقع المسيري : http:// www.elmessiri.com/index.php

AL Azhar University -Ga za

Deanship of Post Graduate and Scientific Research

Faculty of Arts – History Department

Master Programme for Middle – East Studies



Almisseri and the Concept of Zionism throughout His studies on Judaism and Zionism

Prepared by

Abdel-lattif Zaki Abu Hashim

Supervisor by :

Dr. Khalid M Safi – Al Aqsa - University

Dr. Essam Mukhemar Al Azhar University-Gaza

Complementary research for Master Degree in Middle East Studies
History Department

A.D

2013-1434 H